

الزمن العَصِيبُ



الروايات المشهورة

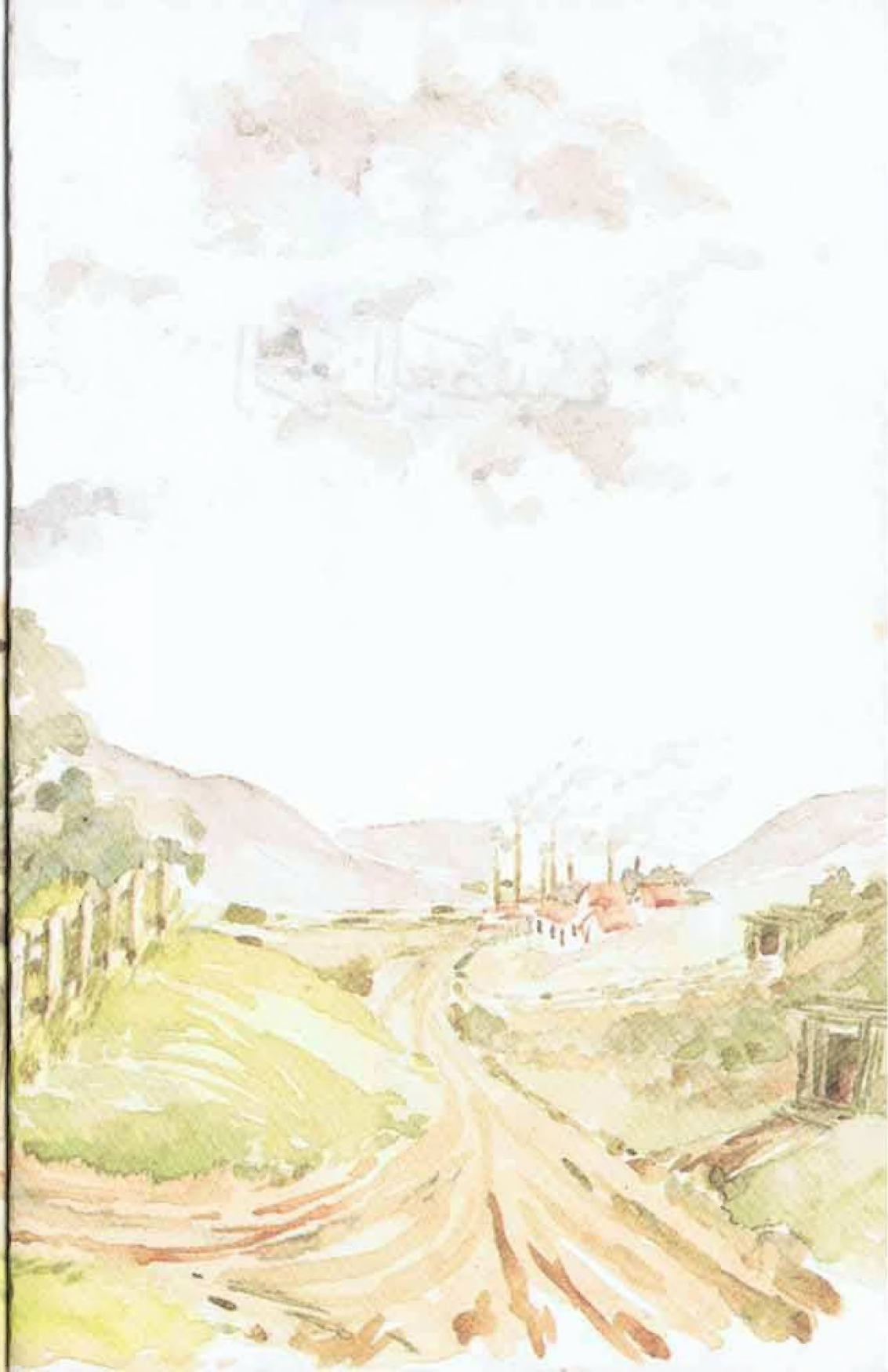
الروايات المشهورة

- ١ — جين إير
- ٢ — فرانكنشتاين
- ٣ — مونفليت
- ٤ — دراكولا
- ٥ — لورنادون
- ٦ — دكتور جيكل ومستر هايد
- ٧ — شي الملكة الأسطورة
- ٨ — كونت مونت كريستو
- ٩ — الرجل الخفي
- ١٠ — الزمن العَصِيب



مَكْتَبَةُ لَبْنَان

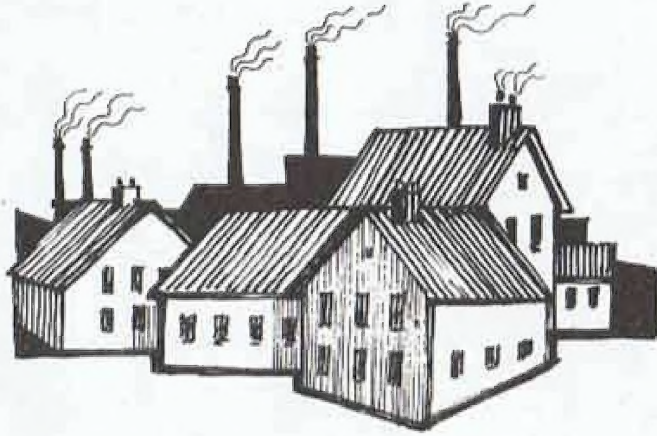
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَح - بَيرُوت



الزمن العَصِيبُ



الروايات المشهورة



تأليف : تشارلز ديكنز
إعداد : الدكتور اللواء السيد أبو مسلم
رسوم : ممدوح فهمي كراس

مَكْتَبَةُ لِبْنَان
بِیروت

الفصل الأول

وَقَفَ السَّيِّدُ غِرَاذُغَرَايْنِدُ فِي أَحَدِ فُصُولِ مَدْرَسَتِهِ يُخَاطِبُ الْمُدْرَسِينَ : « إِنِّي أُرِيدُ الْحَقَائِقَ ! وَلَا نَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ وَالْبَنَاتُ سِوَى الْحَقَائِقِ ! لَقَدْ دَأْبْتُ عَلَى تَشْبِيهِ أَوْلَادِي عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ ، وَأُرِيدُكَ أَنْ تُنْشِئَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ . فَلَنْ يَنْفَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ سِوَى الْحَقَائِقِ . »

كَانَ الْفَصْلُ مَكَانًا كَثِيبًا مُرَبَّعَ الشَّكْلِ ، يَجْلِسُ فِيهِ عِشْرُونَ تَلْمِيزًا هَادِثِينَ عَلَى مَقَاعِدِهِمْ ، عَلَى حِينِ كَانَ السَّيِّدُ غِرَاذُغَرَايْنِدُ ، نَاطِرُ الْمَدْرَسَةِ ، يَتَحَدَّثُ إِلَى مُدْرَسِ الْفَصْلِ . وَكَانَ ثَمَّةَ شَخْصٍ آخَرَ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ .

كَانَ السَّيِّدُ غِرَاذُغَرَايْنِدُ يَمْلِكُ الْمَدْرَسَةَ ، وَقَدْ بَنَاهَا عَلَى شَاكِلَتِهِ مُرَبَّعَةَ الشَّكْلِ : فَجِسْمُهُ مُرَبَّعُ الشَّكْلِ ، وَلَهُ رَأْسٌ مُرَبَّعٌ وَأَصَابِعُ غَلِيظَةٌ مُرَبَّعَةٌ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ أَشْبَهَ بِمَقَرَّتَيْنِ دَاكِئَتَيْنِ مُرَبَّعَتَيْنِ فِي رَأْسِهِ الْأَصْلَعِ الَّذِي بَدَأَ مُهَيَّأً لِأَنْ يَنْفَجِرَ مِنْ كَثَرَةِ مَا حُشِرَ بِهِ مِنْ خَفَاقٍ .

لَمْ يَكُنْ غِرَاذُغَرَايْنِدُ يَرَى فَائِذَةً إِلَّا فِي الْحَقَائِقِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَعَامَلُ إِلَّا مَعَ مَا يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ أَوْ قِيلًا ، وَيَرْفُضُ سِوَاهُ .

وَوَاصَلَ كَلَامَهُ فَلَا : « إِنَّنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا نَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى الْحَقَائِقِ . الْهَضِي أَيْتَهَا الْفَتَاةُ رَقْمَ ثَلَاثِينَ . إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذِهِ الْفَتَاةَ ، فَمَنْ هِيَ ؟ »

نَهَضَتِ الْفَتَاةُ رَقْمَ عِشْرِينَ وَقَدْ أَحْمَرَّ وَجْهَهَا حَجَلًا ، وَأَنْحَنَتْ بِاخْتِرَامٍ لِلسَّيِّدِ
غَرَاذِغَرَايْنِد . كَانَتْ جَمِيلَةً ، سَوْدَاءَ الشَّعْرِ وَالْعَيْنَيْنِ .

قَالَتْ : « سِيسِي جُوب ، يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ غَرَاذِغَرَايْنِد : « سِيسِي لَيْسَ اسْمًا . اسْمُكِ سِيسِيلِيَا . »

إِنْحَنَتْ الْفَتَاةُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَقَالَتْ وَحُمْرَةُ الْحَجَلِ مَا زَالَتْ عَلَى وَجْهَيْهَا : « وَلَكِنْ
أَبِي يُنَادِينِي بِاسْمِ سِيسِي . »

فَرَدَّ النَّاطِرُ غَاظِيًا : « إِذَا فَهُوَ مُخْطِئٌ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرِيهِ أَنْ يَكْفَ عَنْ ذَلِكَ ؛
فَاسْمُكِ سِيسِيلِيَا جُوب . مَا هُوَ عَمَلُ وَالِدِكَ ؟ »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ : « إِنَّهُ يَعْمَلُ فِي السَّيْرِكِ ، يَا سَيِّدِي . إِنَّهُ يَرْكَبُ الْخَيْلَ . »

وَيَبْدُو أَنَّ النَّاطِرَ لَمْ يُعْجِبْهُ الرَّدُّ فَقَالَ : « فِي السَّيْرِكِ ؟ إِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ
شَيْئًا عَنِ السَّيْرِكِ هُنَا . إِنَّهُ يَرْعَى الْخَيْلَ عِنْدَمَا تَمْرَضُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قَالَتْ : « بَلَى يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْضًا . »

قَالَ النَّاطِرُ : « إِذَا فَوَالِدُكِ طَيِّبٌ . إِنَّهُ طَيِّبٌ لِلْخَيْلِ . وَآلَانَ أَخْبِرْنِي يَا سِيسِيلِيَا
جُوب : مَا هُوَ الْجِحْصَانُ ؟ هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تُعْرِفِيهِ ؟ »

إِحْمَرَّ وَجْهُ الْفَتَاةِ حَجَلًا ، وَخَفَضَتْ بَصَرَهَا ، وَلَمْ تُجِبْ .

قَالَ النَّاطِرُ : « إِنَّ الْفَتَاةَ رَقْمَ عِشْرِينَ تَلْمِذَةً غَيْبَةً ، فَهِيَ لَا تَعْرِفُ الْحَقَائِقَ
الْأَسَاسِيَّةَ عَنْ حَيَوَانَ مَالُوفٍ تَعْرِفُهُ جَمِيعًا . سَوْفَ أَسْأَلُ تَلْمِذًا . » وَأَشَارَ النَّاطِرُ

بِأَصْبَعِهِ الْمُرْبَعِ نَحْوَ غُلَامٍ أَيْبَضَ الْوَجْهِ وَشَعْرُهُ خَفِيفٌ فَاتِحُ اللَّوْنِ يُدْعَى بِيْتَزَر ،
وَسَأَلَهُ : « وَآلَانَ يَا بِيْتَزَر : مَا هُوَ الْجِحْصَانُ ؟ »

أَجَابَ الْغُلَامُ : « إِنَّ الْجِحْصَانَ يَا سَيِّدِي حَيَوَانٌ ذُو أَرْبَعِ قَوَائِمَ ، يَأْكُلُ
الْحَشَائِشَ وَالْخُبُوبَ ، وَفِي فَمِهِ أَرْبَعُونَ سِنًا ، وَيَتَسَاقَطُ شَعْرُهُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ .
وَمِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ تُرَكَّبَ لَهُ نِعَالٌ (خَدَوَاتُ) فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا سُقُوطُ
الْأَمْطَارِ . وَيُعْرِفُ عُمْرُهُ بِعَلَامَاتٍ فِي أَسْنَانِهِ ... »

رَضِيَ النَّاطِرُ بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ ، وَنَظَرَ نَحْوَ الْفَتَاةِ وَقَالَ لَهَا : « أَنْتِ أَيْتُهَا الْفَتَاةُ
رَقْمَ عِشْرِينَ ، هَلْ سَمِعْتِ ؟ هَلْ عَرَفْتَ آلَانَ الْحَقَائِقَ الْأَسَاسِيَّةَ عَنِ الْجِحْصَانِ ؟ »

اشْتَدَّ احْمِرَارُ وَجْهِ سِيسِي ، وَأَنْحَنَتْ مَرَّةً ثَمَّ جَلَسَتْ . وَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ الثَّانِي
إِلَى الْأَمَامِ ، وَكَانَ مُوظَّفًا حُكُومِيًّا لَا يَتَعَامَلُ هُوَ أَيْضًا إِلَّا مَعَ الْحَقَائِقِ .

قَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُمْ أَيُّهَا التَّلَامِيذُ الْحَقَائِقَ الْأَسَاسِيَّةَ عَنِ الْجِحْصَانِ . وَآلَانَ أَوْدُ
أَنْ أَوْجِهُ سُؤَالَ : لَوْ أَنْتُمْ رَغِبْتُمْ فِي تَجْمِيلِ حُجْرَةٍ ، فَهَلْ تُعْلَقُونَ عَلَى جُذُرَانِهَا
صُورًا لِلْخَيْلِ ؟ »

اِخْتَلَفَ التَّلَامِيذُ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ ، فَقَدْ أُيِّدَ يَصْنَفُهُمْ هَذَا الْإِقْتِرَاحُ ،
أَمَّا النِّصْفُ الْآخَرُ فَقَدْ رَفَضَهُ .

أَوْمَأَ الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ قَائِلًا : « بِالطَّبَعِ يَجِبُ أَلَّا تُعْلَقُوا صُورَ الْخَيْلِ عَلَى الْحَائِطِ !
هَلْ سَبَقَ أَنْ شَاهَدَ أَحَدُكُمْ جِحْصَانًا يَرُوحُ وَيَجِيءُ فَوْقَ الْحَائِطِ ؟ »

قَالَ بَعْضُ التَّلَامِيذِ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي ! وَلَكِنْ أَصَوَانُهُمْ ضَاعَتْ وَسَطَ ضَجِيجِ

الأسوات التي قالت : « لا يا سيدي ! »

قال الرجل : « كلا بالطبع ! فالحيل على الحائط ليست من الحقيقة في شيء . »

وأيد السيد غراذغرايند رأي الرجل قائلا : « هذا صحيح للغاية ! » وواصل الرجل حديثه قائلا : « يجب ألا يكون لدينا شيء غير حقيقي . » ثم وجه السؤال التالي :

« لو رغبتم في شراء سجادة ، فأني نوع تشترونه ؟ هل تفضلون شراء سجادة عليها تصاوير أزهار ؟ »

أدرك التلاميذ أن إجاباتهم بكلمة : « لا » تحظى بالإعجاب والرضا فصاحوا جميعا : « لا ! لا تشتري مثل هذه السجادة . » ولكن سيسي جواب وأثنين آخرين أجابوا : « نعم يا سيدي ، نفضل شراءها . »

انزعج الرجل واتجه نحو الفتاة وسألها مرة ثانية : « أيتها الفتاة رقم عشرين ، هل تشتري سجادة عليها تصاوير أزهار ؟ »

احمر وجه سيسي خجلا ، وانحنت وأجابت : « نعم يا سيدي ، فانا أحب الأزهار ؟ »

فقال الرجل : « ولكن الناس تمشي على السجاجيد بأحذيتهم الثقيلة ، فهل تحبين أن يدوسوها بأحذيتهم ؟ »

ردت الفتاة : « ولكن الأخذية لن تثلف الأزهار التي على السجادة . إنني

أحب أن أتحيل مثل هذه السجادة خديقة جميلة . »

فصاح الرجل : « تتحيلين ؟ ماذا تعنين بهذه الكلمة ؟ ليس لك أن تتحيلي . » وقاطعه الناظر قائلا بلهجة حازمة : « سيبيليا جوب ! إنني أمتنع من أن تتحيلي أي شيء . »

صاح الرجل مؤكدا : « الواقع ! الواقع ! »

وكرر السيد غراذغرايند قول الرجل : « الواقع ! الواقع ! »

قال الرجل : « في هذه المدرسة يجب أن ينسى الجميع كلمة « أتحيل » . وعندما ترسمون شيئا فلا ترسموا خيولا أو زهورا ، فهذه الأشياء إذا ما رسمت على الورق لم تعد واقعا . وإذا قرأتم أو كتبتم فاقروا وكتبوا الحقائق فقط . هل فهمتم ما أقول ؟ هل فهمت أيتها الفتاة رقم عشرين ؟ »

أجابت سيسي : « نعم يا سيدي . » وانحنت وجلست . كانت صغيرة السن جدا ؛ فبدأ لها عالم الحقائق الجامد خاليا من الجمال والإثارة .

الفصل الثاني

عاد السيد غراذغرايند إلى منزله في تلك الليلة يعمّره الشعور بالرضا والسعادة ، فسرعان ما سيحقق تلاميذ مدرسته من التفوق العلمي ما حققه أبناؤه الخمسة . ومن المؤكد أنه لن يتسنى لأحد أن ينال تعليمًا مثل الذي ناله أولاده الخمسة .

ففي منزله المسمى ستون لودج أعد غراذغرايند لأبنائه غرفة لتكون فصلًا يستذكرون فيه دروسهم ، ولتكون محبسًا لهم أيضًا . فما إن استطاعوا المشي حتى دفعهم إلى أن يمشوا إليها . وعلى هذا فقد شبّ أبناؤه لا يربطهم بطقولتهم شيء سوى ذكرى السبورة وصورتها . ولم يحدث أن سمعوا قصة الدببة الثلاثة ، ولكنهم يعرفون أن الدب حيوان له أربع أرجل ، وفروة كثيفة خشنة . ولا يعرفون عن القمر سوى أنه أرض صخرائية جرداء خالية من الهواء . والشمس عندهم ليست سوى كمية من الغازات الملتهبة .

أما المنزل المسمى ستون لودج فهو مبنى كبير مربع الشكل يقع على بُعد كيلومترين من مدينة كوكتاون في شمال غرب إنجلترا . وهو منزل يخلو من كل لمحات الجمال ، به سبّث نوافذ على يمين الباب الرئيسي ، وسبّث مثلها على شماله . وثمة اثنتا عشرة نافذة في الواجهة الخلفية . والمنزل بصفة عامة شامخ ركين متوازن الجوانب ، كما يجب أن يكون عليه منزل سيد جليل . والمنزل مثل كل شيء في حياة السيد غراذغرايند ، يعد حقيقة تبعد كل البعد عن الخيال .

كان السيد غراذغرايند قد اشتغل بالتجارة وأثرى منها . وكان يشتري القدر والأواني من المصانع ثم يبيعها للمحال التجارية . وقد حقق أرباحًا عاليةً اعتبرها حقيقة من الحقائق لم تحق مرة في إدخال السرور إلى نفسه . ولما توافر له من يساعده في أعمال التجارة اتسع وقته للقيام بأعمال أخرى أكثر أهمية ، وهي العمل الحكومي . فقد رغب أن يكون عضوًا في البرلمان ممثلًا عن مدينة كوكتاون ، ولم لا ؟ فقد عاش في هذه المدينة كل حياته ، وشيد بها هذه المدرسة ، ودفع الكثير ثمنًا لذلك . ومن ناحية أخرى فإن خبرته في عالم التجارة تؤهله لأن يكون عضوًا ناجحًا في البرلمان ، وخاصة أن البرلمان في رأيه يحتاج إلى رجال يعرفون الحقائق .

كان أهالي المدينة يعتبرونه رجل أعمال ممتازًا وجادًا وعمليًا لا عبت أو هزل معه . وكان سعيدًا بهذا الرأي ، واعتبره بذوره حقيقة من الحقائق التي يفخر بها ؛ لذا فإنه لم يخجل بأنغام الموسيقى المنبعثة من سيرك سلاري المقام في طريق عودته إلى منزله . فمن رأيه أن الرجال العاملين يتعمون بالعيش بدون الموسيقى .

كان سلاري قد أقام خيام هذا السيرك على مشارف المدينة ، ووقف أمام تلك الخيام وقد أمسك بيده صندوق النقود الذي يجمع فيه ثمن تذاكر الدخول ، وأخذ يصيح من وقت لآخر : « هيا إلى السيرك قبل أن تبدأ ألعاب الخيل ! شاهدوا جوزفين على حصانها الأبيض وهو منتصب على قدميه الخلفيتين ! شاهدوا اللاعب جوب الذي يركب حصانه مع كلبه المدهش المدرب مريلغز ! شاهدوا اللاعب تشيلدرز ! »

لم يتوقف السيد غراذغرايند ، بطبيعة الحال ، أمام السيرك ؛ إذ لا وقت لديه



لِيُمَثِّلَ هَذِهِ التَّفَاهَاتِ . وَوَصَلَ سِيرَهُ مَارًّا بِخِيَمَةِ السَّيْرِكِ الْكَبِيرَةِ دُونَ أَنْ يُعِيرَ الْأَمْرَ أَهْتِمَامًا . وَلَكِنَّ شَيْئًا شَدَّ انْتِبَاهَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ؛ إِذْ رَأَى ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنْ تِلَامِيذِهِ خَلْفَ الْخِيَمَةِ يَخْتَلِسُونَ النَّظَرَ مِنْ ثَقْبٍ فِي جِدَارِ الْخِيَمَةِ لِيُشَاهِدُوا مَا يَدَاخِلُهَا . وَكَانَ هَؤُلَاءِ التِّلَامِيذُ قَدْ تَغَيَّبُوا عَنِ الْمَدْرَسَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

دَهَشَ النَّاطِرُ وَلَمْ يُصَدِّقْ نَفْسَهُ ، وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ فِي أَنْ يَقْتَرِبَ لِيَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ . وَمَا إِنْ اقْتَرَبَ حَتَّى عَرَفَ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلَى الْفُورِ : ابْنَتَهُ لُوِيْزَا ، وَابْنَهُ ثُومَاسَ . وَنَادَاهُمَا بِجِدَّةٍ ، فَالْتَفَتَا نَحْوَهُ وَقَدْ أَحْمَرَّتْ وَجْهُاهُمَا خَجَلًا . وَلَكِنَّ الْفَتَاةَ تَجَرَّأَتْ وَنَظَرَتْ إِلَى أَبِيهَا ، أَمَّا الْغُلَامُ فَقَدْ غَلَبَهُ الْخَوْفُ ، وَلَمْ يَجْزُؤْ عَلَى النَّظَرِ إِلَى أَبِيهِ الَّذِي صَاحَ قَائِلًا :

« إِنَّ هَذَا أَغْرَبُ مَا شَاهَدْتُهُ فِي حَيَاتِي ! مَاذَا تَفْعَلَانِ هُنَا ؟ »

أَجَابَتْ لُوِيْزَا : « أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَاذَا يَدُورُ دَاخِلَ هَذَا السَّيْرِكِ . »

« مَاذَا يَدُورُ فِي السَّيْرِكِ ؟ ! »

« نَعَمْ يَا أَبِي . »

كَانَتْ لُوِيْزَا فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً وَتَبْدُو مِثْلَ امْرَأَةٍ نَاضِجَةٍ ، وَكَانَ وَالِدُهَا يُدْرِكُ هَذَا . وَتَرَاى لَهُ أَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرُ مَتَاعٍ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ هُوَ الَّذِي قَامَ بِتَرْبِيَتِهَا .

قَالَ مُوجِّهًا كَلَامَهُ لِابْنَتِهِ : « إِنِّي الْوُمُكُ عَلَى مِثْلِ هَذَا التَّصَرُّفِ . كَيْفَ لِفَتَى لَهُ تَرْبِيَتُكَ وَثِقَافَتُكَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَخِيهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ؟ »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ بِسُرْعَةٍ : « أَنَا الَّتِي أَتَيْتُ بِهِ يَا أُمِّي . وَقَدْ طَلَبْتُ مِنْهُ الْمَجِيءَ
مَعِيَ . »

قَالَ الْآبُ : « كَمْ يُوسِفُنِي سَمَاعُ هَذَا ! وَذَلِكَ لَا يُبْرِرُ مَوْقِفَ ثُومَاسَ ، وَيَزِيدُ
مِنْ سُوءِ مَوْقِفِكَ يَا لُوِيْزَا . »

نَظَرَتِ الْفَتَاةُ إِلَى أَبِيهَا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَذَرِفْ دَمْعَةً وَاحِدَةً .

فَعَادَ الْآبُ إِلَى تَوْبِيخِهَا قَائِلًا :

« أَنْتِ ؟ ! وَثُومَاسُ أَيْضًا ؟ لَقَدْ فَتَحْتُ لَكُمَا كُلَّ سَبِيلِ الْعِلْمِ ، وَحَصَلْتُمَا عَلَى
أَكْبَرِ قِسْطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَأَتَحْتُ لَكُمَا مَعْرِفَةَ كُلِّ الْحَقَائِقِ . وَمَعَ كُلِّ هَذَا أَجِدُكِ
هُنَا أَنْتِ وَثُومَاسُ فِي هَذَا الْمَكَانِ ... فِي السَّيْرِكِ ! أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ هَذَا
الْمَوْقِفَ . »

قَالَتِ الْفَتَاةُ : « كُنْتُ مُتَعَبَةً . وَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ مِنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ . »

« مُتَعَبَةٌ ؟ مِمَّ أَنْتِ مُتَعَبَةٌ ؟ »

« لَسْتُ أَذْرِي . مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيمَا أَظُنُّ . »

« إِنَّكَ تَتَحَدَّثِينَ مِثْلَ طِفْلَةٍ ، وَأَنَا رَاغِبٌ عَنْ سَمَاعِ كَلِمَةٍ أُخْرَى مِنْكَ . »
وَسَارُوا صَامِتِينَ حَوَالَى كِيلُومِترٍ ، إِلَّا أَنَّ السَّيِّدَ غَرَاذْغَرَايْنِدَ قَطَعَ الصَّمْتَ بِأَن سَأَلَ
لُوِيْزَا : « مَاذَا يَقُولُ خَيْرَةً أَصْدِقَائِكَ لَوْ عَرَفُوا بِهَذَا ؟ أَلَا يُهْمُكَ هَذَا ؟ مَاذَا يَقُولُ
السَّيِّدُ بَاوْنِيدِرْنِي ؟ »

وَمَا إِنَّ سَمِعَتِ الْفَتَاةُ هَذَا الْإِسْمَ حَتَّى رَمَقَتْ أَبَاهَا بِنَظَرَةٍ فَاجِصَةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ

يَلْحَظْ نَظَرَهَا ، وَكَرَّرَ سُؤَالَهُ : « مَاذَا يَقُولُ السَّيِّدُ بَاوْنِيدِرْنِي ؟ » مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ
دُونَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا جَوَابًا . وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْبَيْتِ وَجَدُوا السَّيِّدَ بَاوْنِيدِرْنِي
جَالِسًا فِي أَيْتَظَارِهِمْ يَصْطَلِي بِنَارِ الْمِدْفَاقِ بِجَوَارِ زَوْجَةِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِدَ . وَنَظَرَ
إِلَى لُوِيْزَا نَظَرَةً تُكَادُ تُصْرُخُ : « هَائِذَا يَا لُوِيْزَا ! »

كَانَ جُوشِيَا بَاوْنِيدِرْنِي رَجُلًا قَظًا ، ضَخْمَ الْجِسْمِ ، أَحْمَرَ الْوَجْهِ ، خَفِيفَ
الشَّعْرِ ، إِذَا تَكَلَّمَ بَدَا صَوْتُهُ كَالْعَاصِفَةِ . وَيُعْلَقُ الْبَعْضُ بِأَن غِلَظَ صَوْتِهِ هُوَ السَّبَبُ
فِي سُقُوطِ شَعْرِهِ . وَهُوَ يَتْلَعُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِيَّةً وَأَرْبَعِينَ عَامًا ، وَإِنْ بَدَأَ أَكْبَرَ مِنْ
عُمُرِهِ بِعَشْرِ سَنَوَاتٍ ، رُبَّمَا بِسَبَبِ الْجِدَّةِ الَّتِي تُكْسُو مَلَامِيحَ وَجْهِهِ . وَهُوَ عَمَلِيٌّ
فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ ، وَاسِعُ الثَّرَاءِ يَمْتَلِكُ أَكْبَرَ مَصَانِعِ الْمَلَابِسِ فِي الْمَدِينَةِ ، كَمَا
يَمْتَلِكُ الْمَصْرِفَ الْوَحِيدَ بِهَا . وَكَانَ يَتَفَاخَرُ دَائِمًا بِأَنَّهُ رَجُلٌ عَصَامِيٌّ ، وَلَمْ يَسْبِقْ
أَنْ لَيْسَ جِذَاءً فِي صِبَاةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي جَنْبِهِ قِرْشٌ وَاحِدٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ،
لَا لِسَبَبٍ إِلَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَيْبٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ
حَقُولِيهِ التَّعَسُّةِ ، وَيَخْكِي كَيْفَ أَلْقَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى الشَّارِعِ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَلْتَحِجْ
بِمَنْدَرَسَةٍ قَطُّ ، بَلْ عَلَّمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ يَشْعُرُ الْآنَ بِفَخْرٍ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ فِي
نِهَائَةِ الْأَمْرِ .

نَظَرَ بَاوْنِيدِرْنِي إِلَى لُوِيْزَا ، وَلَكِنَّهُ تَحَدَّثَ إِلَى ثُومَاسَ وَسَأَلَهُ : « إِنَّكَ لَا تُبْدُو
سَعِيدًا يَا ثُومَاسَ ، فَمَا السَّبَبُ ؟ »

قَالَتْ لُوِيْزَا : « كُنَّا نَحَاوِلُ مُشَاهَدَةَ السَّيْرِكِ ، وَلَكِنَّ الْوَدَّانَ ضَبَطْنَا . »

عَلَّقَ الْآبُ مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى زَوْجَتِهِ قَائِلًا : « إِنَّ مُشَاهَدَةَ السَّيْرِكِ أَمْرٌ سَيِّئٌ ،
شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ قِرَاءَةِ الشَّعْرِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قال باونديري : « إِنَّ التَّحْيِلَ الْبَاطِلَ شَيْءٌ بِالْبَيْعِ الضَّرَرِ لِأَيِّ إِنْسَانٍ ، وَأَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى فَتَاةٍ مِثْلِ لُويزَا . »

تَسَاءَلَ الْآبُ مَرَّةً أُخْرَى عَمَّنْ يَكُونُ قَدْ حَدَّثَهُمَا أَوْ حَثَّهُمَا عَلَى مَا فَعَلَاهُ ، فَرَدَّ باونديري مُتَسَائِلًا : « أَلَا تَوْجَدُ بِالْمَدْرَسَةِ تَلْمِيزَةً مِنْ السَّيْرِكِ تَدْرُسُ مَعَهُمَا فِي الْفَصْلِ نَفْسِهِ ؟ »

وَحَفِظَ غَرَادُغَرَايْنِدُ وَجْهَهُ قَائِلًا : « إِنَّهَا سَيِّسِيْلِيَا جُوب ، وَقَدْ رَأَيْتُهَا الْيَوْمَ . »
فَرَدَّ باونديري بِسُرْعَةٍ : « إِذَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرُدَهَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ . أُطْرُدُهَا الْيَوْمَ عَلَى الْفَوْرِ . »



رَدَّتِ الزَّوْجَةُ قَائِلَةً : « بَلَى ! إِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ يُقَدِّمُ تُوْمَاسُ وَلُويزَا عَلَى ذَلِكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ عِنْدَكُمَا وَاجِبَاتٍ مَدْرَسِيَّةٍ لَتَشْغَلَكُمَا ؟ أَنْتُمَا تَعْرِفَانِ أَنَّكُمَا تَدْرُسَانِ مِنَ الْحَقَائِقِ مَا يُصِيبُ رَأْسِي بِالْصُّدَاعِ إِذَا مَا حَاوَلْتُ قِرَاءَتَهَا ، بَلَى لَا أُسْتَطِيعُ أَبَدًا أَنْ أَتَذَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ نِصْفَ مَا قَرَأْتُ . »

فَقَاطَعَتْهَا الْفَتَاةُ قَائِلَةً : « هَذَا هُوَ السَّبَبُ ! »

لَمْ تَرُقْ هَذِهِ الْإِجَابَةُ الْآثَمُ ، فَقَالَتْ : « لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ يَا لُويزَا ! هَيَّا أَذْهَبِي إِلَى غُرْفَةِ الدَّرَاسَةِ لَتَسْتَذَكِّرِي شَيْئًا . كَمْ كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لِي كُلُّ فُرْصَةِ التَّعْلِيمِ الْمُتَاحَةِ لَكُمْ . »

لَمْ تَحْظَ الْآثَمُ إِلَّا بِقِسْطٍ بَسِيطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَلَمْ تَتَعَلَّمْ إِلَّا عَدَدًا مُخَدَّوْدًا مِنَ الْحَقَائِقِ . وَلَمْ يَقْرُوجِ السَّيِّدُ غَرَادُغَرَايْنِدُ بِهَا إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ رَأْسًا خَاوِيًا أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِنْ رَأْسٍ حُشِيٍّ بِالْخَيَالِ وَالْأَوْهَامِ .

وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَلَسَ السَّيِّدُ غَرَادُغَرَايْنِدُ وَخَذَهُ مَعَ باونديري ، وَقَالَ لَهُ : « إِنِّي قَلِقٌ يَا باونديري بِسَبَبِ مَا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ ؛ فَقَدْ تَلَقَى وَلَدَايَ أَفْضَلَ قِسْطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَأَعْنِي بِهَذَا الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ . وَآلَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ الْعِلْمِ يَتَسَلَّلُ إِلَى رَأْسَيْهِمَا . فَمَا الَّذِي دَفَعَهُمَا إِلَى الذَّهَابِ إِلَى السَّيْرِكِ فِي رَأْيِكَ ؟ »

أَجَابَ باونديري الرَّجُلَ الْعَمَلِيَّ : « إِنَّهُ التَّحْيِلُ الْبَاطِلُ . »

فَقَالَ لَهُ الْآبُ : « أُرْجُو أَلَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَلَكِنَّكَ قَدْ تَكُونُ فِي الْوَاقِعِ مُحَقًّا . »

أعجبت غراذغرايند برأي باوندرني ، وطلب منه أن ينتظر حتى يأتي بعنوان الفتاة
من مكتبه .

ذهب غراذغرايند ليحضر العنوان من مكتبه ، على حين ذهب باوندرني إلى
حجرة الدراسة حيث كانت لويزا تجلس مع توماس وإخوتها الثلاثة الآخرين ،
وكانت الصغيرة جين نائمة فوق كتاب مفتوح على صفحة مليئة بالأرقام .

وعندما دخل باوندرني الحجرة قال لتوماس ولويزا : « إن الأمر على ما يرام ،
وسوف يغفروا عنكما والذكما هذه المرة . وآلان يا لويزا ! ألا استحق قبلة ؟ »

فرفعت خدّها نحوه ، دون أن ترفع عينها ، فقبلها ، وقال لها باوندرني :
« أنت دائما أثيرة لذي يا لويزا ! إلى اللقاء ! »

وما إن انصرف حتى بدأت الفتاة تحك خدّها لتزيل آثار القبلة ، فاحمر خدّها
من أثر ذلك ، فقال لها أخوها مداعبا : « أخشى أن تحديني نقرة في وجهك وأنت
تفعلين هذا يا لو ! »

ردت عليه قائلة : « لك أن تقطع بالسكين الموضوع الذي قبلني فيه ، وأن
أصرخ ! »

الفصل الثالث

بعد خمس دقائق كان السيد باوندرني والسيد غراذغرايند يسرعان في طريقهما
إلى مدينة كوكناون ، وكانت وجهتهما شارع بود حيث يسكن كل من السيد
جوب وأبنته سيسيليا .

كانت مدينة كوكناون تمثل الفتح بعينه ، ولو خطر لك أن بها أي ميمة من
سمات الجمال لكنت في ذلك مُحطئا كل الخطأ ، فليس بها مظهر من مظاهر
الجمال ، أو أي لمحة من لمحات الخيال . فمباني المدينة التي يبيت قديما
بالطوب الأحمير قد تحول لونها إلى اللون الأسود بضبي الزمن ، ولما تراكم
عليها من أثرية ودخان . فكوكناون هي مدينة المصانع والآلات والماكينات
والمداخن العالية ، وتمتلئ أجواؤها بسحب الدخان والبحار . فالآلة البخارية
معبود المدينة ، وبها قناة سوداء اللون ، ونهر أحمر مياها من جراء ما يلقي
فيه من مخلفات مصانع الملابس والمنسوجات .

وبالمدينة العديد من الشوارع المتسعة المتشابهة ، والعديد من الشوارع
الضيقة المتشابهة والمزدحمة بالمنازل التي يتشابه السكان الذين يعيشون فيها .
فهم يتدأون أعمالهم يوميا في الساعة صباحا ، ويعودون إلى منازلهم في الساعة
مساء . ولا يختلف اليوم بالنسبة لهؤلاء الناس في شيء عن الأمس ، ولا العام
الحالي عن العام الماضي أو المقبل في قليل أو كثير . وتلك حقائق لا يدهش لها

سُكَّانُ الْمَدِينَةِ ؛ فَالْحَيَاةُ فِي كُوكُتَاوَن هِيَ الْعَمَلُ وَلَيْسَتْ الرَّاحَةُ ، وَالْعَمَلُ يَعْنِي الْحَيَاةَ لِيَوْمٍ آخَرَ أَوْ لِسَنَةِ أُخْرَى .

وَبِالْمَدِينَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ دَارًا لِلْعِبَادَةِ بُنِيَتْ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ ، وَكُلُّهَا مُتَشَابِهَةٌ ، وَلَا تُخْتَلِفُ فِي شَيْءٍ عَنِ السُّجْنِ الَّذِي بُنِيَ بِذَوْرِهِ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ أَيْضًا ؛ وَمَبْنَى الْبَلَدِيَّةِ كَانَ مِثْلَ الْمُسْتَشْفَى وَالسُّجْنِ فِي الشَّكْلِ وَالْحَجْمِ وَلَوْنِ الطُّوبِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَجَلَّى فِي هَذِهِ الْمَبَانِي ، وَفِي عُقُولِ النَّاسِ ، سِوَى الْوَاقِعِ ، الْوَاقِعِ ، الْوَاقِعِ .

وَرَغْمَ أَنَّ كُوكُتَاوَن هِيَ مَدِينَةُ الْوَاقِعِ وَالْحَقَائِقِ ، فَقَدْ كَانَ لَهَا مَشَاكِهَا ؛ فَالْعُمَالُ وَعَائِلَاتُهُمْ لَا يَتَرَدَّدُونَ عَلَى دَوْرِ الْعِبَادَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، بَلْ إِنَّهُمْ يُسْرِفُونَ فِي الشُّرْبِ ، وَلَمْ يَكُنِ الشَّاي أَوْ الْقَهْوَةُ شَرَابَهُمْ ، حَتَّى إِنْ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْبَرْلَمَانِ صَرَخَ قَائِلًا :

« إِنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى قَوَانِينٍ جَدِيدَةٍ لِنُجَبِّرَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ عَلَى آتِيَادِ دَوْرِ الْعِبَادَةِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ ، وَنُحَدِّثَ مِنْ إِسْرَافِهِمْ فِي الشُّرَابِ بِقُوَّةِ الْقَانُونِ . »

وَيَتَقَيُّ أَهَالِي كُوكُتَاوَن مَعَ لُوِيْزَا وَتُومَاسِ غِرَاذْغِرَايْنِدَ فِي سِمَةِ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ أَتَقَادُهُمْ لِشَيْءٍ مُهِمٍّ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَمَا يَفْتَقِدُونَهُ لَيْسَ حَقِيقَةً أُخْرَى بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ؛ فَلَدَيْهِمْ مِنَ الْحَقَائِقِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَاجُونَ . وَهَذَا يَدْعُونَا إِلَى التَّسَاوُلِ : هَلْ مَا يَفْتَقِدُونَهُ هُوَ الْحَيَالُ ؟ أَمْ لَعَلَّهُ السُّرُورُ وَالْمَتَعَةُ ، كَيْلِكَ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي سِيرِكَ سَلَارِي ؟

مَرَّ بَاوْنِدِرِي وَغِرَاذْغِرَايْنِدَ بِالسَّيْرِكَ وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يُلْقِيَ أَيَّ مِنْهُمَا نَظْرَةً وَاحِدَةً عَلَيْهِ ، وَاسْتَمَرَّ فِي طَرِيقِهِمَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى نِهَآيَةِ شَارِعِ بُوْدَ ، حَيْثُ يَسْكُنُ السَّيِّدُ

جُوبَ وَأَبْنَتُهُ سِيْسِيلِيَا . وَفَجَاةً أَقْبَلَتْ الْفَتَاةُ سِيْسِيلِيَا تُعْجَرِي مِنْ نَاصِيَةِ الطَّرِيقِ ، فَعَرَفَهَا السَّيِّدُ غِرَاذْغِرَايْنِدَ عَلَى الْفَوْرِ ، وَصَاحَ بِهَا : « قَفِي ؛ إِنَّا نُرِيدُكَ ! »

اسْتَدَارَتْ الْفَتَاةُ رَقَمَ عِشْرِينَ وَعَادَتْ إِلَيْهِمَا ، وَقَالَتْ فِي صَوْتٍ لَاهِتٍ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ غِرَاذْغِرَايْنِدَ : « إِنَّا نَبْحَثُ عَنْ وَالِدِكَ جُوبَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَصْحَبِنَا إِلَى غُرْفَتِهِ ؛ لِأَنَّا نُرِيدُ أَنْ نَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ . »

فَرَدَّتْ سِيْسِي قَائِلَةً : « سَأَفْعَلُ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ إِنْ سَمِعْتُمَا بُيَاحَ كَلْبٍ فَلَا تَفْرَعَا ، إِنَّهُ مِيرِيلِغَزْ كَلْبٌ وَالِدِي الْمُدْرُبُ . إِنَّهُ لَا يَعْضُ عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

وَلَكِنَّ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَمَا وَصَلَا الْمَنْزَلَ لَمْ يَجِدَا الْكَلْبَ وَلَا صَاحِبَهُ هُنَاكَ ، فَطَلَبَتْ إِلَيْهِمَا سِيْسِي أَنْ يَجْلِسَا وَيَنْتَظِرَا دَقِيقَةً وَاحِدَةً حَتَّى تَذْهَبَ وَتَبْحَثَ عَنْ وَالِدِهَا ، ثُمَّ أَخْضَرَّتْ لَهُمَا كُرْسِيِّينِ ، وَخَرَجَتْ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْغُرْفَةِ .

بَعْدَ دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ دَخَلَ الْغُرْفَةَ شَابٌّ مُتَوَسِّطُ الْقَامَةِ ، ثَبَدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْقُوَّةِ الْجَسَدِيَّةِ ؛ فَصَدْرُهُ وَظَهْرُهُ وَرِجْلَاهُ تُكَادُ تُمَرَّقُ ، مِنْ فَرْطِ قُوَّتِهِ ، الْبَذْلَةُ الَّتِي يَرْتَدِيهَا .

كَانَ هَذَا الشَّابُّ هُوَ السَّيِّدُ تَشِيلْدُزُزُ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ فِي سِيرِكَ سَلَارِي . وَقَدْ قَدَّمَ نَفْسَهُ لِلزَّائِرِينَ ، ثُمَّ سَأَلَهُمَا إِنْ كَانَا يَرْغَبَانِ فِي مُقَابَلَةِ السَّيِّدِ جُوبَ ، فَرَدَّ سَيِّدُ غِرَاذْغِرَايْنِدَ بِالْإِيجَابِ ، وَأَضَافَ قَائِلًا : « لَقَدْ آنْصَرَفَتْ أَبْنَتُهُ لِتَبْحَثَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَقْتُ لِنُضِيعَهُ . هَلْ لَكَ أَنْ تُثْقَلَ إِلَيْهِ رِسَالَةً مِنَّا ؟ »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّا مِنْ طِرَازِ أَوْلِيكَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْوَقْتِ ، أَمَّا

أَنْتُمْ ، أَيُّهَا الشَّبَابُ ، فَلَا تَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الْوَقْتِ . »

فَرَدَّ السَّيِّدُ تَشِيلَنْدَرُزُ قَائِلًا : « إِذَا لَا تُضَيِّعْ وَقْتُكَ . » وَاسْتَدَارَ نَاحِيَةَ السَّيِّدِ غَرَادَغَرَايَنْدِ وَقَالَ : « إِنَّ وَالِدَ الْفَتَاةِ قَدْ ذَهَبَ يَا سَيِّدِي . »

فَرَدَّ غَرَادَغَرَايَنْدِ مُتَسَائِلًا : « ذَهَبَ ؟ أَيْنَ ذَهَبَ ؟ »

فَرَدَّ السَّيِّدُ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لَقَدْ تَرَكَ السَّيْرَكَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِإِعْجَابِ جُمْهُورِ السَّيْرَكَ طَوَالَ الْأَسَابِيحِ الْمَاضِيَةِ ؛ لِهَذَا فَقَدْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ . »

قَالَ بَاوْنِدِرُزِي لِعَرَادَغَرَايَنْدِ : « إِنَّا بَيْنَ قَوْمٍ غُرَبَاءَ . جُوب لَمْ يَكُنْ مَحْبُوبًا ؛ وَلِهَذَا هَرَبَ . رَجُلٌ مِثْلِي ارْتَفَعَ بِنَفْسِهِ ... »

فَقَاطَعَهُ تَشِيلَنْدَرُزُ قَائِلًا : « غَضُّ مِنْ كِبَرِيَاثِكَ إِذَا قَلِيلًا . »

وَسَاءَلَ غَرَادَغَرَايَنْدِ : « وَلَكِنْ مَاذَا بِشَأْنِ الْفَتَاةِ أَبْنَتِهِ ؟ هَلْ تَرَكَهَا هُنَا ؟ »

أَجَابَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « يُوسِفُنِي هَذَا . لَقَدْ كَانَ هُوَ وَأَبْنَتُهُ شَدِيدِي التَّعَلُّقِ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ، وَلَكِنَّ الْأَبَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ بِهِ الْعُمُرُ — لَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فِي السَّيْرِكَ ؛ وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِالْحَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ . »

قَالَ غَرَادَغَرَايَنْدِ بِدَهْشَةٍ : « أَلِهَذَا هَرَبَ وَتَرَكَهَا خَلْفَهُ ؟ »

لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ غَرَادَغَرَايَنْدِ رَبَّ أَسْرَةٍ ، رَغِمَ أَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ ؛ لِهَذَا فَقَدْ شَعَرَ أَنَّ الْفَتَاةَ رَقَمَ عِشْرِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ وَحِيدَةً الْآنَ فِي الْحَيَاةِ .

قَالَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لَقَدْ شَعَرَ جُوبٌ بِالْحَجَلِ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ

الْبَقَاءُ مَعَ أَبْنَتِهِ . لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا لِذَرَجَةِ أَنَّهُ ... »

وَقَاطَعَهُ بَاوْنِدِرُزِي فِي صَوْتٍ كَالرَّغْدِ قَائِلًا : « هَرَبَ مِنْهَا ! عَظِيمٌ ! هَذَا عَظِيمٌ ! سَأَقُولُ لَكَ شَيْئًا أَيُّهَا الشَّبَابُ ، شَيْئًا قَدْ تَذَهَّشُ لِسَمَاعِهِ . إِنِّي أَفْهَمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ . لَقَدْ تَرَكَتَنِي أُمِّي وَهَرَبْتُ مِنِّي . »

قَالَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « إِنَّ هَذَا لَا يُثِيرُ دَهْشَتِي . لَقَدْ فَعَلْتَ وَالِدُكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ تَفْعَلَهُ ، وَلَكِنْ لَا تَصِبْ بِهَذَا الشَّكْلِ فَالْمَبْنَى لَيْسَ قَوِيًّا . إِنْ اسْتَمَرَرْتَ فِي الصَّبَاحِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فَقَدْ يَنْهَارُ السَّقْفُ عَلَيْنَا . » ثُمَّ اسْتَدَارَ مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى غَرَادَغَرَايَنْدِ : « لَقَدْ كَانَ مُكْتَبًّا طَوَالَ الْيَوْمِ ، وَأَنْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ مِيسِي مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَقَدْ أَخَذَ كَلِمَةً مَعَهُ . إِنْ مِيسِي لَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ وَالِدَهَا قَدْ تَرَكَهَا . »

تَسَاءَلَ غَرَادَغَرَايَنْدِ : « وَلِمَ لَا تُصَدِّقُ ذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ تَشِيلَنْدَرُزُ : « لِأَنَّهُمَا كَانَا وَثِيقِي الصِّلَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْ لُهُمَا أَنْ أَفْتَرَقَا مِنْ قَبْلِ . بِمُسْكِنَةِ مِيسِي ! إِنَّا لَمْ نَعْلَمْهَا شَيْئًا بِالسَّيْرِكَ ، فَوَالِدُهَا جُوب لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي أَنْ تَعْمَلَ بِالسَّيْرِكَ عَلَى الْإِطْلَاقِ . لَقَدْ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يُوفِّرَ لَهَا التَّعْلِيمَ حَتَّى ... »

وَقَاطَعَهُ غَرَادَغَرَايَنْدِ مُبْدِيًا إِعْجَابَهُ بِتَفْكِيرِ وَالِدِهَا وَسَدَادِ رَأْيِهِ .

وَاسْتَمَرَ تَشِيلَنْدَرُزُ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ عِنْدَمَا التَّحَقَّقَ أَبْنَتُهُ بِالْمَدْرَسَةِ . وَإِنَّا بِالطَّبْعِ سَعَادِرُ كَوَكُنَاوَنِ الشَّهْرِ الْقَادِمِ . »

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى غَرَادَغَرَايَنْدِ وَقَالَ : « إِنْ كُنْتُ يَا سَيِّدِي قَدْ جِئْتُ هُنَا لِتَمْدِيدِ الْمُسَاعَدَةِ لِهَذِهِ الْفَتَاةِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ مِنْ حُسْنِ طَالِعِهَا . »

رَدَّ غَرادُغَرَايِنْد قَائِلًا : « إِنَّ مَدْرَسَتِي مُخَصَّصَةٌ لِتَعْلِيمِ أَطْفَالِ مَدِينَةِ كُونُكَاوَن .
وَقَدْ كُنْتُ عَازِمًا عَلَى أَنْ أَخْبِرَ جُوب بِأَنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَدْرَسَةِ أَحَدٌ مِنْ
أَبْنَاءِ السَّيْرِك . وَلَكِنْ الْآنَ ، إِذَا كَانَ وَالِدُهَا قَدْ تَرَكَهَا حَقِيقَةً قَرِيبًا ... »

وَنَظَرَ غَرادُغَرَايِنْد إِلَى بَاوْنِدِرِي وَقَالَ لَهُ : « بَاوْنِدِرِي أُرِيدُ مَشُورَتَكَ . » وَالتَفَتَ
إِلَى تَشِيلْدِرُز وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَهُمَا وَحْدَهُمَا لِفَتْرَةٍ بَسِيطَةٍ ؛ فَانْتَصَرَفَ الْأَخِيرُ
وَوَقَفَ بِيَابِ الْغُرْفَةِ . وَتَرَامَتْ إِلَى سَمْعِهِ بَعْضُ كَلِمَاتِ الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ
الرَّجُلَيْنِ ، وَمِنْ بَيْنِ مَا سَمِعَهُ :

« لَا ! أَنَا أَقُولُ لَا يَا غَرادُغَرَايِنْد ! » ، « مِثْلُ لُوِيْزَا ... نِهَايَةً لِحَيَاةٍ شَرِيرَةٍ
يَا بَاوْنِدِرِي . إِنِّي أَمَلْتُ أَنْ ... »

وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ قَدْ تَجَمَّعَ خَارِجَ الْغُرْفَةِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ السَّيْرِك ، وَوَقَفُوا
مَعَ السَّيِّدِ تَشِيلْدِرُز . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَخْصِيَّاتٌ غَرِيبَةٌ كَرَاكِيي الْخَيْلِ ، وَمُدْرِي
الْحَيَوَانَاتِ ، وَالرَّاقِصِينَ وَالْمُغَنِّينَ . كَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ نِسَاءٌ بَدِينَاتٌ وَأَخْرِيَّاتٌ
لِحِفَاتٍ ، بَعْضُهُنَّ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الْجَمَالِ ، وَبَعْضُهُنَّ قَبِيحَاتٌ . وَلَكِنَّهُنَّ كَانُوا
مُتَّفِقِينَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا بُسْطَاءَ وَوُدْعَاءَ مِثْلَ الْأَطْفَالِ ، وَكَانَتْ
فِي أَعْيُنِهِمْ نَظَرَاتٌ تُبَيِّنُ عَنِ الْأَمَانَةِ وَالشَّفَقَةِ ، وَكَانُوا عَلَى أُنْثَى اسْتِعْدَادٍ لِمُسَاعَدَةِ
الْآخَرِينَ مِنْهُمَا كَانَ التَّمَنُّ .

وَأَخِيرًا جَاءَ السَّيِّدُ سِلَارِي الْبَدِينُ . وَفَوْرَ دُخُولِهِ الْغُرْفَةَ وَجَّهَ حَدِيثَهُ إِلَى
غَرادُغَرَايِنْد قَائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ يَا سَيِّدِي بِرَحِيلِ جُوب وَكَلْبِهِ ؟ تَرَى هَلْ سَبَبٌ
مَجِيئِكَ مُتَعَلِّقٌ بِالْفَتَاةِ ؟ »

أَجَابَ غَرادُغَرَايِنْد : « نَعَمْ ، وَسَوْفَ أُعْرِضُ اقْتِرَاحًا بِشَأْنِهَا عِنْدَمَا تَعُودُ . »

قَائِدِي سِلَارِي سَعَادَتُهُ لِسَمَاعِ ذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنِّي لَا أُرِيدُ بِالضَّبْطِ أَنْ
الْمُخْلَصُ مِنْهَا ، فَتَمَّةُ نَوْعٍ مِنَ الْقَانُونِ بَيْنَ أَفْرَادِ السَّيْرِكِ ، هُوَ أَنَّا نَرْغَبُ فِي مَدِّ
يَدِ الْمُسَاعَدَةِ لَهَا . »

« بِالطَّبَعِ نَعَمْ . »

« إِنَّ مَا لَدَيْكَ مِنْ خُطَطٍ وَأَفْكَارٍ بِشَأْنِ سَيِّسِي قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِمَّا لَدَيَّ ؛
لَأَنَّهُ إِذَا بَقِيَتْ مَعَنَا فَسَيَكُونُ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ بِالسَّيْرِكِ ، كَمَا أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَبْدَأَ
مِنْ أَوَّلِ السَّلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مَا أَرَادَهُ لَهَا وَالِدُهَا . »

وَعَادَتْ سَيِّسِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، فَدَفَعَهَا الْمَوْجُودُونَ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ ، ثُمَّ
اتَّفَقُوا حَوْلَ آيَابِ .

وَأَنْفَجَرَتْ سَيِّسِي بِاِكْبَةٍ وَهِيَ تَقُولُ : « آه يَا أُمِّي الْعَزِيزَ ! يَا أُمِّي الطَّيِّبَ
الْحَنُونَ ! مَاذَا سَتَفْعَلُ بِدُونِي ؛ إِذْ لَنْ يَكُونَ لَكَ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ ؟ »

قَالَتْ ذَلِكَ وَالْذَّمُوعُ تَسَابَ عَلَى وَجْهِهَا ، وَهُنَا صَاحَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي قَائِلًا :
« الْآنَ اسْمَعُوا جَمِيعًا ! إِنَّا نَضِيعُ الْوَقْتَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ هَرَبْتَ أُمِّي وَتَرَكَتَنِي ،
وَالْآنَ يَفْعَلُ وَالِدُ تِلْكَ الْفَتَاةِ الشَّيْءَ نَفْسُهُ ؛ فَالْحَقَائِقُ وَاضِحَةٌ أَمَامَنَا . لَقَدْ تَرَكَهَا
وَلَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا ، وَلَنْ تَرَاهُ مَرَّةً أُخْرَى . »

وَهُنَا سَمِعَ صَوْتًا يَتَسَاءَلُ : « مَنْ يَكُونُ هَذَا ؟ هَلْ يَظُنُّ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ يَعْرِفُ
كُلَّ شَيْءٍ ؟ »

وَصَاحَتِ النَّسْوَةُ : « يَا لِلْعَارِ ! أَيُّهُ حَقَائِقُ هَذِهِ ؟ ! إِنِّهَا لَقَسْوَةٌ ! »



وَهُنَا أَقْتَرَبَ سَلَارِي مِنَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي وَهَمَسَ قَائِلًا : « إِنَّ قَوْمِي لَا يَمِيلُونَ إِلَى الْأَدَى بِطَبْعِهِمْ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ نَافِذَةٌ مَفْتُوحَةٌ يَا سَيِّدِي ، وَإِنْ قُلْتَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يُقْلِقُوا بِكَ مِنْهَا ؛ لِذَا أَعْمَلُ بِنَصِيحَتِي وَأَلْزِمُ الْهَدُوءَ . »
وَبِالْفِعْلِ عَمِلَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ ، وَلَكِنَّ وَجْهَهُ أَكْثَسَى بِاللُّونِ الْأَخْمَرِ مِنْ قَرِطِ الْإِنْفِعَالِ حَتَّى كَادَ يَنْفَجِرُ .

قَالَ السَّيِّدُ غَرَادَغْرَايِنْد : « لَقَدْ رَحَلَ الرَّجُلُ ، وَقَدْ يَعُودُ مَرَّةً ثَانِيَةً . وَلَكِنَّا لَا نَعْرِفُ مَتَى سَيَعُودُ ، وَنَحْنُ نَتَّفَقُ جَمِيعًا عَلَى ذَلِكَ . »

رَدَّ سَلَارِي قَائِلًا : « إِنَّ مَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ . »

قَالَ السَّيِّدُ غَرَادَغْرَايِنْد : « كُنْتُ قَدْ قَرَرْتُ أَنْ أَفْصِلَ سِيَّيْلِيَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ ؛ وَلَكِنَّ عَلَى ضَوْءِ الظُّرُوفِ الْمُخْتَلِفَةِ الْآنَ ، فَالْفَتَاةُ لَمْ تَعُدْ تَنْتَمِي إِلَى السَّيْرِكِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا وَالِدُهَا ، وَإِنِّي عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ أَشْتَلَهَا بِرِعَايَتِي ، وَأَوْفَرُ لَهَا الْمَسْكَنَ ، وَأَتَوَلَّى تَعْلِيمَهَا . وَإِنْ وَاظَمْتُ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَهَا أَنْ تَأْتِيَ مَعِي عَلَى الْفُورِ ؛ وَلَكِنَّ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالسَّيِّدَاتُ الْأَا تَكْتُبُوا إِلَيْهَا ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهَا الْأَا تُرَايِلَكُمْ . إِنَّ هَذَا كُلُّ مَا لَدَيَّ لِأَقُولُهُ . »

قَالَ سَلَارِي : « إِنَّ هَذَا غَرَضٌ طَيِّبٌ يَا سَيِّدِي ، وَعَلَيَّ أَنْ أُتَّخِذَ قَرَارِي بِشَأْنِهِ . وَأَنْتِ أَيْضًا يَا سِيَّيْلِيَا عَلَيَّكَ أَنْ تُقَرَّرِي هَلْ تَرْضَيْنَ أَنْ تُعِيشِي مَعَ إِيمَا غُورْدُنْ ؟ وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ نَوْعَ الْعَمَلِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمِيهِ ، كَمَا تَعْرِفِينَ نَوْعَ الْحَيَاةِ الَّتِي سَتَعِيشِيهَا . أَظُنُّ أَنَّ هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ . »

قَالَ غَرَادَغْرَايِنْد : « هَذَا مَعْقُولٌ جِدًّا . وَتَذَكَّرِي يَا آيَسَةُ جُوب أَنَّ تَعْلِيمَ الْفَتَاةِ

مُهِمٌّ ، وَأَنَّ وَالِدَكَ كَانَ يَرْغُبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ إِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَتَّخِذَ قَرَارَكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ طَبِيعَةِ أَفْكَارِكَ وَقَرَارَاتِكَ يَا أَيْسَةُ جُوب . »

الفصل الرابع

كَفَتْ سِيسِي عَنِ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا انْفَجَرَتْ فِي الْبُكَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً وَتَسَاءَلَتْ : « مَاذَا لَوْ عَادَ وَالِدِي ؟ أَوَدُّ أَنْ أَهْبَى هُنَا وَالْأَفْكَافُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَنِي ؟ »

أَجَابَهَا السَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ بِهَدْوٍ : « لَا تُقْلَقِي بِشَأْنِ هَذَا يَا أَيْسَةُ جُوب . » وَلَمَّا كَانَ يُدْرِكُ الْحَقَائِقَ فِي لَمَحِ الْبَصَرِ فَقَدْ قَالَ مُسْتَطَرِّدًا : « إِنَّ وَالِدَكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ سِيرَكَ سَلَارِي بِسَهُولَةٍ ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَتَوَلَّى السَّيِّدُ سَلَارِي إِبْلَاغَهُ أَنَّكَ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ ثُومَاسِ غَرَادُغْرَانْدِ ، بِمَدِينَةِ كُوكْتَاوَن ، وَأَنَا مَعْرُوفٌ لِلْجَمِيعِ ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَتِيَّكَ مَعِيَ إِذَا مَا أَرَادَ وَالِدُكَ اسْتِعَاذَتَكَ . »

اسْتَمَرَّتِ الدُّمُوعُ تُسَابُ عَلَى وَجْهِ سِيسِي طَوَالَ الدَّقَائِقِ الْعَشْرِ أَوْ الْخُمْسِ عَشْرَةِ النَّالِيَةِ . لَكِنَّ الْكَثِيرِينَ طَبَعُوا قُبُلَانِهِمْ عَلَى وَجْهِهَا . فَجَفَّتِ الْقُبُلَاتُ مَا عَلَيْهِمَا مِنْ دُمُوعٍ . وَفِي الْنَهَايَةِ كَانَتْ سِيسِي مُسْتَعِدَّةً ، فَحَمَلَتْ حَقِيَّةَ مَلَاسِيهَا الصَّغِيرَةِ وَسَطَ أَصْوَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ حَوْلِهَا تَرْدُدُ : « وَدَاعَا يَا سِيسِيلِيَا ! وَدَاعَا يَا سِيسِي ! لَا تَنْسِينَا ! »

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتِ السَّيِّدِ سَلَارِي إِلَى السَّيِّدِ غَرَادُغْرَانْدِ هِيَ : « إِنَّهَا لَنْ نُنْسَانَا يَا سَيِّدِي ؛ فَإِنَّا نُسَلِّي النَّاسَ وَهَذِهِ هِيَ مُهِمَّتُنَا ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ التَّسْلِيَةِ ؛ فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعْمَلُوا طَوَالَ الْوَقْتِ . »

وَأَنْصَرَفَ السَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ وَالسَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَقَدْ سَارَتْ بَيْنَهُمَا الْفَتَاةُ رَقْمُ عِشْرِينَ .

كَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي عَزَبًا ؛ لِذَا اسْتَعْدَمَ مُدِيرَةَ مَنْزِلٍ تُدْعَى السَّيِّدَةُ سِيارِيت . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ عَمِلَتْ مُدِيرَةَ مَنْزِلٍ مِنْ قَبْلُ ؛ إِذْ كَانَتْ تَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ غَنِيَّةٍ وَمَشْهُورَةٍ ، وَلَكِنْ زَوْجُهَا السَّيِّدُ سِيارِيت مَاتَ صَغِيرَ السِّنِّ ، وَانْتَحَلَتْ مَعَ وَالِدَيْهَا مِمَّا اضْطَرَّهَا لِلْعَمَلِ .

وَكَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَالسَّيِّدَةُ سِيارِيت شَخْصَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ ؛ فَهِيَ تَفْخَرُ بِمَاضِيهَا الرَّائِعِ الْعَمَلِيِّ بِالْكَثَرِ ، وَتُحْجَلُ مِنْ حَاضِرِهَا . أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا يَوْمًا مَا ، وَأَعْتَادَ أَنْ يَقُولَ لِأَصْدِقَائِهِ : « لَقَدْ صَعِدْتُ مِنْ لَا شَيْءٍ إِلَى مَكَائِلِي الْحَالِيَةِ . أَمَّا السَّيِّدَةُ سِيارِيت فَإِنَّهَا بِكُلِّ مَا لَهَا مِنْ مُمِيزَاتٍ قَدْ هَبَطَتْ إِلَى لَا شَيْءٍ ! »

وَعِنْدَمَا غَادَرَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَالسَّيِّدُ غَرَادُغْرَانْدُ شَارِعَ بُوْد ، أَخَذَا سِيسِي مَعَهُمَا إِلَى مَنْزِلِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، حَيْثُ قَضَتْ لَيْلَتَهَا . وَكَانَ عَلَى السَّيِّدِ غَرَادُغْرَانْدِ أَنْ يُعِدَّ لَهَا غُرْفَةً فِي سِتُون لُودُج .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ ، قَالَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي لِلْسَّيِّدَةِ سِيارِيت : « يَجِبُ أَنْ يَهْبَى الْفَتَاةُ هُنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ ثُومُ غَرَادُغْرَانْدِ . إِنَّ فِكْرَةَ إِقَامَتِهَا هُنَاكَ تُقْلِقُنِي ؛ فَهِيَ فِكْرَةٌ غَيْرُ سَلِيمَةٍ ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي مَصْلَحَةِ لُويْزَا عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

قَالَتْ : « آه يَا سَيِّدِي ، إِنَّكَ أَبْ ثَانٍ لِابْنَةِ غَرَادُغْرَانْدِ ! »

قال : « ربما اكون ابا ثانيا بالنسبة ليوم الصغير يا سيدي . فانه سيعمل بالبنك قريبا ؛ ولذلك فمن الممكن ان يعيش معنا عندئذ . اخبريني يا سيدي : هل تعرفين شيئا عن اهل السيرك ؟ »

اجابت : « لقد تعلمت منك القليل عن الحياة الوضيعة ، يا سيدي . »

ضحك باوندرني قائلا : « بالطبع نعم ؛ فانت ولدت في احضان البذخ ، اما انا فولدت في الشارع . »

قالت : « حقا يا سيدي ، لقد ولدت في احضان البذخ ، اما انت ... » وفي تلك اللحظة ، فتح الباب ، ودخل منه السيد غراذغرايند ومعه ابنته لويزا .

وتصافح الرجلان ، وقبل السيد باوندرني لويزا ، ثم دخلت سيسي العرفة واتحنت في احترام لكل منهما .

قال السيد غراذغرايند : « حسنا يا ابنة جوب ! لقد اتخذنا قرارا بتعلق بمستقبلك . انك ستقيمين بمنزلي ، وتذهبين الى المدرسة كل يوم . اما في الاوقات التي لن تكوني فيها بالمدرسة ، فيمكنك ان تعني بزوجتي لانها مريضة . ولقد اخبرت ابنتي الاربسة لويزا عنك . » ثم اشار الى لويزا قائلا : « هذه هي لويزا . وقد اخبرتها عن حياتك بالسيرك ، تلك الحياة التي انتهت الآن ، ويجب الا تتحدثي عنها ثانية ، كما يجب عليك ان تبدي الآن مرحلة تعليمك ؛ فانك لا تعرفين شيئا عن الحقائق يا ابنة جوب . »

فاجابت سيسي وهي تنحني : « اجل يا سيدي ، لا اعرف عنها شيئا . »

قال السيد غراذغرايند : « سوف اغير من ذلك سريعا . » ثم اقترب منها

وهمس في اذنها : « هل تستطيعين القراءة يا ابنة جوب ؟ »

قالت : « نعم يا سيدي . فقد كان والدي اُميا لا يجيد القراءة ؛ لذا اعتدت ان اقرأ له ، وكانت تلك اللحظات التي كنت اقرأ له فيها من اسعد اللحظات ... » ثم اجهشت بالبكاء ، فظرت إليها لويزا لأول مرة ، وسألها السيد غراذغرايند : « وماذا كنت تقرأين ؟ »

اجابت : « كنت اقرأ له القصص الرائعة يا سيدي ، منها ما كانت تحكي عن الحيات الشريرة والخوريات الطيبة . كما قرأت « روبنسون كروزو » ، « ورخلات جليفر » والملك الذي كان لا يلبس أية ملابس ، وكنا نتساءل ... »

صاح السيد غراذغرايند : « كفي ! هذا يكفي ! يجب ألا تتساءلي يا ابنة جوب ! ولا تتخيلي أبدا ! » ثم خاطب باوندرني قائلا : « ان هذا امر خطير يا سيد باوندرني ؛ فتمه حلل ما ، ويجب علي ان اصلح هذا الحلل على الفور . » فاجاب السيد باوندرني : « لقد حذرناك يا سيد غراذغرايند . حذرناك الليلة الماضية . اني ما كنت لأفعل ما تفعله ، ولكن ... هذا شأنك وخذك فامض فيه ما دمت قد عزمتم . »

وبعد ذلك بقليل اصطحب السيد غراذغرايند وابنته سيسييا جوب معهما الى ملون لودج . وكانت الابنة صامئة طوال الطريق ، ولكن السيد غراذغرايند اخذ لكر مرة بعد اخرى : « اياك والتساؤل يا ابنة جوب ! اياك ان تتساءلي ! »

كان شعار « اياك والتساؤل » هو قانون السيد غراذغرايند الذي يحكم

الْحَيَاةَ ، فَقَدْ كَانَ سِرُّ التَّعْلِيمِ لَدَيْهِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَطَاعَ الشَّخْصُ أَنْ يَجْمَعَ الْأَعْدَادَ وَيَطْرَحَهَا وَيَضْرِبَهَا وَيَقْسِمَهَا ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّسْأُولِ .

وَالشَّيْءُ الْغَرِيبُ هُوَ أَنَّ كِبَارَ رِجَالِ مَدِينَةِ كُوكْتاون كَانُوا يَتَفَقَّهُونَ مَعَهُ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ . وَلَكِنْ لِمَاذَا إِذَا كَانَتِ الْمَكْتَبَةُ الْعَامَّةُ فِي كُوكْتاون تَحْتَلِي بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْكُتُبِ ؟ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مَا يُورِّقُ السَّيِّدَ غِرَادْغَرَايْنِدَ وَيَمَلُّ حَيَاتَهُ بِالْعُضْبِ وَالْقَلْقِ . فَكَانَ النَّاسُ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْرَأُوا قِصَصَ الْجَنِّيَّاتِ وَمُغَامِرَاتِ رُوبِنْسون كروزو وَرِخْلَاتِ جِلْفِر ، بَلْ وَكَانُوا يَقْرَأُونَهَا بِالْفِعْلِ وَيَتَفَعَّلُونَ بِهَا ، وَيَتَحَيَّلُونَ مَا فِيهَا ، وَتَمَلُّ قُلُوبُهُمْ بِالسَّعَادَةِ أحيانًا وَبِالْحُزَنِ أحيانًا أُخْرَى . وَلَكِنْ لَمْ تُكُنْ هُنَاكَ كُتُبٌ كَهَذِهِ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ غِرَادْغَرَايْنِدَ ، وَلَمْ تُكُنْ لُويْزَا أَوْ ثُومُ الصَّغِيرُ يَعْرِفَانِ شَيْئًا عَنْ قِصَصِ الْخَوْرِيَّاتِ أَوْ تِلْكَ الْمُغَامِرَاتِ .

ذَاتَ مَسَاءٍ قَالَ ثُومُ لِشَقِيقَتِهِ ، وَكَانَا جَالِسَيْنِ فِي حُجْرَةِ الدِّرَاسَةِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ حَيَاتِي يَا لُو ، إِنِّي أَكْرَهُهَا ، وَأَكْرَهُ كُلَّ النَّاسِ فِيمَا عَدَاكَ أَنْتِ . »

فَسَأَلَتْهُ لُويْزَا : « أَتُكْرَهُ سِيسِي أَيْضًا يَا ثُوم ؟ »

قَالَ ثُومُ : « يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أَتَذَكَّرَ بِهَا بِاسْمِ الْآيَةِ جُوب ، وَأَنَا أَكْرَهُ ذَلِكَ ، وَأُظَلُّ أَنِّهَا تُكْرَهُنِي أَيْضًا . »

رَدَّتْ لُويْزَا : « لَا ، إِنَّهَا لَا تُكْرَهُكَ يَا ثُوم ، وَأَنَا وَاثِقَةٌ بِهَذَا . »

قَالَ ثُومُ : « لَا ، إِنَّهَا تُكْرَهُنَا جَمِيعًا ، فَقَدْ اسْتَقَمَّنَاهَا ، وَصَارَتْ تَبْدُو أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهَا ، بَلْ لَقَدْ كَادَ السَّقْمُ يَنَالُ مِنْهَا بِالْفِعْلِ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « إِنَّ الدَّرُوسَ تَرْهَقُهَا . »

قَالَ ثُومُ : « إِنِّي جِمَارٌ يَا لُو ! فَأَنَا كَالْجِمَارِ فِي غَيَابِهِ ، وَأَجِسُّ بِمَا يُجِسُّ بِهِ الْجِمَارُ ، بَلْ إِنِّي لَا أَنَالُ السَّعَادَةَ إِلَّا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَنَالُهُ الْجِمَارُ ، وَلَا يَنْقُصُنِي سِوَى أَنْ أُرَكِّلَ النَّاسَ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ مِمَّنْ سَتَرَ كُلَّهُمْ يَا ثُوم ! »

رَدَّ عَلَيْهَا قَائِلًا : « كَلَّا ، أَنَا لَا أَوُدُّ إِيْدَاعَكَ ، وَلَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُحْيَا فِي هَذَا ... فِي هَذَا السَّجْنِ بِدُونِكَ يَا لُو . »

قَالَتْ لُويْزَا : « إِنِّي كَثِيرًا مَا أَسْأَلُ لِمَاذَا لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَجْعَلَكَ أَسْعَدَ ؟ إِنِّي أَقْدَمْتُ فِي السَّنِّ ... وَلَكِنِّي لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ مَا يُسْعِدُ الْآخَرِينَ . فَأَنَا لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَعْرِفَ لَكَ الْمَوْسِيقَى أَوْ أُغَنِّي ، وَلَا أَعْرِفُ أَيَّةَ قِصَصٍ لِأُخْبِيهَا لَكَ ، بَلْ إِنِّي لَا أَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ مَنْ اسْتَطِيعُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهُمْ . »

قَالَ ثُومُ : « وَكَذَلِكَ أَنَا ، إِنِّي جِمَارٌ ، وَقَدْ صِغْتُ أَيْ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنِّي جِمَارًا . »

قَالَتْ لُويْزَا : « يَاللَّاسِفَ الشَّدِيدَ ! إِنَّا لَا نَعْرِفُ كَيْفَ نُسَاعِدُ أَنْفُسَنَا . »

رَدَّ ثُومُ : « إِنَّكَ تَحْتَلِفِينَ عَنِّي ، فَأَنْتِ فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ . إِنَّكَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمُمْتَنِعُ فِي حَيَاتِي . وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَجْعَلِي هَذَا الْمَكَانَ مُشْرِقًا وَتُشِيعِي فِيهِ الْبَهْجَةَ . وَفِي أَمْسِكَ أَنْ تَقُودِنِي كَمَا تُسَائِرِينَ . »

قَالَتْ لُويْزَا : « لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ يَا ثُوم ، وَلَكِنَّكَ أَخِي الْعَزِيزُ . » وَذَهَبَتْ إِلَيْهِ

وَقَبْلَتُهُ ، وَعَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا قُرْبَ التَّافِذَةِ .

قَالَ توم : « كَمْ أَوْدُ أَنْ أَجْمَعَ الْحَقَائِقَ وَالْأَرْقَامَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ ، وَكُلَّ مَنْ
اكتَشَفَهَا ، ثُمَّ أَخْرِقَهُمْ جَمِيعًا حَتَّى يَصِيرُوا زَمَادًا ! وَلَكِنِّي عِنْدَمَا أَذْهَبُ لِأَعِيشَ
مَعَ بَاونْدِرِي الْعَجُوزِ فَسَوْفَ أُغَيِّرُ مِنْ بَعْضِ الْأُمُورِ . »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « مَاذَا سَتَفْعَلُ يَا توم ؟ »

أَجَابَ : « سَوْفَ أَمْتَعُ نَفْسِي قَلِيلًا ، فَسَأَلْتَقِي بِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَسَأَفْعَلُ
الكَثِيرَ ، وَسَوْفَ أَحَاوِلُ أَنْ أَمْلَأَ ذَلِكَ الْفَرَاغَ الْهَائِلَ بِدَاخِلِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « أَرْجُو أَلَّا يُحَيِّبَ السَّيِّدُ بَاونْدِرِي أَمْلَكَ ، فَهُوَ يُفَكِّرُ عَلَى نَهْجِ
تَفْكِيرِ أَبِي ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ حُشُونَةً مِنْهُ . وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ يَصِفُ مَا لَدَى أَبِي مِنْ
خَنَانٍ . »

ضَحِكَ توم وَقَالَ : « إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أُتَعَامَلَ مَعَ بَاونْدِرِي الْعَجُوزِ . »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « كَيْفَ ؟ هَلْ هَذَا سِرٌّ ؟ »

أَجَابَ توم : « إِنْ كَانَ سِرًّا ، فَهُوَ لَيْسَ بِعَمِيدٍ . إِنَّهُ أَنْتَ يَا لُو ! إِنَّكَ أَثِيرَةٌ لَدَيْهِ ،
وَسَوْفَ يَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ ، وَأَنْتِ سَتَفْعَلِينَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِي . وَإِذَا وَضَعْنَا
الْتَّيَجَّتَيْنِ مَعًا كَمَا يَقُولُ أَبِي ، فَسَتَكُونُ الْتَّيَجَّةُ أَنَّ بَاونْدِرِي سَيَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ
أَجْلِي . »

إِنْتَظَرَ توم تَغْلِيْقَهَا ، لَكِنْ دُونَ جَدْوَى فَسَأَلَهَا : « هَلْ يَنْتَبِ يَا لُو ؟ »

قَالَتْ : « كَلَّا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِي ... »

فَجَاءَتْ صَاحِبَةَ السَّيِّدَةِ غَرَادُغَرَايْنِدُ مِنْ خَلْفِهِمَا ، وَهِيَ تَقِفُ عَلَى بَابِ حُجْرَةِ
الْدِّرَاسَةِ : « لَا تَتَسَاءَلِي يَا لُويزَا . أَلَا تَعْرِفِينَ أَنَّ وَالِدَكَ قَدْ حَرَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ؟ »

قَالَتْ لُويزَا : « بَلَى يَا أُمَاهُ . وَلَكِنَّا أَحْيَاءُ ، وَأَنَا لَا أَفْكُرُ إِلَّا فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ .
فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ ؛ أَلَيْسَتْ كَذَلِكَ ؟ فَمَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَفْعَلَهَا
فِي حَيَاتِنَا الْقَصِيرَةِ ؟ »

قَالَتْ السَّيِّدَةُ غَرَادُغَرَايْنِدُ : « هَرَاءَ ! يَا لِرَأْسِي الْمُسْكِينِ ، إِيَّاكَ يَا لُويزَا أَنْ
تَسْأَلِي وَالِدَكَ هَذَا السُّؤَالَ السَّخِيفَ . »

الفصل الخامس

كَانَتْ حَيَاةُ سِيسِي فِي سِتُون لُودُجِ وَالْمَدْرَسَةِ أَشْبَهَ بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَالْأَرْقَامِ ، وَكَانَ ثَمَّةُ بَرِيقٍ أَشْبَهَ بِنَجْمٍ يَسْتَطِيعُ وَسْطَ هَذِهِ الْعَاصِفَةِ ، ذَلِكَ هُوَ أُمْلُهَا
فِي أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا وَالِدُهَا .

وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ غَرَادُغَرَايْنِدَ دَابَّ عَلَى أَنْ يُرَدِّدَ أُمَامُهَا قَوْلَهُ : « لَقَدْ ذَهَبَ وَالِدُكَ
يَا سِيسِي لِيَا جُوبَ ، وَلَنْ يَعُودَ وَتِلْكَ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ
تُذَكِّرَ بِهَا . »

وَكَانَتْ سِيسِي قَدْ بَدَأَتْ تُكْرَهُ الْحَقَائِقَ ، كَمَا أَنَّ الْحَقَائِقَ كَانَتْ قَدْ كَرِهَتْهَا
بِدَوْرِهَا ، وَابْتِ بَدَأَتْ أَنْ تُغْلِقَ بِذَهَبِهَا أَوْ تَسْتَقِرَّ بِرَأْسِهَا . وَأَبْلَغُ الْمُدْرَسِ السَّيِّدَ
غَرَادُغَرَايْنِدَ أَنَّ الْفَتَاةَ رَقَمَ عِشْرِينَ لَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ الْحِسَابَ ، وَقَالَ إِنَّهَا تَعْرِفُ
شَكْلَ الْأَرْضِ ، وَلَكِنَّهَا تَأْتِي أَنْ تَعْرِفَ حَجْمَهَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ .

وَأَجَابَهُ السَّيِّدُ غَرَادُغَرَايْنِدُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ سَيِّئٌ ، وَلَكِنَّ عَلَيْكَ
أَلَّا تُعْطِيَهَا أَيَّ قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ ، وَعَلَيْكَ أَيْضًا أَنْ تُغْذِيَهَا بِالْحَقَائِقِ بِصِفَةِ دَائِمَةٍ . »

كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي سِتُون لُودُجِ أَشْبَهَ بِالآلَةِ الْبُحَارِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِالنِّتْظَامِ وَكَفَاءَةِ
مَا لَا يَتَعَيَّنُ بِهَا أَحَدٌ ؛ لِذَا لَمْ تُكُنْ لُويزَا تُبَادِلُ سِيسِي الْحَدِيثَ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّهَا
عَرَضَتْ عَلَيْهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ تُبَشِّرَ لَهَا أَحَدَ دُرُوسِهَا الصَّعْبَةِ ، وَمَا إِنْ أَنْتَهَتْ مِنْ
ذَلِكَ حَتَّى قَالَتْ لَهَا سِيسِي : « يَا لَكَ مِنْ فَتَاةٍ مَاهِرَةٍ يَا أَيْسَةَ لُويزَا ! كَمْ أُمْنَى
لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ دُرُوسِي بِشَكْلِ أَفْضَلٍ مِنْ ذَلِكَ . »

فأجابتها لويزا : « إِنَّ هَذَا لَنْ يَجْعَلَكَ أَحْسَنَ حَالًا يَا سِيسِي . »

قَالَتْ سِيسِي « وَلَنْ يَجْعَلَنِي أَسْوَأَ حَالًا يَا آيْسَةُ لَوِيزَا . »

قَالَتْ لَوِيزَا : « لَا أَظُنُّ ذَلِكَ ، فَأَنْتِ أَكْثَرُ رَقَّةَ بَنِي فِي تَعَامُلِكَ مَعَ أُمِّي ، كَمَا أَنَّكَ تَحْتَرِمِينَ ذَاتَكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْتَرِمُ أَنَا ذَاتِي . »

قَالَتْ سِيسِي : « وَلَكِنِّي فِي غَايَةِ الْغَبَاءِ يَا آيْسَةُ لَوِيزَا ، وَكَثِيرًا مَا أَتُكُونُ إِجَابَاتِي بِالْمُدْرَسَةِ خَاطِئَةً . فَهَكَذَا يَقُولُ الْمُدْرَسُ . »

طَلَبَتْ لَوِيزَا أَنْ تَذَكُرَ لَهَا بَعْضًا مِنْ تِلْكَ الْإِجَابَاتِ الْخَاطِئَةِ ، فَقَالَتْ لَهَا : « لَقَدْ قَالَ الْمُدْرَسُ الْيَوْمَ : ' إِنَّ هَذِهِ الدُّوْلَةُ الَّتِي نَعِيشُ فِيهَا تَمْتَلِكُ خَمْسِينَ مِليُونًا مِنَ الْجَنِّيَهَاتِ . فَهَلْ هِيَ دُوْلَةٌ غَنِيَّةٌ وَسَعِيدَةٌ ؟ أَلَيْسَ أَتَيْهَا أَلْفَتَاةُ رَقَمٍ عِشْرِينَ هَلْ نَعِيشِينَ فِي دُوْلَةٍ غَنِيَّةٍ وَسَعِيدَةٍ ؟ ' »

سَأَلَتْهَا لَوِيزَا : « وَمِمَّاذَا أُجِبْتِ يَا سِيسِي ؟ »

أَجَابَتْ : « قُلْتُ إِنَّنِي لَا أَعْرِفُ ، فَأَنَا لَا أَعْرِفُ مَنْ الَّذِي يَمْلِكُ هَذِهِ أَلْفَتَاةُ ، كَمَا أَنَّي لَا أَعْرِفُ إِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْهَا يَخُصُّنِي ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْإِجَابَةُ خَطَأً بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُكُنْ مِنْ بَيْنِ مَا وَرَدَ بِالْكِتَابِ مِنْ إِجَابَاتِ . »

قَالَتْ لَوِيزَا : « نَعَمْ ، إِنَّ تِلْكَ إِجَابَةً خَاطِئَةً . »

وَأَسْتَطَرَدَتْ سِيسِي قَائِلَةً : « ثُمَّ أَخْبَرَنِي الْمُدْرَسُ مَرَّةً أُخْرَى ، وَقَالَ : ' بِمَدِينَةٍ كَوْنَتَاوَنَ يَصُفُّ مِليُونٌ مِنَ السَّكَّانِ ، يَمُوتُ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ شَخْصًا كُلَّ عَامٍ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ طَعَامًا . ثُمَّ سَأَلَنِي : هَلْ هَذَا أَمْرٌ حَسَنٌ أَمْ سَيِّئٌ ؟ ' فَأَجَبْتُهُ بِأَنَّ

هَذَا أَمْرٌ بِالْغِ السَّوِّءِ بِالنَّسَبِ لِلْهَوْلَاءِ الْإِثْنِي عَشَرَ شَخْصًا وَلِعَائِلَاتِهِمْ . وَلَكِنْ الْإِجَابَةُ الصَّحِيحَةُ كَانَتْ : إِنَّ هَذَا حَسَنٌ ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَ ... »

قَالَتْ لَوِيزَا : « لَيْسَ مِنْ أَلْسَنِهِ دَائِمًا أَنْ تُفْهَمَ . »

وَلَكِنْ سِيسِي قَالَتْ : « لَقَدْ كَانَتْ رَغْبَةُ وَالِدِي أَنْ أَتَعَلَّمَ ، كَمَا كُنْتُ بِدَوْرِي أَوْدُ أَنْ أَتَعَلَّمَ ، وَلَكِنِّي لَا أَوْفُقُ أَبَدًا فِي مَعْرِفَةِ الْإِجَابَاتِ الصَّحِيحَةِ لِمَا يُوجَّهُ إِلَيَّ مِنْ أَسْئَلَةٍ . »

فَسَأَلَتْهَا لَوِيزَا : « هَلْ كَانَ وَالِدُكَ يَعْرِفُ الْإِجَابَاتِ الصَّحِيحَةَ ؟ »

وَهُنَا تَذَكَّرَتْ سِيسِي أُمُورَ السَّيِّدِ غَوَاذَغْرَايْنْدِ الَّتِي تُقْضِي بِأَلَا تَتَحَدَّثُ عَنْ وَالِدِهَا أَوْ عَنْ حَيَاتِهَا السَّابِقَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ فَتَنَظَّرَتْ إِلَى لَوِيزَا نَظْرَةً حَزِينَةً . وَلَكِنْ لَوِيزَا قَالَتْ لَهَا : « لَيْسَ لِهَذَا السُّؤَالِ مِنْ ضَرَرٍ يَا سِيسِي ، كَمَا أَنَّكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْمَعَنَا أَحَدٌ هُنَا . »

فَأَجَابَتْهَا سِيسِي : « كَانَ وَالِدِي يَلِمُ بِالْكِتَابَةِ إِمَامًا مَحْدُودًا ، وَلَمْ يَكُنْ وَاسِعَ الْمَعْرِفَةِ . »

سَأَلَتْهَا لَوِيزَا : « وَمَاذَا بِشَأْنِ وَالِدِكَ ، هَلْ كَانَتْ مُتَعَلِّمَةً ؟ »

فَأَجَابَتْهَا : « قَالَ لِي وَالِدِي إِنَّهَا كَانَتْ مُتَعَلِّمَةً ، وَقَدْ تَوَفَّيْتُ عِنْدَ وَلَادَتِي . »

ثُمَّ أَلْخَفَضَ صَوْتُ سِيسِي وَهِيَ تُصَيِّفُ هَامِسَةً : « وَكَانَتْ أُمِّي رَاقِصَةً . »

وَجَاءَ سُؤَالُ لَوِيزَا الْتَالِي ، وَكَأَنَّهُ نَزْوَةٌ طَارِئَةٌ عَارِضَةٌ مِنْ تِلْكَ التَّرَوَاتِ الَّتِي كَانَتْ

تَضِيعُ لِقَورِهَا أَوْ تُحْجَبُ فِي الظُّلُمَاتِ . سَأَلْتُهَا : « هَلْ كَانَ وَالِدُكَ يُحِبُّهَا ؟ »
أَجَابَتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا وَيَكُنْ لَهَا مِنَ الْحُبِّ وَالْإِعْزَازِ قَدْرُ
مَا كَانَ يُكِنُّهُ لِي . وَقَدْ أَحْبَبَنِي فِي الْبِدَايَةِ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَمْ تَفْتَرِقْ مُنْذُ مَوْلَدِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « وَلَكِنَّهُ قَدْ تَرَكَكَ آلَانْ يَا سِيسِي . »

قَالَتْ سِيسِي : « وَلَكِنَّهُ قَدْ فَعَلَ هَذَا لِمَصْلَحَتِي وَلَيْسَ لِمَصْلَحَتِهِ هُوَ ، يَا أَسْتُ
لُويزَا . فَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَعْرِفُ وَالِدِي حَقَّ الْمَعْرِفَةِ كَمَا أَعْرِفُهُ أَنَا . إِنَّهُ لَنْ يَشْعُرَ
بِالسَّعَادَةِ يَوْمًا حَتَّى يَعُودَ إِلَيَّ . »

قَالَتْ لُويزَا : « أَخْبِرْنِي بِالْمَزِيدِ عَنْهُ ، وَلَنْ أَسْأَلَكَ بَعْدَ آلَانْ . أَيْنَ كُنْتُمَا
تَعِيشَانِ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « كُنَّا نَسَافِرُ دَائِمًا وَتَتَجَوَّلُ مَعَ السَّيْرِكِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَيْتٌ
بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ . وَلَمْ نَسْتَغَيِّرْ قَطُّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ . وَلَمْ يَكُنْ وَالِدِي فِي الْحَقِيقَةِ
مِنْ بَيْنِ رَاكِبِي الْخَيْلِ الْمَهْرَةِ ، بَلْ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ ... » وَهَمَسَتْ سِيسِي وَهِيَ
تَنْطَلِقُ بِالْكَلِمَةِ الْفَطِيئَةِ : « كَانَ مُهْرَجًا . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ يُضْحِكُ النَّاسَ ؟ »

فَأَجَابَتْهَا : « نَعَمْ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَبْكِي أحيانًا ، عِنْدَمَا يَفْشَلُ فِي إِضْحَاحِهِمْ . وَكَمْ
مِنْ مَرَّةٍ بَكَى هُنَا فِي كُوْكُتَاوَن . »

فَسَأَلْتُهَا لُويزَا : « وَمَاذَا عَنَّا ؟ هَلْ كُنْتَ تُوَاسِيَنَهُ آنَذَاكَ ؟ »

فَأَجَابَتْهَا سِيسِي وَقَدْ أَخَذَتْ تَبْكِي : « كُنْتُ أُحَاوِلُ ذَلِكَ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَتْ

مَخَافَتُهُ تَضَاعِفُ ، فَصَارَ يُعْتَقِدُ أَنَّهُ مُهْرَجٌ فَاشِلٌ ؛ لِذَا كَانَ يَحْرُسُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ
مِنِّي فِتَاءً مَاهِرَةً وَنَاجِحَةً ، عَلَى خِلَافِهِ ، وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَقْرَأُ لَهُ بَعْضَ الْكُتُبِ .
وَلَكِنْ أَخْبَارُنَا لِهَذِهِ الْكُتُبِ لَمْ يَكُنْ مُوَقَّعًا ، وَلَمْ تَكُنْ هِيَ الْكُتُبُ الْمُنَاسِبَةَ ، وَلَكِنَّا
لَمْ نَعْرِفْ ذَلِكَ . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ يُحِبُّ هَذِهِ الْكُتُبَ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ؛ إِذْ كَانَتْ تُنْشِئُهُ
مَتَاعِبُهُ . كَمَا كَانَ يَقْضِي سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ ، وَمِنْ أَمْرِ الْجَنِّيَّاتِ
الَّتِي كُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ عَنْهَا فِي تِلْكَ الْكُتُبِ . »

سَأَلْتُهَا لُويزَا : « هَلْ كَانَ وَالِدُكَ عَطُوفًا تَجَاهَ الْآخَرِينَ ؟ »

رَدَّتْ سِيسِي : « نَعَمْ ، كَانَ ذَلِكَ شَأْنَهُ دَائِمًا ؛ فَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ آيَةَ
مَشَاعِرٍ سَنِئَةٍ نَحْوَ الْآخَرِينَ . »

وَأَسْتَمَرَّتْ لُويزَا فِي تَسْأُلِهَا : « هَلْ كُنْتَ تَعْرِفِينَ أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكَكَ يَوْمًا مِنْ
الْأَيَّامِ ؟ »

أَجَابَتْ سِيسِي : « لَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ سَعِيدًا . فَالْنَّاسُ ... »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ ثُومُ غُرْفَةِ الدِّرَاسَةِ ، وَكَانَ غَارِقًا فِي التَّفَكُّيرِ فِي أُمُورِهِ
الْخَاصَّةِ . وَخَمَلَقَ إِلَى الْفَتَاتَيْنِ ، وَلَكِنَّ لُويزَا قَالَتْ لَهُ وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « كُنْتُ أَسْأَلُ
سِيسِي بِضْعَةَ أَسْئَلَةٍ ، وَلَا دَائِي لِأَنْ تَنْصَرِفَ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَبْقَى مَعَنَا هُنَا وَلَكِنْ
لَا تُقَاطِعُنَا . »



قال ثوم : « إن باونديزي العجوز قد حضر مع والدنا إلى المنزل ، فهلاً جئت لتحدثني إليه ؟ إن فعلت ذلك فقد بدعوني لتناول العشاء . »

فأجابته : « سوف أحضر بعد دقيقة واحدة . »

قال ثوم : « إذا سالتظر حتى أناكد . »

أكملت سيسي حديثها هامسة : « لقد كان والدي يشعر بالثعاسة عندما يعجز عن إضحاك الناس ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لمهرج السيرك . وقد سمعته يئكي في الليل ، وكان يحاول إخفاء وجهه عني ، ولكن تناهى إلى سمعي بضع كلمات كان يقولها ، منها « يا عزيزتي ! » و « يا سيسي الحبيبة ! »

« وفي الصباح آحتضنتي وقبلني ، وكانت هذه عادته كل صباح عندما أذهب إلى المدرسة ؛ لذا لم يساورني شك . وعندما عدت من المدرسة لم أجده بالمنزل ؛ إذ كان قد رحل . »

وقاطعها ثوم قائلاً لشفقيته : « أسرع يا لو ، وإلا سينصرف العجوز باونديزي . »

ولكن سيسي استمرت في حديثها الهامس مع لويزا قائلة : « هذا هو كل شيء يا آنسة لويزا ، ولكنني أعرف أنه سوف يعود إلي مرة أخرى ، أو لعله سيكتب لي أو للسيد سلاوي . إنني كلما رأيت السيد غراذغرايند ممسكاً بخطاب بيده ، كاذ قلبي يتوقف ، وشعرت بأن الخطاب من ... »

وصاح ثوم مقاطعاً : « هيا بنا يا لو ! ماذا تنتظرين ؟ »

أخذت لويزا بعد ذلك تتبع النظر في وجه أبيها كلما شاهدته يمسك بخطاب من خطابات ليفتحه ، وكانت سيسي ، في بعض الأحيان ، تجد الشجاعة وتسأله : « هل ثمة خطابات لي يا سيد غراذغرايند ؟ » وكانت لويزا تنتظر بشغف — لا يقل عن شغف سيسي — الإجابة عن هذا السؤال . ولكن الإجابة كانت دائماً : « لا يا سيبيليا ، لا شيء لك ! »

وبعد أن تذهب سيسي إلى مدرستها ، كان السيد غراذغرايند كثيراً ما يعلق على ذلك بقوله : « إنه الأمل ! ذلك السم الذي يسري في الدماء ! لم لا تفكر تلك الفتاة في الحقائق ؟ »

ولم يكن في شئون لودج من يعرف مدى قوة الأمل الذي تعلق به سيسي

سيوى لويزا ، بَلْ كَانَتْ تُذَكِّرُكُ أَيْضًا أَنَّ الْأَمَلَ لَدَيْهَا قُوَّةُ الْحَقِيقَةِ . أَمَّا تُوْم
الصَّغِيرُ فَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إِلَّا فِي أُمُورِهِ الْخَاصَّةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . وَلَمْ يَكُنْ يَشْغُلُ السَّيِّدَةَ
غَرَاذِغُ شَيْءٍ سِوَى رَأْسِهَا الْمَرِيضِ ، ذَلِكَ الرَّأْسُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَخُورِي شَيْئًا
بِدَاخِلِهِ سِوَى آَلَمِهِ .

الفصل السادس

كَانَ سَتِيفِن بِلَاكُيُول يَعْمَلُ نَسَاجًا فِي مَصْنَعٍ لِلْأَقْمِشَةِ الْقُطُنِيَّةِ يَمْلِكُهُ جُوشِيَا
بَاوْنِدِرِي . وَكَانَ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَإِنْ بَدَأَ أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهِ الْحَقِيقِيِّ ، فَكَتِفَاهُ
الْمُنْحَنَتَانِ ، وَشَعْرُهُ الرَّمَادِيُّ دَلَائِلُ عَلَى أَنَّهُ عَانِيَ الْكَثِيرَ فِي حَيَاتِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ سَتِيفِن قَدْ نَالَ أَيَّ قِسْطٍ مِنَ التَّعْلِيمِ ، وَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ بَعْضِ الْعُمَالِ
الْآخَرِينَ الَّذِينَ عَلَّمُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ . فَكَانُوا يَسْتَعِيرُونَ الْكُتُبَ مِنَ الْمَكْتَبَةِ
وَيَقْرَءُونَهَا فِي مَنَازِلِهِمْ . وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْحَدِيثَ ، وَلَكِنْ سَتِيفِن لَمْ يَكُنْ
مِثْلَهُمْ ، رَغَمَ أَنَّهُ كَانَ مُحِبًّا لِلْقِرَاءَةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ نَسَاجًا مَاهِرًا وَرَجُلًا أَمِينًا .

وَذَاتَ مَسَاءٍ ، بَعْدَ أَنْ دَقَّ جَرَسُ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ ، وَتَوَقَّفَتْ آلَاتُ بِالْمَصْنَعِ ،
وَأُطْفِئَتْ الْأَنْوَارُ ، أُنْدَفَعَ سَتِيفِن مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُمَالِ رِجَالًا وَنِسَاءً لِيَخْرُجُوا مِنْ
بَوَابِ الْمَصْنَعِ إِلَى الشَّارِعِ . وَظَلَّ سَتِيفِن يَسِيرُ فِي الشَّارِعِ يَبْحَثُ عَنْ شَخْصٍ
مَا . وَبَعْدَ قَلِيلٍ صَاحَ مُنَادِيًا : « رَاشِيل ! »

الْتَفَتَتْ لِنِدَائِهِ سَيِّدَةُ كَانَتْ تَسِيرُ تَحْتَ أَحَدِ مَصَابِيحِ الشَّارِعِ ، فَوَقَعَتْ عَيْنَا
سَتِيفِن عَلَى وَجْهِهَا الصَّغِيرِ الْأَسْمَرَ اللَّوْنِ وَعَيْنَيْهَا الرَّقِيقَتَيْنِ . وَلَمْ تَكُنْ مَلَامِحُ
وَجْهِهَا تُدُلُّ عَلَى أَنَّهَا فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ ، فَقَدْ كَانَتْ فِي الْخَامِسَةِ وَالْثَلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهَا .

رَدَّتْ رَاشِيلُ عَلَى نِدَائِهِ قَائِلَةً : « آه يَا فَنِي ، أَهَذَا أَنتَ يَا صَدِيقِي الْعَجُوزَ ! »

قَالَ لَهَا سَتِيفِن : « إِنَّكَ تَبْدِينَ شَابَّةً كَعَهْدِي بِكَ يَا رَاشِيل . »

صَحِيحَتْ رَاشِيلَ وَقَالَتْ : « لَقَدْ تَقَدَّمَ الْعُمُرُ بِنَا يَا قَتِي ، وَلَا حَاجَةَ بِنَا لِأَنْ
نُخْفِيَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ . »

فَاسْتَأْذَنَهَا فِي أَنْ يَسِيرَ مَعَهَا وَيُرَافِقَهَا حَتَّى يَبْتَهَا ، فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً : « لَكَ ذَلِكَ
لَكِنْ يَحْسُنُ أَلَّا يُشَاهِدَنَا النَّاسُ مَعًا كُلَّ يَوْمٍ ، وَإِنْ كَانَ يَجِبُ أَنْ أُرَاكَ مِنْ وَقْتٍ
لَا غَرَّ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

قَالَ سَتِيفِن : « لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا طَيِّبَةً مَعِي يَا رَاشِيلَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنْ رَغَبَاتِكَ
عِنْدِي كَالْقَانُونِ . إِنِّي أَعْرِفُ أَنَّ النَّاسَ دَائِمًا يَتَقَوَّلُونَ ، حَتَّى غَثِّكَ . »

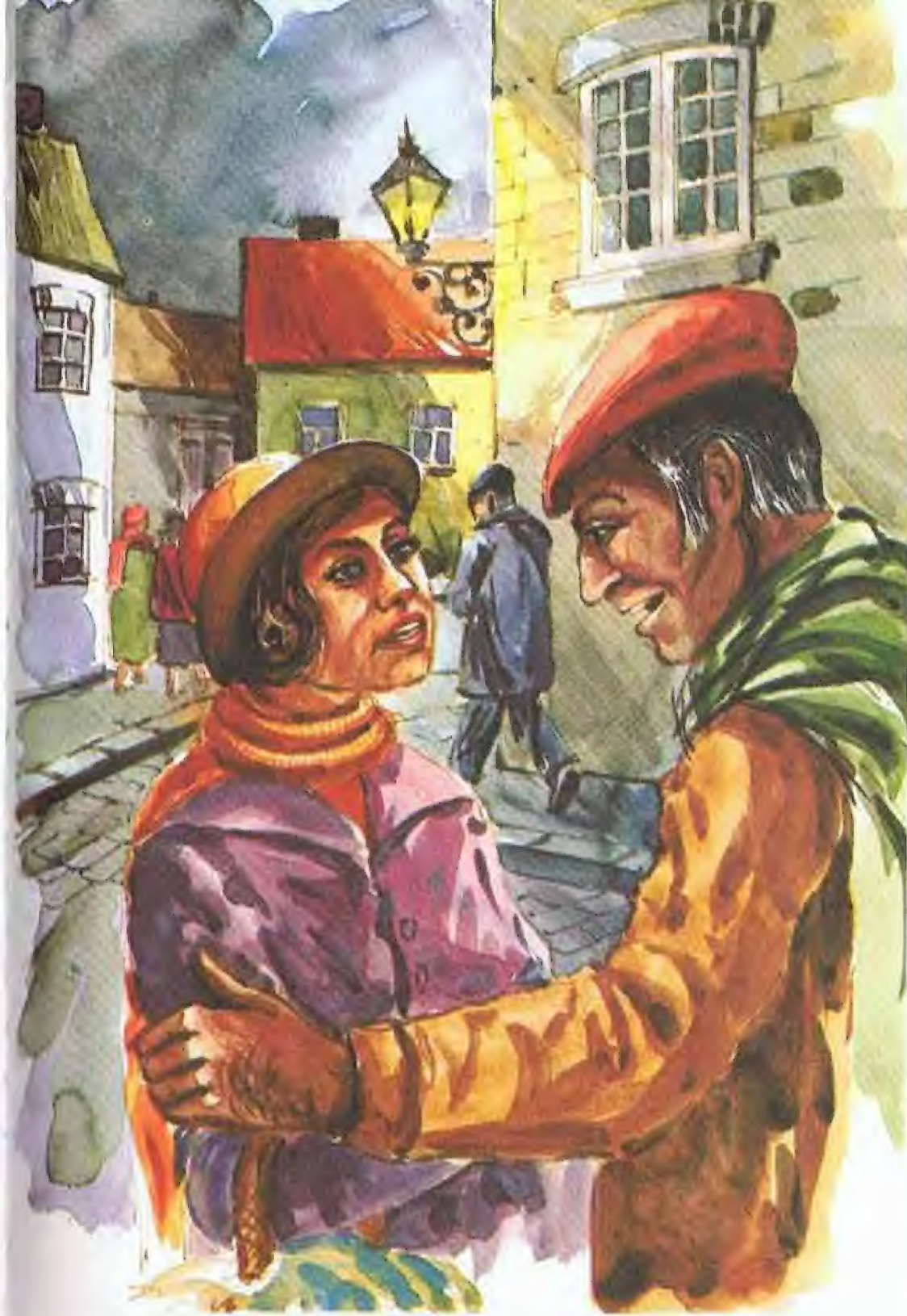
فَعَلَّقَتْ قَائِلَةً : « لَا تَفَكَّرْ فِي الْقَوَانِينِ يَا سَتِيفِن »

قَالَ : « أَنْتِ عَلَى حَقٍّ يَا فَتَاةُ ، فَمَا الْقَوَانِينُ إِلَّا نَوْعٌ مِنَ التَّخَبُّطِ . إِنِّي أَفَكَّرُ
وَأَفَكَّرُ ، وَأَجِدُ نَفْسِي دَائِمًا وَسَطَ هَذَا التَّخَبُّطِ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَجَاوَزَهُ . »

وَعِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى مَنْزِلِهَا صَافَحَهَا سَتِيفِنُ وَتَبَادَلَا نِجِيَّةَ الْمَسَاءِ ، ثُمَّ انْتَصَرَفَتْ
وَهُوَ يُتَابِعُهَا بِنَظَرَاتِهِ حَتَّى دَخَلَتْ فِي مَنْزِلِهَا . لَقَدْ كَانَ سَتِيفِنُ يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ كُلَّ
شَيْءٍ فِيهَا . فَقَدْ كَانَ يُحِبُّ قَامَتَهَا الرَّشِيقَةَ ، وَوَجْهَهَا وَصَوْتَهَا .

وَمَا إِنْ وَصَلَ سَتِيفِنُ إِلَى مَنْسَكَبِهِ الْكَائِنِ فَوْقَ أَحَدِ الْمَتَاجِرِ الصَّغِيرَةِ ، حَتَّى أَشْعَلَ
الْمِصْبَاحَ فِي الْغُرْفَةِ الَّتِي يَتَكُونُ مِنْهَا هَذَا الْمَسْكَنُ . وَكَانَتْ صَاحِبَةُ الْمَشْرِجِ قَدْ
أُخْلَدَتْ إِلَى النَّوْمِ فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يوقظَهَا . وَكَانَتْ غُرْفَةُ سَتِيفِنُ خَالِيَةً إِلَّا مِنْ سَرِيرِ
وَمِئْضَدَةٍ وَمَكْتَبٍ وَبِضْعَةٍ مَقَاعِدَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ سَتِيفِنُ يَضَعُ الْمِصْبَاحَ فَوْقَ الْمِئْضَدَةِ تَعَثَّرَ وَكَادَ يَقَعُ فَوْقَ شَيْءٍ مَا



في غُرْفَتِهِ . لَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ أَمْرًا سَرْعَانَ مَا لَهَضَتْ مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ تَسْتَبِدُّ عَلَى إِحْدَى ذِرَاعَيْهَا ، فَصَاحَ سَتِيفِن : « أَعُوذُ بِاللَّهِ ! لَقَدْ عُدْتُ مَرَّةً أُخْرَى ! »

حَاوَلَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ تُجْلِسَ مُنْتَصِبَةً ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَحْمُورَةً قَدِيرَةً تَرْتَدِي مَلَابِسَ مُمَزَّقَةً ، ثُمَّ أَزَاخَتْ شَعْرَهَا عَنْ وَجْهِهَا ، وَمَالَتْ بِرَأْسِهَا إِلَى الْأَمَامِ وَهِيَ تَضْحَكُ قَائِلَةً : « نَعَمْ يَا فَتَى ، عُدْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَمَرَاتٍ وَمَرَاتٍ ، وَلَمْ لَا ؟ »

وَلَهَضَتْ وَاقِفَةً وَهِيَ تُمَسِّكُ بِالْمِصْبَدَةِ ، وَرَمَتْ سَتِيفِنَ بِنَظَرَةٍ غَاضِبَةٍ ، عَلَى حِينِ جَلَسَ هُوَ عَلَى السَّرِيرِ ، ثُمَّ صَاخَتْ : « سَوْفَ أُبِيعُ كُلُّ مَا تَمْلِكُهُ ، بَلْ سَأُبِيعُ كُلَّ شَيْءٍ عَشْرِينَ مَرَّةً . ابْتَعدْ عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ ! ابْتَعدْ ! إِنَّهُ فِرَاشِي . »

وَأَلْدَفَعَتْ لِحَا الْفِرَاشِ ، وَلَكِنَّ سَتِيفِنَ تَجَنَّبَهَا وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ بِجَوَارِ



الْتَاغِدَةِ . وَالْقَتِ الْمَرْأَةُ يَنْفُسُهَا فَوْقَ السَّرِيرِ ، وَاسْتَعْرِقَتْ فِي النَّوْمِ . وَظَلَّ سَتِيفِنَ جَالِسًا بِجَوَارِ الْتَاغِدَةِ طَوَالَ اللَّيْلِ ، وَلَمْ يَقُمْ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً لِيُلْقِيَ فَوْقَ الْمَرْأَةِ بَغِطَاءً .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِي تَوَجَّهَ سَتِيفِنَ مُبَكِّرًا إِلَى مَصْنَعِ الْأَقْمِشَةِ الْقُطْبِيَّةِ الَّذِي يَمْتَلِكُهُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي ؛ ذَلِكَ الْمَصْنَعُ الَّذِي يَحْوِي الْعَدِيدَ مِنْ آلَاتِ النَّسِيجِ ، وَمِنْ الْعَمَالِ الَّذِينَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي اسْمُ الْأَيْدِي الْعَامِلَةِ .

وَعِنْدَ الظُّهْرِ دَقَّ الْجَرَسُ ، وَخَرَجَتِ الْأَيْدِي الْعَامِلَةُ إِلَى الشَّارِعِ ؛ إِذْ إِنَّ بَاوْنِدِرِي يَسْمَحُ لَهُمْ بِسَاعَةِ لِنَافِلَةِ الْغَدَاءِ خِلَالَهَا . وَلَمْ يَكُنْ سَتِيفِنَ يَشْعُرُ بِرَغْبَةٍ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ ؛ لِذَا فَإِنَّهُ سَارَ فِي الشَّارِعِ مُدَّةَ عَشْرِينَ دَقِيقَةً حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَنَزَلِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي فَطَرَّقَ بَابَ الْبَيْتِ ، وَفَتَحَتْ لَهُ مُدِيرَةُ الْمَنْزِلِ فَقَالَ لَهَا : « هَلْ لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَى السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي يَا سَيِّدَتِي ؟ إِنْني وَاحِدٌ مِنْ أَيْدِيهِ الْعَامِلَةِ ! »

فَسَأَلَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت : « مَا أَسْمُكَ ؟ »

فَأَجَابَتْ : « اسْمِي سَتِيفِنَ بِلَاكِبُولَ يَا سَيِّدَتِي . »

وَلَمْ يَكُنْ سَتِيفِنَ مِنْ مُفِيرِي الْمَتَاعِبِ فِي الْمَصْنَعِ ؛ لِذَا وَافَقَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي عَلَى مُقَابَلَتِهِ ، فَاجْتَبَعَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت إِلَى دَاخِلِ الْمَنْزِلِ .

وَسَأَلَهُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي قَائِلًا : « مَا الْأَمْرُ يَا سَتِيفِنَ ؟ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَأْتِ هُنَا لِتَشْكُو ، فَلَسْتُ وَاحِدًا مِنْ أَوْلِيكَ الْعَمَالِ الْأَغْيَاءِ ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ فِي أَفْوَاهِهِمْ مَلَاعِقٌ مِنْ ذَهَبٍ . »

فأجابته قائلاً : « لا يا سيدي ، فأنا لا أفكر في الذهب . »

فعاد يسأله : « ما المشكلة إذا ؟ »

نظر ستيفن نحو السيدة سبارسيت ، ولكن السيد باوندرني يادره قائلاً :
« لقد كانت هذه السيدة سيّدة عظيمة ، ورغم أنها تعمل الآن مديرة لمنزلي فإنها
نشأت في أحضان الترف . وإن لم يكن لديك اعتراض على بقائها فإنها ستبقى
معنا هنا . »

فأجاب ستيفن : « لا اعتراض لي يا سيدي ، كما أنه ليس في كلامي ما يخرج
مشاعر تلك السيدة العظيمة . »

قال باوندرني : « إذا تكلم وسأعني إليك . »

قال ستيفن : « لقد جئت طالبا النصيحة ، فأني في حاجة ماسة إليها . فقد
تزوجت منذ تسعة عشر عاما بفتاة صغيرة ، وكانت فتاة طيبة وعلى قدر من
الجمال ، ولكن سرعان ما تبدل حالها وساء . ولم يكن ذلك لحظي متي . فإن
الله يعلم أنني ما كنت لها زوجا قاسيا . »

قال باوندرني : « لقد سمعت ذلك من قبل ، كما أعرف أنها أصبحت سيئة .
لقد بدأت تدمن الشراب ، وكفّت عن العمل ، كما أنها باعت الأثاث وسيّث
لك العديد من المتاعب . »

قال ستيفن : « لقد حاولت أن أمد يد المساعدة إليها ، كما حاولت الكثير
معهها ، ولكنها باعت ملابسي وأثاثي ، ليس مرة واحدة أو مرتين فحسب ، بل

عشرين مرة . كانت تنفق النفود دائما على الشراب . وتغير حالها من سيء إلى
أسوأ ، وهجرتني أنثني عشرة مرة ، ولكنها كانت تعود دائما فماذا أستطيع أن
أفعل ؟ لقد كنت كثيرا ما أخشى أن أعود إلى البيت . لقد دفعت لها مبلغا من
النفود لكي تبقى بعيدة عني ، وظللت أدفع لها طوال خمس سنوات . إنني أحيا
حياة صعبة ، بل حياة كئيبة . ولكني لا أشعر بالحجل أو الخوف . وعندما عدت
إلى منزلي الليلة الماضية وجدتها هناك مستلقية على الأرض فاقدة الوعي . »

توقف ستيفن عن الحديث هنيئة بدا خلالها قويا وفخورا ، وسرعان ما انحسرت
كيفاه ، وعكست ملامح وجهه ما يشعر به من حيرة .

قال باوندرني : « لقد عرفت ذلك من زمن باستثناء ذلك الجزء الأخير . إنه
أمر سيء ، ومن المؤسف أنك تزوجت هذه السيدة ، لكن قولي هذا يأتي متأخرا
الآن . »

وهنا سألت السيدة سبارسيت السيد باوندرني : « هل كان أكبر سنا من هذه
الفتاة يا سيدي ؟ »

أجاب باوندرني موجه حديثه لستيفن : « لقد سمعت سؤال السيدة
يا ستيفن . هل كنت أكبر من تلك الفتاة عندما تزوجتها ؟ »

قال : « لا ، لقد كنت في الحادية والعشرين من عمري ، وكانت هي في
العشرين من عمرها . »

قالت السيدة سبارسيت : « إنني أدهش لهذا يا سيدي ، فعدم التوفيق في
الزواج يرجع عادة إلى الفرق في السن . »

نظر باونديري إلى مديرة المنزل بجدة وقد أرستت على وجهه ملامح الفضول
والحجل ، ثم ألفت إلى ستيفن مرة أخرى قائلاً : « استمر يا بلاكبول فانا في
انتظار سماع بقيقة كلامك . »

عاد ستيفن يسأل : « كيف أستطيع أن أتخلص من تلك المرأة يا سيدي ؟
هل لك أن تنصحتني ؟ »

تساءل باونديري : « تتخلص منها ؟! ولكنها زوجتك يا رجل ، وزواجك بها
قائم حتى تموت أنت أو تموت هي . »

قال ستيفن : « ولكن يجب أن أتخلص منها وإلا أصبحت بالجنون . آه ، لولا
راشيل لكنت قد بلغت الآن مرحلة الجنون بالفعل . »

فسأله باونديري : « من راشيل هذه ؟ »

أجابته : « إنها أفضل فتاة في العالم يا سيدي . »

قالت السيدة سبارست : « آه ، إنه يؤد أن يكون حراً يا سيدي حتى يستطيع
أن يتزوج مرة أخرى . »

قال ستيفن : « هذا ما أريده ، فالسيدة محقة في رأيها . إن الرجل الذي
لا يلقى أي صعب إذا كان زواجه غير موفق ، إذ يمكنه أن يقيم مع زوجته في
غرفتين منفصلتين في مسكن واحد ، كما يمكنهما أن يعيشا منفصلين ويقتسما
نفقدهما . ويمكنهما أحياناً أن يتفصلا بمقتضى القانون . ولكن ، هل يستطيع
الرجل الفقير أن يفعل شيئاً من هذا ؟ يجب أن أتخلص من تلك المرأة ، وأريد

أن أعرف كيف يتسنى لي ذلك ؟ »

قال باونديري : « لا تستطيع ذلك . »

تساءل ستيفن : « هل يعاقبني القانون إذا ما صربتها ؟ »

أجابته باونديري : « ستعاقب بالطبع . »

عاد ستيفن يسأله : « وإذا هجرتها ، هل يعاقبني القانون أيضاً ؟ »

أجاب باونديري : « بطبيعة الحال . »

سأل ستيفن : « ماذا سيحدث إذا تزوجت الفتاة العزيرة الأخرى ؟ »

أغمضت السيدة سبارست عينيها ، وأجاب السيد باونديري : « ستوف تعاقب
على ذلك . »

قال ستيفن : « ألا يوجد يا سيد باونديري أي قانون يمكن أن يساندني ؟ »

أجابته : « الزواج يدوم طوال العمر يا بلاكبول ، وهو أمر بالغ الأهمية . »

قال ستيفن : « ولكن بعض الزوجات لا تدوم . وأنا أعرف ذلك ، كما أنني
قرأت عن ذلك أيضاً . فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم ، وبعض النساء يقتلن
أزواجهن ، لكنني لن أقتل زوجتي ، ولكن لا بد أن يكون ثمة قانون يساعدني . »

قال باونديري : « ثمة قانون ، ولكنه ليس لك ، فهو يكلف الكثير من المال . »

سأله ستيفن بهدوء : « وكم يكلفني ذلك ؟ »

أَجَابَ : « حَوَالِي أَلْفِ جُنَيْهِ تَقْرِيًا ، وَرُبَّمَا أَلْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ » .

شَحَبَ وَجْهَ سَتِيفِنَ وَهُوَ يَقُولُ فِي هُدُوءٍ : « إِذَا أَنَا عَلَى صَوَابٍ . إِنَّهُ التَّخَبُّطُ .
لَا أُمَلِّ لِي عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَسَأَكُونُ أَفْضَلَ حَالًا لَوْ مِتُّ . »

رَفَعَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ عَيْنَيْهَا لِحَوْ السَّمَاءِ ، عَلَى حِمْنٍ قَالَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي :
« إِنَّ مَا نَقُولُهُ هَرَاءٌ ، فَالْقَوَانِينُ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ لَيْسَتْ ضَرْبًا مِنَ التَّخَبُّطِ ، وَلَكِنَّكَ
لَا تَفْهَمُهَا . إِنَّ أَهْلِيَامَاتِكَ تَبْدَأُ وَتَنْتَهِي عِنْدَ النَّوْلِ . لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا يَا سَتِيفِنَ
بِالْكَبُولِ مِنَ الْعُمَالِ الْمُتَمَتِّزِينَ ، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ . وَأُمَلِّ أَلَّا يَتَبَدَّلَ حَالُكَ وَتُصْبِحَ
شَخْصًا سَيِّئًا مِثْلَ بَعْضِ زُمَلَائِكَ مِنَ الْعُمَالِ . »

هَزَّ سَتِيفِنَ رَأْسَهُ وَقَالَ : « شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي ، وَأَتَمَنَّى لَكَ يَوْمًا سَعِيدًا . »
وَأَصْرَفَ وَهُوَ يُرَدِّدُ يَهُدُوءٍ : « إِنَّهُ تَخَبُّطٌ ، وَتَخَبُّطٌ هَائِلٌ ! »

الفصل السابع

بَيْنَمَا كَانَ سَتِيفِنَ يَغْبِرُ الطَّرِيقَ أَمَامَ مَنْزِلِ بَاوْنِدِرِي لَمَسَتْ سَيِّدَةُ عَجُوزٍ ذِرَاعَهُ ،
فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا . كَانَتْ سَيِّدَةً طَوِيلَةً مُعْتَدِلَةً الْقَوَامِ رَغِمَ كِبَرِ سِنِهَا ، كَانَتْ حَسَنَةً
الْهِنْدَامِ نَظِيفَةً الْمَلَابِسِ . وَكَانَ عَالِقًا بِحِذَائِهَا بَعْضُ الْوَحْلِ ، لَعَلَّهُ مِنْ أَثَرِ سَبْرِهَا
فِي طَرَفِ الْآرِيفِ .

وَبَادَرَتْ السَّيِّدَةَ إِلَى سُؤَالِهِ : « أَلَمْ تَكُنْ يَا سَيِّدِي فِي زِيَارَةٍ لِمَنْزِلِ السَّيِّدِ
بَاوْنِدِرِي ؟ »

أَجَابَهَا سَتِيفِنَ : « بَلَى يَا سَيِّدَتِي . »



قالت : « أرجو المَعذِرَةَ يا سيدي ، ولكن هل تحدثت إليه ؟ »

أجاب : « أجل يا سيدي . »

سألتها : « كيف كان يبدو ؟ هل هو بخير ؟ هل هو ضخم الجثة جسور ؟ »
وكان صدر تلك السيدة يكاد يتخلع وهي تعاودُ تسأولها : « هل كان صوته قويا
واضحاً ؟ »

وتخيل لستيفن أنه سبق له أن رأى تلك السيدة من قبل ، ولكنه أجابها بقوله :
« نعم يا سيدي لقد كان في حالة طيبة ، كما كان كل شيء فيه مثل ما ذكرت
تماماً . »

شكرته السيدة كثيراً ، ولكن ستيفن عاد يفكر ويقول في نفسه : « لا ،
لا أظن أنني قابلت هذه السيدة من قبل . لا بد أنني رأيتها في أحلامي ، وأظن
أنها لم ترق لي كثيراً . »

سارت السيدة بجوار ستيفن وهي تبادله الحديث ، فعرف منها أنها تسكن
كوخاً بالريف على بُعد ثمانين كيلومتراً من بلدة كوكتاون ، وأنها قدمت إلى
كوكتاون بالقطار صباح اليوم ، وأنه كان عليها أن تسير مسافة خمسة عشر
كيلومتراً من مسكنها حتى محطة القطار .

قالت السيدة : « سوف أسير مسافة خمسة عشر كيلومتراً أخرى عند عودتي
إلى منزلي هذا المساء ، ولكن أليس هذا شيئاً مقيداً لسيدة في مثل سني ؟ »

أجابها : « إنه مفيد للغاية ، ولكن لا تكرر ذلك كثيراً يا سيدي . »

قالت : « لا تحدث هذا إلا مرة واحدة كل عام . فانا أدعُر النفود طوال
العام ، حتى أسافر إلى كوكتاون ، فانا أحب أن أرى ذلك السيد ، وكنت أمل
أن أراه اليوم ، وهانذا قد رأيته ، وأنت قد رأيته ، وعلى أن أرضى بهذا ! »

لم يفهم ستيفن السبب الذي من أجله ترغب تلك السيدة العجوز في مقابلة
السيد باونديري ، فهي لم تعط تفسيراً لذلك ؛ لذا قائة قال لها : « يجب أن
أنصرف الآن وإلا تأخرت عن عملي ، فانا أعمل تساجاً في مصنع السيد باونديري
للاقمشة القطنية . »

نظرت إليه السيدة نظرة تفهم وحكمة وسألتها : « أسيء أنت في عملك ؟ »

أجابها : « لكل إنسان همومه يا سيدي . »

قالت : « نعم ، ولكن هل تعني أنك تصادف بعض المتاعب في البيت ؟ »

أجابها : « في بعض الأحيان . »

سألتها : « هل تلاحقك هذه المتاعب في المصنع ؟ »

أجاب : « كلا . »

كانا قد وصلا في تلك اللحظة إلى بوابة المصنع ، وكان العمال يسرعون في
الدخول ؛ إذ كان الجرس يدق وقد بدأت الآلات تدور ، وغلفت السيدة
بقولها : « يا له من جرس جميل ! إنه أحسن ما سمعت في حياتي من أجراس ،
منذ متى وأنت تعمل هنا يا سيدي ؟ »

أجابها : « منذُ اثنتي عشرة سنة . »

قالت : « يجب علي أن أقبل تلك اليد التي عملت في هذا المصنع العظيم طوال اثنتي عشرة سنة . »

وقبلت السيدة يد ستيفن رغم محاولته منعها ، ولكن قبلتها جاءت في بساطة وجدته ، وبذت كأنها الشيء المناسب في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب . وتركها ستيفن وأنصرف .

استمر ستيفن في عمله على التول الخاص به لمدة نصف ساعة . وعندما أطل مصادفة من النافذة ، شاهد تلك السيدة وكانت لا تزال تقف بالشارع تنطلق إلى جذران المصنع الدائنة ، وتنتظر إلى السحب والدخان . ولاحظ ستيفن ملامح وجه تلك السيدة ، فبذت وكأنها تجد في صوت آلات ما هو أشبه بأنغام موسيقى شجية تنتهي إلى سمعها . وظل ستيفن مشغولاً طوال فترة ما بعد الظهر بأمر تلك السيدة ، واشتغل تفكيره أيضاً بتلك المرأة التي كان قد تركها في غرفته .

وانتهى اليوم ، وكانت السماء تمطر عندما غادر ستيفن المصنع ليسير في الشارع . ويجول بصره هنا وهناك بحثاً عن راشيل ، التي كان يأمل أن يلقاها مرة أخرى . فقد كان يشعر بأنه في أمس الحاجة إلى تلك الراحة النفسية التي لا يجدها عند سواها . ولكن يبدو أن راشيل قد أنصرفت مبكرة ، فلم يستطع أن يراها .

استمر يسير طويلاً تحت المطر غارقاً في أفكاره ، متأملاً في حياته الضائعة ، وفي حياة راشيل التي كانت بدورها حياة ضائعة . لقد حكى لراشيل منذ سنوات

طويلة عن متاعبه ، ولم يطرُق حديثهما يوماً إلى الزواج ، فلو لم يكن متزوجاً لتزوج راشيل ، ولكان لهما بيت دافئ ومريح ، ولكان لهما أطفال ، وتمتعاً بالحب والكرامة واختيرام الذات . ولكن بدلاً من هذا ما هو ذا قد شد وثاق يديه وقدميه ليرتبط بتلك المرأة السكرية القذرة . ولم يختلف حال راشيل كثيراً عن حاله ؛ فقد عاشت سنوات طويلة تنتظر وتأمل الزواج بستيفن ، في الوقت الذي رأته فيه صديقاتها يتزوجن ويصير لهن بيوت وعائلات .

كان الليل قد اتصف عندما عاد ستيفن إلى غرفته ، وعلى ضوء المصباح بالغرقة شاهد راشيل تجلس إلى جوار السرير ، فشعر كما لو أن ضياء وجهها قد أثار ظلمات عقله . ورأى أيضاً أن هناك من تتمدد على السرير وقد ارتدت بعضاً من ملابس راشيل . وما إن رآته راشيل حتى قالت : « كم يسعدني أنك عُدت أخيراً يا ستيفن ، ولكنك عُدت متأخراً جداً . »

أجابها : « لقد كنت أجول في المدينة . »

قالت : « هذا ما توقعت ، وإن كانت الليلة ليست بالوقت المناسب لذلك . لقد جئت عقب الغداء ؛ إذ وجدت رسالة تركتها لي السيدة صاحبة المتجر بالطابق السفلي ، وعرفت منها أن زوجتك في حاجة إلى من ينقذها ؛ إذ كانت قد ألحقت الأذى بنفسها ، وتحتاج إلى المساعدة ، كما أن الطبيب قد جاء أيضاً بعد ذلك . »

لم يستطع ستيفن أن يرفع بصره إلى وجه راشيل التي قالت : « لقد سارعت إلى مساعدتها . فقد كنا نعمل معاً عندما كنا صغاراً ، كما أنها كانت صديقتي قبل أن تتزوجها يا ستيفن ، وأعرف أنك أرق من أن تدعها تموت أو تتألم . »

قال ستيفن : « آه يا راشيل ! يا راشيل ! »

كانت راشيل قد نقلت المِضْطَدة من مكانها ، ووضعتها إلى جوار السرير .
وكانت فوق المِضْطَدة رُجَاجَتَانِ كُيِّبَتَا عَلَى إِحْدَاهُمَا بِالْجَبْرِ الْأَحْمَرِ كَلِمَةُ
« سَم » ، وَمَا إِنْ وَقَعَ بَصَرُ ستيفن عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى شَحَبَ لَوْنُهُ . وَلَكِنَّ
راشيل سَكَبَتْ بَعْضًا مِنْ مُحتَوِيَّاتِ تِلْكَ الرُّجَاجَةِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَاشِ ، ثُمَّ
مَسَحَتْ بِهَا عَلَى رَقَبَةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ حَيْثُ يَوْجَدُ اثَرُ الْإِخْدَشِ أَوْ جُرْحٍ ، وَهِيَ
تَقُولُ : « يَجِبُ أَنْ أُكْرِرَ هَذَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي الثَّالِثَةِ صَبَاحًا ؛ لِذَا سَأُظَلُّ سَاهِرَةً إِلَى
جَوَارِهَا حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ . »

قال لها ستيفن : « وَلَكِنَّ يَجِبُ أَنْ تَسْتَرِيحِي يَا راشيل ؛ إِذْ عَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبِي
إِلَى الْعَمَلِ فِي الصَّبَاحِ . »

قَالَتْ : « فَلْتَسْتَرِيحِ أَنْتِ . أَمَّا أَنَا فَقَدْ نِمْتُ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ اللَّيْلَةَ الْأَمْضِيَّةَ ، عَلَى
حَيْثُ تَبْدُو أَنْتِ مُتَعَبًا . حَاولِي أَنْ تَنَامِي عَلَى هَذَا الْكُرْسِيِّ ، وَسَأَتَوَلَّى أَنَا مُلَاحَظَتَهَا ،
فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ يَا ستيفن ، كَمَا أَنَّهَا تَهْدِي عِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ ، وَلَكِنَّ
الطَّبِيبَ يَقُولُ إِنَّ حَالَتَهَا سَوْفَ تَتَحَسَّنُ فِي الْعَدِ . »

وَقَعَتْ عَيْنَا ستيفن مَرَّةً أُخْرَى عَلَى كَلِمَةِ « سَم » فَأَرْتَعَدَ جِسْدُهُ بِعَثْفٍ ، وَهَبَتْ
راشيل وَاقِفَةً فَقَالَ لَهَا : « لَا يَا راشيل ، اجْلِسِي بِجَوَارِ السَّرِيرِ حَيْثُ رَأَيْتُكِ عِنْدَ
دُخُولِي . لَقَدْ كُنْتُ أَجْمَلُ مِنْ أَيِّ مَرَّةٍ رَأَيْتُكِ فِيهَا . »

أَمْضَى ستيفن لَيْلَةً مَرَّعِيَةً ؛ إِذْ أَتَانَتْهُ أَحْلَامٌ مُزَعِجَةٌ وَقَاسِيَةٌ بَعْدَ أَنْ رَاحَ فِي
النَّوْمِ . فَقَدْ بَدَتْ لَهُ كَلِمَةُ « سَم » وَكَأَنَّهَا كُيِّبَتْ بِأَحْرَفٍ مِنْ نَارٍ ، كَمَا حَمَلَتْهُ



أُحْلَامُهُ إِلَى عَالَمِ الْمُسْتَقْبَلِ . وَبَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ رَاشِيلَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَرَى وَجْهَهَا أَوْ يَسْمَعَ صَوْتَهَا مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ تِلْكَ الْأَحْرُفِ النَّارِيَّةِ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَازِمَتُهُ طَوَالَ الْوَقْتِ .

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ سَتِيفِنَ كَانَتْ رَاشِيلُ لَا تَزَالُ نَائِمَةً ، وَكَانَتْ رُجَاجَةٌ أَلْسَمُ فِي مَكَانِهَا فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ . وَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ فِي سَرِيرِهَا ، ثُمَّ جَلَسَتْ وَغَيَاهَا تَجُولَانِ فِي أَهْجَاءِ الْعُرْفَةِ دُونَ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَى رَاشِيلَ ، وَلَكِنَّ نَظَرَاتِهَا اسْتَقَرَّتْ فِي النَّهَائِيَةِ عَلَى الرُّكْنِ الْمُظْلِمِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ سَتِيفِنُ . وَأَذْرَكَ سَتِيفِنُ أَنَّ تِلْكَ الْعَيْنَيْنِ الْغَاضِبَتَيْنِ لَمْ تَقْعَا عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا تَبْحَثَانِ عَنْهُ ، وَكَانَ الْمَرْأَةُ تَعْرِفُ أَنَّهُ مُوجُودٌ بِالْعُرْفَةِ . وَلَمْ يَجِدْ فِي هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ شَيْئًا يُذَكِّرُهُ بِالْمَاضِي ، فَالْقَنَاءُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَزَوَّجَهَا لَيْسَ لَهَا ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمُرْعَبَ ، وَكَانَ مَا يَرَاهُ شَيْءٌ أَشْبَهَ بِخَيَوَانٍ يَجْلِسُ فِي السَّرِيرِ .

وَمَا إِنْ لَاحَظَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الرُّجَاجَتَيْنِ الْمَوْضُوعَتَيْنِ فَوْقَ الْمِنْضَدَةِ حَتَّى مَدَّتْ يَدَهَا بَنَهُمَا . وَلَكِنَّ سَتِيفِنَ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا عِنْدَمَا شَاهَدَهَا تُمَسِّكُ بِرُجَاجَةِ أَلْسَمُ وَتَفْتَحُهَا بِأَسْنَانِهَا . وَلَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَهَلْ كَانَ مَا يَرَاهُ خُلْمًا أَمْ حَقِيقَةً ؟ وَلَكِنَّهُ صَاحَ أَخِيرًا : « اسْتَيْقِظِي يَا رَاشِيلُ ! اسْتَيْقِظِي ! وَلَا مَائَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ! »

كَانَتْ الْمَرْأَةُ قَدْ رَفَعَتْ الرُّجَاجَةَ بِيْطَاءٍ إِلَى فَمِهَا ، وَمِنْ أَحَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَيُمْكِنُهُ مُسَاعَدَتُهَا . وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ أَطْلَقَتْ رَاشِيلُ صَرْخَةً وَهِيَ تَنْدَفِعُ إِلَى سَرِيرِهَا . وَقَاوَمَتْهَا الْمَرْأَةُ وَشَدَّتْ شَعْرَهَا ، وَلَكِنَّ رَاشِيلَ انْتَرَعَتْ مِنْهَا الرُّجَاجَةَ .

إِنْدَفَعَ سَتِيفِنُ إِلَى السَّرِيرِ قَائِلًا : « مَاذَا يَخْذُلُكَ يَا رَاشِيلُ ؟ أَلَمْ خُلْمَ هَذَا أَمْ



حقيقة ؟ »

أجابته راشيل : « إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ الْآنَ يَا سَتِيفِن . لَا بُدَّ أَنْتِي أَسْتَعْرِقْتُ فِي النَّوْمِ . »

عِنْدَمَا رَأَى سَتِيفِن وَجْهَ رَاشِيلِ الشَّاحِبِ وَشَعْرَهَا الْمُتَنَفِّشَ ، وَمَا تَرَكْتُهُ أَظَافِرُ الْمَرْأَةِ مِنْ خُدُوشٍ عَلَى وَجْهِهَا ؛ أَذْرَكَ عِنْدَيْدُ أَنْ مَا حَدَثَ كَانَ حَقِيقَةً وَلَيْسَ خُلْمًا .

عَادَتْ رَاشِيلُ تَصُبُّ السُّمَّ عَلَى قِطْعَةِ الْقِمَاشِ لِتَمْسَحَ بِهِ عَلَى رَقَبَةِ الْمَرْأَةِ قَائِلَةً : « لَقَدْ بَلَغَتْ السَّاعَةُ الثَّلَاثَةُ ، وَكَمْ أَنَا سَعِيدَةٌ أَنْتِي ظَلَلْتُ سَاهِرَةً إِلَى جَوَارِهَا . إِنَّهَا هَادِئَةٌ الْآنَ ، كَمَا أَنْتِي قَدْ أَنْتَهَيْتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَنْ نَحْتَاجَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَبْقَى بِهَذِهِ الرَّجَاجَةِ . »

ثُمَّ تَوَجَّهَتْ لِحَوْ الْمِدْفَافَةِ وَأَفْرَعَتْ عَلَى الرَّمَادِ مَا تَبَقِيَ بِالرَّجَاجَةِ مِنْ سُمٍّ وَقَالَتْ : « سَوْفَ أَنْصَرِفُ الْآنَ وَأَعُودُ إِلَى مَنَزِلِي يَا سَتِيفِن . »

فَقَالَ لَهَا : « سَوْفَ أُرَاقُبُكَ يَا رَاشِيلَ . لَا أُرِيدُ أَنْ تُخْرُجِي بِمُفَرَّدِكَ . »

قَالَتْ : « لَا ! يَجِبُ أَنْ تَبْقَى مَعَهَا ، فَلَا تَخَوْفِ عَلَيَّ . »

سَأَلَهَا : « أَلَا تَخَافِينَ أَنْ تُتْرَكَيْنِي وَخُذِي مَعَهَا ؟ »

أَجَابَتْ : « نَعَمْ يَا سَتِيفِن . »

قَالَ : « إِنَّكَ تُحَوِّلِينِي مِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ . كَمْ أُرِيدُ أَنْ أَشَبَّهَ بِكَ أَكْثَرَ

وَأَكْثَرَ . لَقَدْ أَتَقَذَّنِي يَا رَاشِيلَ ، وَقَدْ تَسَاءَلْتُ عِنْدَمَا رَأَيْتُ رُجَاجَةَ السُّمِّ : « مَاذَا عَسَايَ أَنْ أَفْعَلَ لِنَفْسِي أَوْ لَهَا ؟ ... » »

وَضَعَتْ رَاشِيلُ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ لِتَوَقِفَ كَلِمَاتِهِ ، لَكِنَّهُ تَنَاوَلَ يَدَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ قَائِلًا : « لَقَدْ رَأَيْتُكَ بِجَوَارِ فِرَاشِهَا ، وَسَأُخَيِّلُكَ دَائِمًا يَا رَاشِيلَ بِجَوَارِ فِرَاشِهَا ، وَسَأُخَيِّلُكَ دَائِمًا بِجَوَارِي . »

وَسَارَ مَعَهَا إِلَى الشَّارِعِ ، وَالْقَتْ عَلَيْهِ نَجْيةَ الْمَسَاءِ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ . وَكَانَ الْمَطَرُ قَدْ تَوَقَّفَ وَبَدَتْ النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا ، وَلَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ رَاشِيلَ هِيَ ضَوْءُ النُّجُومِ الَّذِي يُبِيرُ حَيَاتَهُ .

رَدَّتْ قَائِلَةً : « هَذَا صَحِيحٌ يَا سَيِّدِي ، رُغِمَ أُنِّي بِذَلِكَ قُصَارَى جَهْدِي كُنِّي
أَعْلَمُ . »

قَالَ : « نَعَمْ يَا آيِسَةُ جُوب . لَقَدْ كُنْتُ أُرَاقِيكَ عَنْ كَتَبٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّكَ
حَاوَلْتَ جَاهِدَهُ ، وَلَكِنَّ الْمَشْكِلَةَ أَنَّكَ بَدَأْتَ مُتَأَخِّرَةً ؛ كَمَا أَنَّ حَيَاتِكَ أَلَوَى لَمْ
تَكُنْ حَيَاةً مُوَفَّقَةً . »

أَجَابَتْهُ سِيَّسِي وَالْذَمُوعُ تَمَلُّاً غَيْثِيهَا : « إِنِّي آيِسَةُ يَا سَيِّدِي . »
رَدَّ قَائِلًا : « لَا تَبْكِي يَا آيِسَةُ جُوب ، لَا تَبْكِي . إِنِّي لَا أَشْكُرُ مِنْكَ ، فَأَنْتِ
فَتَاةٌ رَفِيقَةٌ طَيِّبَةٌ وَمُحِبَّةٌ ، وَفِي هَذَا مَا يَكْفِي . »

إِنْخَسَتْ سِيَّسِي قَائِلَةً : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي شُكْرًا جَزِيلًا . »

قَالَ : « لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا عَوْنًا لِلْسَيِّدَةِ غِرَاذَغِرَايْنِد ، بَلْ وَأَيْضًا لِلْآيِسَةِ لُويزَا ،
حَسْبَمَا أَعْتَقِدُ ، وَأَمَلُ أَنْ تَكُونِي سَعِيدَةً هُنَا . »

رَدَّتِ الْفَتَاةُ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . »

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَقْبَلَتْ لُويزَا إِلَى غُرْفَةِ الدَّرَاسَةِ ، فَتَرَجَّهَ إِلَيْهَا وَالِدُهَا ، وَأَمْسَكَ
بِيَدِهَا قَائِلًا : « يَبْدُو يَا عَزِيزَتِي أَنَّكِ قَدْ ائْتَمَلْتِ عَنْكَ حَتَّى كَبُرَتْ وَأَصْبَحْتَ شَابَّةً
نَاضِجَةً ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

كَانَ رَدُّ لُويزَا نَظْرَةً سَرِيعَةً تَفَحَّصَتْ بِهَا وَجْهَ وَالِدِهَا ، ثُمَّ أَطْرَقَتْ قَائِلَةً : « بَلَى
يَا أَبِي . »

قَالَ لَهَا : « نَجِبٌ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ حَدِيثًا جَادًا يَا عَزِيزَتِي . هَلْ لَكَ أَنْ

الفصل الثامن

إِذَا كَانَتْ الْأَنْوَالُ فِي مَصْنَعٍ بَاوْنِدِرِي قَادِرَةً عَلَى أَنْ تُنْسِجَ الْحَامَاتِ لِتَصْنَعَ مِنْهَا
أَشْيَاءَ جَدِيدَةً . فَالزَّمَنُ أَقْدَرُ مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَالِ وَأَقْوَى ، فَهُوَ يُنْسِجُ خِيوطَ الْحَيَاةِ ،
وَيَصْنَعُ مِنْهَا مُسْتَقْبَلَ النَّاسِ . فَفِي خِلَالِ عَامَتَيْنِ جَعَلَ الزَّمَنُ مِنْ لُويزَا شَابَّةً مُكْتَمِلَةً
الْأَنْوَتِ . وَجَعَلَ مِنَ الصَّغِيرِ ثُومَاسِ كَاتِبًا فِي بَنْكٍ بَاوْنِدِرِي ، وَضَيْفًا فِي مَنْزِلِهِ أَيْضًا .
وَقَدْ تَكُونُ حَيَاةُ كَاتِبِ الْبَنْكِ قَاسِيَةً ، وَلَكِنَّ كَانَ لَدَى ثُومَاسِ وَقْتُ كَافٍ لِيُسَلِّي
نَفْسَهُ بَعِيدًا عَنِ الْمَنْزِلِ .

أَمَّا سِيَّسِي جُوبُ الْحَامَةِ الطَّيِّبَةُ ، فَقَدْ صَاغَتْ مِنْهَا يَدُ الزَّمَنِ فَتَاةً رَائِعَةً الْجَمَالِ ،
وَلَكِنَّ لِلْأَسَفِ لَمْ تُغَيِّرْ مِنْ عَقْلِيَّتِهَا أَوْ أُسْلُوبِهَا فِي التَّفَكُّيرِ . وَقَدْ أُخْزِنَ هَذَا السَّيِّدُ
غِرَاذَغِرَايْنِد ، وَلَكِنَّ حُبَّهُ لَهَا كَانَ أَكْبَرَ مِنْ غَضَبِهِ مِنْهَا . وَخِلَالِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَ
السَّيِّدُ غِرَاذَغِرَايْنِدُ قَدْ أَصْبَحَ غُضُّوًا فِي الْبَرْلَمَانِ عَنْ كُوكُتَاوَن . وَكَانَ يُسْعِدُهُ دَائِمًا
أَنْ يُطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ اسْمُ « غُضُّوٍ عَنِ الْحَقَائِقِ » .

ذَاتَ يَوْمٍ قَالَ لِسِيَّسِي : « لَمْ تُعِدِ الْمَدْرَسَةُ ذَاتَ فَائِدَةٍ لَكَ يَا آيِسَةُ جُوب ،
وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَتْرَكِيهَا . »

أَجَابَتْهُ سِيَّسِي : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، وَيُؤَسِّفُنِي هَذَا . »

قَالَ : « إِنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمِي فِي الْمَدْرَسَةِ سِوَى قَدْرِ مَحْدُودٍ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَالْأَرْفَامِ . »



ردّ ثوم : « إني أفكر فيك دائما يا لو . إننا قد نطلّ معا لفترة ، بل وقد نبقي معا على الدوام . أليس كذلك ؟ كما أنك إن وافقت الولد فيما سيقوله لك فإنك بهذا ستساعديني مساعدة كبيرة ، بل قد أجد نفسي من أسعد شباب كوناون حقا . »

لكن لويزا كانت شحماق إلى نيران المدفأة دون أن تكشف ملامح وجهها شيئا عما يدور في سريرتها . ولم يستطع أخوها أن يستشبع شيئا من تلك الملامح ، ولكنه جذبها إليه أكثر فأكثر في حنان زائد وقيل وجنتها ، فقبلته يدورها وهي لا تزال تشخص ببنصرها إلى نيران المدفأة .

واصل ثوم حديثه قائلا : « لقد جئت لكي أخبرك بشيء ما ، ولا شك أنك

تخضري إلى مكثبي غدا صباحا عقب الإفطار ؟ سأجري محادثة مهمة مساء اليوم ، وعندما أعود ستكونين قد أخذت إلى النوم . »

وتمنى لها ليلة سعيدة بعد أن قبل وجنتها ، وباذلته لويزا التحيّة .

بعد مرور ساعة تقريبا ، قديم ثوم الصغير إلى ستون لودج ، وسرّ عندما وجد أخته وحدها في غرفة الدراسة . وما إن رآته لويزا حتى قالت : « يا عزيزي ثوم ! إنك لم تأت هنا منذ زمن طويل . »

ردّ ثوم : « نعم يا لو . إن أمورا عديدة تشغلني دائما في المساء ، كما أن باوندرلي العجوز عادة ما يكلفني بما يشغلني طوال اليوم . إنه رجل صعب في بعض الأحيان ، وعلى أن أذكره بك دائما . ولكن أخبريني يا لو هل ذكر لك أي شيئا اليوم أو بالأمس ؟ »

أجابته : « لا يا ثوم ، ولكنه يريد أن يتحدث إلي صباح الغد . »

ردّ قائلا : « آه ، هذا ما أغنيه ! هل تعرفين أين سيكون الليلة ؟ »

أجابته : « لا أعرف . »

قال لها : « إذا سأخبرك أنا : إنه سيكون مع السيد باوندرلي ليتحدثا في البنك . ولكن هل تعرفين لم يتحدثان بالبنك ؟ سأخبرك أنا : سيتحدثان بالبنك حتى لا تسمع السيدة سبارست حديثهما . » ثم وضع ذراعه حول شقيقته وجذبها إليه في حنان ، وسألها : « أنت تجيبيني يا لو ، أليس كذلك ؟ »

أجابته أخته : « بطبيعة الحال يا ثوم . ولكن لماذا لا تأتي لزيارتي ؟ »

قَدْ خَزَرَتْ آلَانُ مَا نَوَيْتُ أَنْ أَقُولَهُ . وَآلَانُ عَلَيَّ أَنْ أَنْصَرِفَ يَا لُو ، فَسَادْ هَبِ
الْلَّيْلَةَ إِلَى حَقْلٍ فِي صُحْبَةِ بَعْضِ الزَّمَلَاءِ مِنْ مُوظَّفِي الْبَنكِ . وَلَكِنْ تَذَكَّرِي دَائِمًا
حُبِّكَ لِي .

قَالَتْ : « سَأَتَذَكَّرُ ذَلِكَ يَا نُوم . »

قَالَ : « يَا لَكَ مِنْ فَتَاةٍ رَائِعَةٍ يَا لُو ! إِلَى الْلَقَاءِ . »

نَمِنَتْ لَمْ أَحْتِ فَضَاءَ أُمِّيَّةٍ سَعِيدَةٍ وَهِيَ تُرْقِبُهُ يَخْرُجُ مُسْرِعًا ، ثُمَّ شَخِصَتْ
بِصَرِّهَا إِلَى نِيرَانِ الْمَدْفَأَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي خُجْرَةِ الدَّرَاسَةِ وَكَأَنَّهَا تَبَحُّثُ فِيهَا عَنْ شَيْءٍ
مَا . وَلَمَّا لَمْ تَجِدْهُ فِي تِلْكَ النَّيْرَانِ جَالَتْ بِبَصَرِهَا فِي السَّمَاءِ الَّتِي صَبَغَتْهَا نِيرَانُ
الْمَصَانِعِ بِاللُّونِ الْأَخْمَرِ ، عَسَاهَا أَنْ تَجِدَ بِهَا ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي تَبَحُّثُ عَنْهُ .
لَقَدْ جَعَلَ مِنْهَا الزَّمَنُ فَنَاءً نَاضِجَةً . وَآلَانُ تَتَسَاءَلُ : أَيُّ مُسْتَقْبَلٍ يَتَّبِعُ لَهَا الزَّمَنُ
لِحَيَوتِهِ ؟

حَمَلَتْ لَهَا صَبِيحَةُ الْيَوْمِ الْتَالِي إِبَاجَةً هَذَا التَّسْأُولِ ، عِنْدَمَا تَحَدَّثُ إِلَيْهَا وَالْبَدَا
عَقِبَ الْأَفْطَارِ قَائِلًا : « كَمْ أَنَا سَعِيدٌ بِكَ يَا غَرِيزَتِي لُويزَا ، وَسَعِيدٌ بِتِلْكَ النَّتَائِجِ
الَّتِي حَقَّقَتْهَا بِتَعْلِيمِكَ . فَقَدْ أَفَادَتْكَ الْحَقَائِقُ كَثِيرًا ، إِذْ لَمْ أَسْمَحْ قَطُّ لِتِلْكَ التَّرَوَاتِ
الْقَبِيَّةِ بِأَنْ تَجِدَ لَهَا مَكَانًا فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْخَيَالُ الْعَاطِلُ أَنْ يُخَلَّ
بِمِيزَانِ خَيَاتِكَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنِّي أُعْرِفُ أَنَّكَ سَتَقْبَلِينَ مِنِّي فِيمَا سَأَقُولُهُ آلَانُ . »

وَأَنْتَظِرُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا تَعْلِيلًا عَلَى مَا قَالَ ، وَلَكِنَّهَا لَزِمَتْ الصَّمْتَ ، فَاسْتَنْطَرَدَ
قَائِلًا : « لَقَدْ تَقَدَّمَ رَجُلٌ يَطْلُبُ الزَّوْاجَ بِكَ يَا غَرِيزَتِي . »

إِنْتَظَرَ هُنَيْهَةً أُخْرَى لِيَسْمَعَ رَدَّهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْطِقْ بِشَيْءٍ ، وَبَلَغَتْ بِهِ الدَّهْشَةَ

حَدًّا جَعَلَهُ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ بِرَقَّةٍ : « إِنَّهُ يَطْلُبُ الزَّوْاجَ بِكَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « إِنِّي أَسْمَعُكَ يَا أَبِي . إِنِّي مُصْغِيَةٌ إِلَيْكَ . »

أَجَابَهَا : « إِذَا قَوْلِي شَيْئًا . »

قَالَتْ : « لَيْسَ بَعْدَ يَا وَالِدِي ، فَلْتُخْبِرْنِي أَوَّلًا بِكُلِّ شَيْءٍ . »

إِنْتَابَ الرَّجُلُ إِخْسَاسَ بَعْدَمِ الْإِزْتِيَّاحِ ، فَتَنَاولَ مِسْطَرَّةً مِنْ فَوْقِ مَكْتَبِهِ ،
وَحَمَلَهَا إِلَيْهَا قَائِلًا : « نَعَمْ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . فَهَنَّاكَ بَعْضَ الْحَقَائِقِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي يَجِبُ
أَنْ تُعْرِفَهَا . لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي سَعِيدًا أَيَّ سَعَادَةٍ وَهُوَ يَرَاكَ تَكَثُّرِينَ حَتَّى
صَبَرَتْ شَابَّةٌ نَاضِجَةٌ ، وَكَمْ تَمَنَّى دَائِمًا أَنْ يَتَقَدَّمَ يَوْمًا طَالِبًا أَنْ يَتَزَوَّجَكَ . وَيَعْتَقِدُ
آلَانُ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ قَدْ جَاءَ ، إِذَا فَهُوَ يَأْمُلُ أَنْ تَقْبَلِيهِ زَوْجًا لَكَ . هَذِهِ هِيَ الرِّسَالَةُ
الَّتِي أُحْمِلُهَا لَكَ . »

غَيِمَ الصَّمْتُ عَلَى أَرْجَاءِ الْغُرْفَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ ، ثُمَّ قَالَتْ لُويزَا بِهَدْوٍ :
« أَعْتَقِدُ يَا أَبِي أَنِّي أَحِبُّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي ؟ »

أَجَابَهَا وَقَدْ أَزْدَادَ شَعُورُهُ بَعْدَمِ الْإِزْتِيَّاحِ : « لَا أَعْرِفُ يَا غَرِيزَتِي . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تُرِيدُنِي يَا أَبِي أَنْ أَحِبُّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا يَا غَرِيزَتِي ، فَلَيْسَ هَذَا مَا أُرِيدُهُ بِوَجْهِ خَاصٍّ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ يُرِيدُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي أَنْ أُحِبَّهُ يَا أَبِي ؟ »

أَجَابَهَا : « فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، هَذَا سُؤَالٌ تَصْعُبُ الْإِجَابَةُ عَنْهُ يَا غَرِيزَتِي . »

سألته : « هل يصعب عليك أن تُجيب بنعم أو لا يا أبي ؟ »

رد قائلا : « نعم . وماذا تعني كلمة « الحب » يا عزيزي ، فأنت والسيد باونديري من أولئك الذين يؤمنون بالحقائق وليس بالتزوات العارمة ؟ فالكشبات وأغبياء الناس قد يتكلمون عن الحب ، ولكني لا أستطيع أن أقرن ذلك بعرض السيد باونديري للزواج بك . »

سألته : « أي كلمة يمكنني إذا أن أستخدمها يا أبي بدلا من كلمة الحب ؟ »

أجابها : « الحقائق يا عزيزي ، أستخدمي كلمة الحقائق . لقد بلغت العشرين من عمرك تقريبا ، ولعل السيد باونديري في الخمسين من عمره ؛ ولكن ليس لهذا الفارق في السن أهمية تذكر . فأنت تساوينه في المكانة والثروة ، وعادة ما يكون الرجل أكبر سنا من المرأة عند الزواج . وتلك حقيقة شجدها سواء في إنجلترا أو في الهند أو الصين . »

طلت لويزا على هدوئها وعادت تسأل والدها : « هل تعتقد يا أبي أنه يمكن للحقائق أن تقوم مقام الحب ؟ »

أجابها : « بالتأكيد يا عزيزي . فقد طلب السيد باونديري أن يتزوجك ، وهذه حقيقة من الحقائق . أما الحقيقة المهمة فهي إجابتك عن هذا السؤال بكل بساطة : هل تقبلينه زوجا لك ؟ »

كررت لويزا السؤال : « هل أقبله زوجا لي ؟ »

كانت الفتاة ترتعد ، وتمنت في تلك اللحظة لو أنها ألقت بنفسها بين ذراعي

أبيها وأخبرته بمكنون قلبها . ولكن ثوماس غراذراوند لم يلاحظ شيئا ؛ فقد كان هناك جدار مرتفع يفصل بين عقله وبين كافة المشاعر المعتادة ، ولهذا فقد مرت تلك اللحظة مثلما مر ما قبلها من لحظات ، وضاعت عليها تلك الفرصة .

طال صمتها فعاد والدها يسألها : « فيم تفكرين يا عزيزي ؟ »

أجابت : « إن الحياة قصيرة يا أبي . »

قال : « ولكن الناس يعيشون الآن أطول مما كانوا يعيشون منذ خمسين عاما مضت . »

قالت : « إنني أفكر في حياتي أنا يا أبي . »

قال : « لا شك يا عزيزي أن الحياة ستطول بك شأنك في ذلك شأن معظم الناس . »

قالت : « إنني أود أن أصنع شيئا طيبا في حياتي ، وقد لا يعني هذا شيئا ؛ فالسيد باونديري يرغب في أن يتزوجني ، وأنا لا أحب السيد باونديري ، فإن فهم ذلك فسأقبله زوجا ، وعليه عندئذ أن يقبلني كما أنا ، وأرجو أن تبلغه ذلك يا أبي وبكل دقة . »

قال : « سوف أفعل ذلك ، وإنه لمن الصواب أن يكون الإنسان دقيقا . هل لديك أية رغبة تتعلق بموعد زواجك ؟ »

أجابته : « لا يا أبي ، إن هذا لا يهم كثيرا . »

رَمَقَهَا وَالِدُهَا بِنَظَرٍ حَادَّةٍ وَقَالَ : « لَعَلَّهُ يَنْبَغِي عَلَيَّ يَا لُويزَا أَنْ أَسْأَلَكَ سُؤَالَ
أَخِيرًا : هَلْ طَلَبَ شَابٌّ آخَرُ أَنْ يَتَزَوَّجَكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « مَنْ نَظَرْتُهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِلزَّوْاجِ لِي ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي اتَّقَيْتُ بِهِ
مِنْ قَبْلِ ؟ وَأَيْنَ حَدَثَ هَذَا ؟ وَمَا هِيَ تَجَارِيهِ الْعَاطِفِيَّةُ ؟ »

قَالَ : « لَقَدْ كَانَ مِنْ وَاجِبِي أَنْ أَسْأَلَكَ هَذَا السُّؤَالَ يَا لُويزَا . »

قَالَتْ : « إِنِّي لَا عَهْدَ لِي بِمَا يُرَاوِدُ النِّسَاءَ مِنْ آمَالٍ أَوْ بِمَا يَشْعُرْنَ بِهِ مِنْ رَغَبَاتٍ
وَمِنْ عَوَاطِفٍ . »

قَالَ : « هَذَا صَحِيحٌ يَا عَزِيزَتِي ، وَإِنِّي لَسَعِيدٌ بِذَلِكَ . »

اسْتَطَرَدَّتْ لُويزَا قَائِلَةً : « كَثِيرًا مَا يُمَثِّلُ الْأَطْفَالُ دَوْرَ الْأَبِ وَالْأُمِّ عِنْدَمَا
يُلْعَبُونَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ دُرِّبَتِي جَيِّدًا حَتَّى لَمْ يَكُنْ لِي يَوْمًا قَلْبُ
طِفْلَةٍ . »

رَدَّ وَالِدُهَا : « هَذَا صَحِيحٌ يَا عَزِيزَتِي ، فَقَدْ كَانَ فِي تَعْلِيمِكَ دَائِمًا مَا أَسْعَدَنِي
سَعَادَةً كُبْرَى ، وَالْيَوْمَ هَئِنْدَا أُخْبِي نِمَارَ ذَلِكَ ، فَالْسَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي رَجُلٌ عَظِيمٌ .
وَلَنَذْهَبَ الْآنَ لِتُخْبِرَ وَالِدَتَكَ . »

كَانَتْ رُوحَةُ السَّيِّدِ غَرَادُغْرَايْنْد تَتَمَتَّى لَوْ أَنَّ لُويزَا شَعَرَتْ بِالسَّعَادَةِ . وَكَانَتْ
سَيِّسِي فِي بَلَدِ الْأَفْنَاءِ تَجْلِسُ إِلَى جَوَارِ فِرَاشِ السَّيِّدَةِ الْمَرِيضَةِ ، تَقُومُ بِنَقْصِ
أَشْغَالِ الْإِبْرَةِ . وَنَظَرَتْ إِلَى لُويزَا نَظْرَةً حَزِينَةً ، وَلَكِنَّهَا نَظْرَةً مَلِيَّةَةً بِمَشَاعِرِ الْحُبِّ
الَّتِي تُخَالِطُهَا أَحَاسِيسُ الشَّكِّ وَالشَّقَقَةِ . وَقَدْ أَذْرَكَتْ ذَلِكَ لُويزَا ، وَتَبَدَّلَتْ

بِمَشَاعِرِهَا مِنْذُ بَلَدِ اللَّحْظَةِ ، وَصَارَتْ صَامِتَةً جَامِدَةً مُتَكَبِّرَةً ، وَكَفَّتْ عَنْ صَدَاقَتِهَا
لِسَيِّسِي ، حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَعُدْ تُبَادِلُهَا الْحَدِيثَ .

الفصل التاسع

كَانَ السَّيِّدُ بُولْدِرِي يَحْشَى — إِلَى خَدِّ مَا — أَنْ يُخْبِرَ السَّيِّدَةَ سِبَارِسِت بِشَيْءٍ عَنْ بَيْتِهِ فِي الزَّوْاجِ ، وَكَانَ يَتَسَاءَلُ عَمَّا سَتَفْعَلُهُ : رَبِّمَا تَتْرُكُ الْبَيْتَ عَلَى الْفَوْرِ ، أَوْ لَا تُحْرِكُ سَاكِنًا ، وَكَانَ يُعْتَقِدُ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَتَحَطَّمَ قَلْبُهَا ، أَوْ تَقُومَ بِتَحْطِيمِ اثْنَاتِ الْبَيْتِ .

قَالَ لَهَا : « يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِت ! لَقَدْ تَشَاتٍ فِي أَحْضَانِ التَّرَفِ وَالرَّفَاهِيَةِ ، كَمَا أَنَّكَ سَيِّدَةٌ عَظِيمَةٌ فَاضِلَةٌ وَحَكِيمَةٌ أَيْضًا . »

قَالَتْ : « يُسْعِدُنِي أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيُكَ يَا سَيِّدِي »

قَالَ : « وَالْآنَ يَا سَيِّدَتِي سَوْفَ أُثِيرُ دَهْشَتَكَ : سَوْفَ أَنْزَوِّجُ ابْنَةَ تُوْمَاسِ غِرَادْغَرَايْنِد . »

قَالَتْ : « أَحَقًّا يَا سَيِّدِي ؟ أَتَمَنَّى لَكَ السَّعَادَةَ يَا سَيِّدُ بُولْدِرِي . نَعَمْ ، أَتَمَنَّى لَكَ كُلَّ السَّعَادَةِ . » وَفِي كِبْرِيَاءٍ يُخَالِطُهَا إِحْسَاسٌ بِالْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ كَرَّرَتْ قَوْلَهَا : « أَتَمَنَّى لَكَ ، مِنْ كُلِّ قَلْبِي يَا سَيِّدِي ، دَوَامَ السَّعَادَةِ . »

رَدَّ قَائِلًا : « شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدَتِي ، وَهَذَا مَا أَتَمَنَّاهُ أَيْضًا . وَلَعَلَّكَ لَا تَرْغِبِينَ فِي الْبَقَاءِ مَعَنَا بَعْدَ زَوَاجِي ، وَلَكِنِّي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَرْحُبُ بِكَ هُنَا دَائِمًا . »

هَزَّتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت رَأْسَهَا ، وَقَالَتْ بِكِبْرِيَاءٍ : « لَنْ يُمَكِّنَنِي أَنْ أَبْقَى هُنَا يَا سَيِّدِي . »

قَالَ السَّيِّدُ بُولْدِرِي بِسُرْعَةٍ : « ثَمَّةُ شَقَّةٍ وَاسِعَةٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَا سَيِّدَتِي . إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ بِهَا فَسَتُضَيِّقِينَ — بِلَا شَكٍّ — قِيَمَةَ إِلَى الْبَيْتِ ، أَمَّا أَنَا فَسَأُذْفَعُ لَكَ الْمَبْلَغَ نَفْسَهُ ... »

قَاطَعَتْهُ قَائِلَةٌ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلَا دَاعِيَ لِمُنَاقَشَةِ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ يَا سَيِّدِي ، فَالْأَمْرُ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا سِوَاهُ أَقَمْتُ هُنَا أَمْ بِالْبَيْتِ ، فَمَكَانَتِي سَتَظَلُّ عَالِيَةً هُنَاكَ شَأْنُهَا شَأْنُ مَكَانَتِي هُنَا . »

قَاطَعَهَا بُولْدِرِي بِدَوْرِهِ قَائِلًا : « آه ، لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ يَا سَيِّدَتِي . لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرَحَ شَيْئًا أَقَلَّ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ سَيِّدَةٌ لَهَا مِثْلُ أَصْلِكَ . فَأَنَا — بِطَبِيعَةِ الْحَالِ — رَجُلٌ مِنَ الشَّارِعِ ، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْتَدْتَ حَيَاةَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ . »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، هَذَا صَحِيحٌ يَا سَيِّدِي . يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ رَفِيقٍ ! »

قَالَ : « إِنَّ تِلْكَ الشَّقَّةَ الَّتِي فَوْقَ الْبَيْتِ مُرِيحَةٌ لِلْعَايَةِ ، وَيُمْكِنُكَ يَا سَيِّدَتِي أَنْ تَسْتَعِينِي بِمَنْ يُنَظِّفُهَا لَكَ . كَمَا أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا يَتَوَلَّى حِرَاسَةَ الْبَيْتِ ، وَسَيَقُومُ بِحِرَاسَتِكَ أَيْضًا . »

قَالَتْ : « لَا تَقُلْ شَيْئًا آخَرَ يَا سَيِّدِي ، فَأَنَا أَقْبَلُ مَا عَرَضْتَهُ عَلَيَّ بِكُلِّ الشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ . » ثُمَّ أَضَافَتْ وَقَدْ غَلَبَتْهَا مَشَاعِرُ الْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ : « سَتَكُونُ الْآبِسَةُ غِرَادْغَرَايْنِدُ بِالنَّسَبَةِ لَكَ غَايَةَ أُمَانِيَّتِكَ ، وَكُلُّ مَا تَسْتَحِقُّ يَا سَيِّدِي . »

فَاجَابَهَا مُوَيِّدًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ . أَمَلُ ذَلِكَ . »

حَرَصَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَبْدُو دَائِمًا مُهَذَّبَةً بِاللُّغَةِ الرِّقَّةِ عِنْدَمَا



تَحَدَّثُ إِلَى السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، الَّذِي سَيَتَزَوَّجُ الْفَتَاةَ الَّتِي يُرِيدُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا . وَلَكِنَّ
نَظْرَةَ الشُّفْقَةِ لَمْ تَفَارِقْ وَجْهَهَا ، تِلْكَ النُّظْرَةُ الَّتِي جَعَلَتْ وَجْهَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي
الْحُمْرَ أَوْيْنِ الْكَبِيرَيْنِ ثَبْدَوَانِ سَاخِنَتَيْنِ وَتَنْصَبَّيَانِ عَرَفَا .

تَحَدَّدَ مَوْعِدُ الزَّوَاجِ ، وَذَابَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي عَلَى الْذَّهَابِ إِلَى سَتُون لُودْجِ
كُلِّ مَسَاءٍ . وَكَانَ فِي الْهَدَايَا الْقِيَمَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا إِلَى لُويزَا مَا قَامَ مَقَامَ الْحُبِّ .
وَصُنِعَتْ لَهَا أَفْخَرُ الْمَلَابِيسِ وَالْأَحْذِيَّةِ . وَكَانَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَالسَّيِّدُ غِرَادْغَرَانْدُ
قَدْ اتَّفَقَا عَلَى مَا يُؤَوَّلُ إِلَى لُويزَا مِنْ مَالٍ ، كَمَا خَطَّطَا أَيْضًا لِلْعَرَسِ مِنْ كَافَّةِ
النُّوَاحِي ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمَسَائِلِ الْحَالِيَّةِ وَالْخَفَائِثِ .

إِنَّ النَّاسَ قَدْ يَحْتَلِفُونَ فِي إِحْسَاسِهِمْ بِزَمَنِ الْحُبِّ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَشْعُرُ بِالسَّاعَاتِ
تَمَرُّ سَرِيعَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُهَا أَوْقَاتًا بَطِيئَةً مُتَنَاقِلَةً . أَمَّا فِي سَتُون لُودْجِ فَالْيَوْمُ
الرُّبْعُ وَعِشْرُونَ سَاعَةً بِالتَّكْمَالِ وَالْكَمَالِ ، وَكُلُّ سَاعَةٍ سِتُونَ دَقِيقَةً .

أَخِيرًا جَاءَ الْيَوْمُ الْعَظِيمُ ، فَقَدْ تَزَوَّجَ السَّيِّدُ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي كَرِيمَةً غَضُو
الْبِرْلَمَانِ السَّيِّدِ ثُومَاسِ غِرَادْغَرَانْدُ . وَبَعْدَ أَنْ تَمَّتْ مَرَامِسُ الزَّوَاجِ تَنَاوَلَ الضُّيُوفُ
طَعَامَ الْإِفْطَارِ فِي سَتُون لُودْجِ ، ثُمَّ أَلْقَى السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي كَلِمَةً قَالَ فِيهَا :

« أَيُّهَا السَّيِّدَاتُ وَالسَّادَةُ ، أَنَا جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي مِنْ كُوكَتَاوَن . وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ
لِي وَلِزَوْجَتِي أَنْ تُرْحِبَ بِكُمْ هُنَا . إِنَّكُمْ جَمِيعًا تَعْرِفُونَنِي جَيِّدًا ، وَتَعْرِفُونَ أَنَّنِي
قَدْ بَدَأْتُ حَيَاتِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَا تَتَوَقَّعُوا أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي كَلِمَاتٍ
جَمِيلَةً . فَصَدِيقِي وَصَهْرِي ثُومَاسِ غِرَادْغَرَانْدُ غَضُوٌّ فِي الْبِرْلَمَانِ ، وَهُوَ الرَّجُلُ
الَّذِي يُمَكِّنُهُ أَنْ يُلْقِيَ خِطَابًا مُنَاسِبًا .

« إِنِّي أَشْعُرُ الْيَوْمَ بِالْفَخْرِ ؛ فَذَلِكَ الصَّبِيُّ الْقَدِيرُ الَّذِي جَاءَ مِنَ الشَّارِعِ قَدْ

تَزُوجَ ابْنَةِ توماس غراذغراند . لَقَدْ كُنْتُ أَرْقُبُ بَلَدَ السَّيِّدَةِ وَهِيَ تَكْبُرُ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهَا الْيَوْمَ تَسْتَحِقُّ أَنْ أَكُونَ زَوْجًا لَهَا ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ سَتَفْقُونَ مَعِيَ عَلَى أَتْنِي جَدِيرٌ بِهَا . فَشَكَرْنَا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالسَّيِّدَاتُ لِتَمَنِّيَاتِكُمْ الطَّيِّبَةِ لَنَا . إِنِّي أَرَى حَوْلَ الْمَائِدَةِ عَدَدًا مِنَ الضُّيُوفِ غَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ فَالْيَوْمَ تَمَنِّيَانِي : إِنِّي أَتَمَنَّى لِكُلِّ رَجُلٍ أَنْ يَجِدَ زَوْجَةً مِثْلَ زَوْجَتِي ، كَمَا أَتَمَنَّى لِكُلِّ سَيِّدَةٍ أَنْ تَجِدَ زَوْجًا مِثْلِي . »

وَبَعْدَ مُضِيِّ سَاعَةٍ كَانَ السَّيِّدُ باونديري وَزَوْجَتُهُ مُسْتَعِدَّيْنِ لِلسَّفَرِ لِقَضَاءِ شَهْرِ الْعَسَلِ فِي مَرْنَا . فَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ باونديري حَرِيصًا عَلَى زِيَارَةِ مَصَانِعِ الْأَقْيِشَةِ الْقُطَيْبَةِ فِي مَدِينَةِ « لِيون » لِهَذَا قَصَدَهَا لِقَضَاءِ شَهْرِ الْعَسَلِ .

وَالْتَقَتْ لَوِيزَا بِأَخِيهَا عَلَى سَلَامٍ سَتُونَ لَوْجٍ فَقَالَ لَهَا : « أَنْتِ أَحْسَنُ أُخْتٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ يَا لَوِ ! »

فَأَحَاطَتْهُ أُخْتُهُ بِذِرَاعَيْهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الْكَلَامَ ، وَلَكِنْ تَوَمَّ اسْتَطْرَدَ قَائِلًا : « إِنَّ السَّيِّدَ باونديري مُسْتَعِدٌّ الْآنَ ، فَعَلَيْكَ بِالذَّهَابِ . مَعَ السَّلَامَةِ ! سَأَكُونُ فِي أَيْتَظَارِكُمْ عِنْدَمَا تَعُودَانِ . آه يَا لَوِ ! إِنِّي أَسْعُدُ شَبَابَ كُوكْتاون ! أَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ جَمِيلَةً الْآنَ ؟ »

الفصل العاشر

كَانَ يَوْمًا حَارًّا فِي مَدِينَةِ كُوكْتاون ، وَكَانَ كُلُّ أَمْرِي يَعْرِفُ أَنَّهُ فَضْلُ الصَّيْفِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْحَرَارَةُ يَسَبِّبُ مَا يُلْقِيهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ ظِلَالٍ عَلَى الشُّوَارِعِ . فَالْكَأْسُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ لَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّهَا تَتَوَارَى عَادَةً خَلْفَ سُحُبِ الدُّخَانِ الْكَثِيفَةِ الدَّاكِنَةِ الَّتِي تُغْلَفُ الْمَدِينَةَ . وَلَكِنْ الْكُلُّ يَعْرِفُ أَنَّهُ الصَّيْفُ ، فَالشَّهْرُ هُوَ شَهْرُ يُولْيُو ، وَمَصَانِعُ الْمَدِينَةِ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ .

لَقَدْ انْقَضَى عَامٌ عَلَى زَوَاجِ السَّيِّدِ باونديري بِلَوِيزَا ، وَطَوَالَ هَذَا الْوَقْتِ لَمْ تَكُفِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ عَنْ ذَلِكَ الْإِحْسَاسِ بِالشَّقَقَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحَسُّ بِهَا نَاجِيَةً السَّيِّدِ باونديري . وَكَانَتْ فِي بَلَدِ اللَّيْلَةِ جَالِسَةً بِجِوَارِ نَافِذَتِهَا الْمُفَضَّلَةِ ، فَقَدْ كَانَ لِمَسْكِنِهَا نَافِذَتَانِ تُظِلَّانِ عَلَى الشَّارِعِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْبَنَّاكُ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَرَى مِنْهُمَا كُلَّ مَا يَدُورُ فِي الْمَدِينَةِ . وَكَانَتْ كُلَّ صَبَاحٍ تُرَاقِبُ السَّيِّدَ باونديري وَهُوَ يَغِيرُ الشَّارِعَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَنَّاكِ ، وَتَرَاهُ فِي الْمَسَاءِ وَهُوَ يَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَكَانَتْ إِلَى جَانِبِ هَذَا تَرَى أَشْيَاءَ أُخْرَى كَثِيرَةً .

كَانَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ هِيَ الْمَلِكَةُ الْمُتَوَجَّعَةُ عَلَى الْبَنَّاكِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ؛ إِذْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّهَا هُنَاكَ لِتُخْرَسَ مَكَاتِبُ الْبَنَّاكِ وَغُرَفَةُ الْخِزَانَةِ ذَاتِ الْجُدْرَانِ وَالْأَقْفَالِ الْحَدِيدِيَّةِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَحْوِي مُعْظَمَ أَمْوَالِ كُوكْتاون . وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ — إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ — تَتَوَلَّى الْإِشْرَافَ عَلَى الْخَادِمَةِ الْعَجُوزِ الَّتِي تَقُومُ بِأَعْمَالِ النُّظَافَةِ وَالطَّهْيِ فِي الْبَيْتِ ، كَمَا كَانَتْ تَرَأْسُ ذَلِكَ الشَّبَابِ الَّذِي يَقُومُ بِحِرَاسَةِ الْبَنَّاكِ لَيْلًا ، وَالَّذِي كَانَ يَضَعُ سَرِيرَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَمَامَ الْغُرْفَةِ الْحَدِيدِيَّةِ .

في تلك الليلة شاهدت السيدة سبارست السيد باوندرني وهو يغادر البنك ،
وتبعه الموظفون بعد ذلك بعشر دقائق ، ثم أحضر الحارس الشاب إبريق الشاي
للملكة ، فقالت له : « شكراً لك يا بيتر » .

قال : « شكراً لك أنت يا سيدي » .

كان الحارس الشاب ذا شعر فاتح اللون ، وبشرة بيضاء ، ولم يطرأ أي تغيير
على ملامح وجهه طوال السنوات الخمس الأخيرة من عمره . وكان يتمتع
بذاكرة قوية أحتفظت بما تعلمه من حقائق وما رآه من وجوه ، وكان لا يزال
يذكر الفتاة رقم عشرين .

سألته السيدة سبارست : « هل أغلقت كل النوافذ والأبواب يا بيتر » .

أجابها : « نعم يا سيدي » .

ولما كانت السيدة سبارست لا تستقبل كثيراً من الزوار فإنها كانت عادة
تسلي نفسها بالحديث مع بيتر كل ليلة . وسألته وهي تصب الشاي :
« ما الأخبار اليوم يا بيتر ؟ »

أجابها : « لا شيء جديد يا سيدي ، فالعمال في المصنع يثيرون المتاعب مرة
أخرى ، ولا أظن أن في هذا شيئاً جديداً ، أليس كذلك ؟ »

سألته : « وماذا يفعلون الآن يا بيتر ؟ »

أجابها : « إنهم بالطبع يتحدثون ويتجادلون ، فهم يحاولون تكوين نقابة
عمالية لهم . »

قالت السيدة سبارست : « إن هذا أمر سيئ ، ولا بد أن يتصدى السيد
باوندرني وأصدقائه لهذا الغيب على الفور . لا بد من إخضاع العمال ، ولن
تكون ثمة نقابات عمال في كوتناون » .

قال بيتر : « أنت على حق تماماً يا سيدي » .

قالت : « أأمل أيضاً أن يكون مسئلك موظفي البنك مسئلكا طيبا ، وأن يكونوا
جادين في أدائهم لعملهم . أليسوا كذلك يا بيتر ؟ »

كان بيتر يعمل أيضاً في البنك أثناء النهار . وكانت مهمته أن يجمع الأخبار
للسيد باوندرني ، فكان يستمع لما يدور بين عملاء البنك من أحاديث ، وكان
يستمع أيضاً لأحاديث الموظفين ، واستطاع من خلال هذا أن يعرف الكثير من
الأسرار التي كان ينقلها إلى السيد باوندرني . وكان بيتر — على خلاف سيسي
جوب — قد عرف كافة الحقائق وألم بها من خلال ما تعلمه بالمدرسة . ولم
يكن يشغل نفسه بالأحاسيس المألوفة أو بالتخيلات الوهمية ، بل كانت أفكاره
كلها دقيقة واضحة ، حتى إنه صار من أولئك الذين خطوا بإعجاب السيد
باوندرني والسيد غراذغرايند واعتبراهما .

صمت هنيهة قبل أن يجيب عن سؤال السيدة سبارست ثم قال : « بلى يا سيدي
إنهم ممتازون تماماً ، باستثناء السيد الذي تتكلم عنه عادة » .

قالت السيدة سبارست : « آه ! أقتصد ... »

رد بيتر : « إنني أقصد غراذغرايند الصغير . فثمة بعض شكوك حوله » .

قالت : « أَلَمْ أَخْبِرْكَ مِنْ قَبْلُ يَا بِيْتَزْر أَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَكَ تَذَكُّرُ أَيْةِ
أَسْمَاءِ ؟ »

قال : « بَلَى يَا سَيِّدِي ... إِنِّي آسِفٌ . »

قالت : « تَذَكَّرْ يَا بِيْتَزْر ، أَنَّنِي مُسْتَوْلَةٌ عَنِ الْبَيْتِ فِي اللَّيْلِ . لَقَدْ أَقْرَأَ السَّيِّدُ
بَاوْنِدِرِي بِمَكَانَتِي وَمَكَانَةِ أُسْرَفِي الْعَالِيَةِ ؛ لِذَا يَجِبُ أَنْ أَكُونَ صَادِقَةً مَعَهُ مُخْلِصَةً
لَهُ ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ إِذَا مَا سَمَحْتُ لِنَفْسِي أَنْ أَسْمَعَكَ تَرَدَّدَ أَمَامِي
أَسْمَاءَ . فَأَنَا لَا يَسْتَعْنِي أَنْ أَسْمَعَ أَسْمَاءَ الْحَطِّ الْعَائِرِ أَنْ يَرْتَبِطَ لِلْآسِفِ بِأَسْمِهِ ؛
لِهَذَا أَرْجُوكَ يَا بِيْتَزْر أَنْ تَسْتَعْدِمَ كَلِمَةَ الشَّخْصِ . »

إتَّجَهَ بِيْتَزْر نَاجِيَةً الْتَائِفَةَ وَنَظَرَ مِنْهَا قَائِلًا : « حَسَنًا يَا سَيِّدِي إِنَّ هَذَا الشَّخْصَ
الصَّغِيرَ لَا يَتَصَرَّفُ كَمَا يَنْبَغِي ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ بِجِدٍّ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ عَلَى
الْإِطْلَاقِ مِنْذُ أَنْ قَدِمَ إِلَى هُنَا . وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مُسْرِفٌ كَسُولٌ ، وَيَفْرِطُ
فِي الشَّرَابِ . وَلَوْلَا تِلْكَ الْعِلَاقَةُ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالسَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْمَلَ
هُنَا قَطُّ . »

قالت السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت : « آه ! آه ! »

قال : « أَتَمَتِي يَا سَيِّدِي أَلَا يُبَدِّرُ هَذَا الشَّخْصُ أَمْوَالَ قَرِيبِي . إِنَّ السَّيِّدَ الَّذِي
يَعْمَلُ هَذَا الشَّخْصُ فِي خِدْمَتِهِ لَجَدِيرٌ بِعَظْفِنَا وَشَفَقَتِنَا . »

قالت : « أَجَلْ يَا بِيْتَزْر ، لَقَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ دَائِمًا عَلَيْهِ ، وَسَأَشْفَقُ عَلَيْهِ أَبَدًا . »

قال : « إِنَّ هَذَا الشَّخْصَ الصَّغِيرَ يَكَادُ يُعَيِّرُ لِقَوْدِهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ يَا سَيِّدِي . »

قالت : « كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَكَ يَا بِيْتَزْر . »

رَدَّ بِيْتَزْر مُسْرورًا : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي . إِنَّنِي أَذْجُرُ بِالْفِعْلِ مِنْ مُرْتَبِي ، أَمَّا
هَذَا فَإِنَّهُ لَا يَذْجُرُ شَيْئًا . » وَابْتَعَدَ عَنِ الْتَائِفَةِ فَجَاءَ وَقَالَ : « سَيِّدِي إِنَّ هُنَاكَ سَيِّدًا
يَقِفُ فِي الشَّارِعِ ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْتَائِفَةِ طَوَالَ ذَقِيقَةٍ أَوْ ذَقِيقَتَيْنِ ، وَهِيَ هِيَ ذَا
قَدِمَ نَحْوَ الْبَابِ . »

وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ سَمِعَا طَرَقًا عَلَى الْبَابِ ، فَتَسَاءَلَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِت : « ثَرَى
مَنْ يَكُونُ هَذَا الشَّخْصُ ؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ عَنْ مَوَاعِيدِ الْعَمَلِ بِالْبَيْتِ ، وَلَكِنْ لَعَلَّهُ مِنَ
الْأَوْفَقِ أَنْ أَقَابِلَهُ . فَتَرَّ يَا بِيْتَزْر مَنْ يَكُونُ ؟ »

بَعْدَ ذَقِيقَةٍ عَادَ بِيْتَزْر وَمَعَهُ الْزَّائِرُ ، وَقَالَ : « هَذَا السَّيِّدُ يَبُودُ مُقَابَلَتِكَ
يَا سَيِّدِي . »



وَدَخَلَ خَلْفَ بَيْتِ شَابٍ أُنِيقَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ اللَّامُبالَةِ . وَحَكَمَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ عَلَى الْفُورِ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ مُهْدَبٌ .

قَالَ الرَّجُلُ : « عَفُوا يَا سَيِّدِي . »

قَالَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ فِي نَفْسِهَا : « رَجُلٌ فِي الْخَامِسَةِ وَالْثَلَاثِينَ مِنْ عُمرِهِ . مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، جَمِيلُ الصُّورَةِ ، لَهُ أَسْنَانٌ قَوِيَّةٌ ، وَصَوْتٌ جَمِيلٌ ، وَعَيْنَانِ جَسُورَتَانِ . » وَمَا لَيْتُ أَنْ قَالَتْ لَهُ : « تَفَضَّلْ بِالْجُلُوسِ يَا سَيِّدِي . »

شَكَرَهَا الرَّجُلُ ، وَلَمْ يَجْلِسْ وَإِنَّمَا اسْتَنَدَ إِلَى الْمَائِدَةِ قَائِلًا : « مَعْدِرَةٌ ! لَقَدْ تَرَكْتُ خَادِمِي وَحَقَائِبِي فِي مَحْطَةِ الْفِطَارِ ، وَلَكِنِّي أَسْمَحِي لِي أَنْ أَسْأَلَكَ : إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ غَرِيبَةٌ ، فَهَلْ هِيَ مُعْتَمَةٌ دَائِمًا كَمَا أَرَاهَا الْآنَ ؟ »

أَجَابَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ : « إِنَّهَا عَادَةٌ تَكُونُ أَشَدَّ عَتَمَةً . »

قَالَ الرَّجُلُ : « هَذَا مُسْتَحِيلٌ ! وَمَعْدِرَةٌ : هَلْ تُقِيمِينَ هُنَا دَائِمًا يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْ : « لَا يَا سَيِّدِي . وَلَكِنِّي أُقِيمُ هُنَا مِنْذُ وَفَاةِ زَوْجِي ، وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَعِيشُ فِي ظُرُوفٍ مُخْتَلِفَةٍ ثَمَامًا . »

سَأَلَهَا : « أَلَمْ تَسْأَلِي هَذَا الْمَكَانَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « إِنَّ سُوءَ الظَّالِمِ ، وَيَقْضُ وَقَائِعَ الْحَيَاةِ أَتَتْ لِي لِأَعِيشَ هُنَا ، وَلَكِنِّي اعْتَدْتُ ذَلِكَ . »

قَالَ بِغَيْرِ اكْتِرَافٍ : « لَعَلَّ مِنَ الْحِكْمَةِ ... »

فَقَاطَعَتْهُ قَائِلَةً : « وَلَكِنْ هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَكَ يَا سَيِّدِي لِمَذَا أُرَدْتُ مُقَابِلَتِي ؟ »

أَجَابَ الرَّجُلُ : « بِالطَّبَعِ ، وَأَشْكُرُكَ لِتَذْكَرَنِي . إِنَّنِي أُحِبُّ حِطَابًا لِلْسَّيِّدِ بَاوُلْدَرْزِي يُقَدِّمُنِي لَهُ . وَعِنْدَمَا سَأَلْتُ أَحَدَ الْأَشْخَاصِ عَنْ مَكَانٍ إِقَامَتِهِ أَتَى بِي إِلَى هُنَا . وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّكَ لَمْ يُغْلَقِ أَبْوَابُهُ بَعْدُ . وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ السَّيِّدَ بَاوُلْدَرْزِي لَا يُقِيمُ هُنَا ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ : « أَجَلٌ يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ لَا يُقِيمُ هُنَا . »

قَالَ الرَّجُلُ ، وَقَدْ ارْتَكَبَ بِإِخْدَى قَدَمَيْهِ عَلَى زَاوِيَةِ الْمُنْضَدَةِ : « شُكْرًا لَكَ . لَنْ أَسْتَطِيعَ إِذَا أَنْ أَسْلَمْتُ هَذَا الْخِطَابَ اللَّيْلَةَ ، وَلَكِنِّي عَلَى الْأَقْلَى قَدْ عَرَفْتُ مَكَانَ الْبَيْتِ . لَا شَكَّ أَنَّكَ تُعْرِفِينَ أَيْنَ يُقِيمُ السَّيِّدُ بَاوُلْدَرْزِي ، وَسَأَكُونُ سَعِيدًا نَوَّارُشْدَتَنِي إِلَيْهِ . »

الْتَزَمَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ الصَّمْتَ هَنِيئَةً ؛ فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ ، بَعْدَ أَنْ رَفَعَ قَدَمَهُ عَنْ زَاوِيَةِ الْمُنْضَدَةِ : « لَا بُدَّ أَنَّكَ تَسْأَلِينَ عَمَّنْ أَكُونُ . » ثُمَّ أَخْرَجَ حِطَابًا مِنْ جَيْبِهِ وَقَالَ : « إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ مُوجَّهٌ إِلَى السَّيِّدِ بَاوُلْدَرْزِي ، وَمُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ غَرَادُغَرَايَنْدِ غُضُو الْبِرْلَمَانِ ، وَكُنْتُ قَدْ تَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ فِي لُنْدُنِ . »

فَأَتَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ لِحْوَ التَّافِدَةِ ، وَأَشَارَتْ لِلزَّائِرِ إِلَى مَنَزَلِ بَاوُلْدَرْزِي ، فَقَالَ لَهَا : « شُكْرًا يَا سَيِّدَتِي . اعْتَقَدْتُ أَنَّكَ تُعْرِفِينَ السَّيِّدَ بَاوُلْدَرْزِي مَعْرِفَةً جَيِّدَةً . »

قَالَتْ : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . إِنَّنِي أَعْرِفُهُ مِنْذُ عَشْرِ سِنَوَاتٍ . »

قَالَ لَهَا : « يَا لَهَا مِنْ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ . أَلَمْ يَتَزَوَّجْ ابْنَةُ غَرَادُغَرَايَنْدِ ؟ »

أُجَابَتْهُ : « بلى . لقد نال هذا الشرف يا سيدي . »

قال الرجل : « لقد حَدَّثَنِي السَّيِّدُ غَرَاذِغَائِدَ عَنْ آبَتَيْهِ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا تَمْنَعُ بِعَقْلِ رَاجِحٍ ، وَذَكِيَّةٍ جِدًّا ، وَفِطْنَةٍ : آه ، أراكِ تَتَسَمَّيْنِ يَا سَيِّدَتِي ! أَلَا تُوَافِقِينَ عَلَى ذَلِكَ ؟ كَمْ عُمرُهَا ؟ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ أَمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ »

ضَجَحَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِيسَ وَقَالَتْ : « إِنَّهَا لَيْسَتْ بِوِى طِفْلَةٍ ! وَلَمْ تُكُنْ قَدْ بَلَغَتْ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمرِهَا عِنْدَمَا تَزَوَّجَتْ . »

قال الرجل : « كَمْ يُدْهَشُنِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا . لَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنَّ التَّقِيَّ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ يَأْوُدِرُنِي بِسَيِّدَةٍ حَكِيمَةٍ كَثِيرَةٍ فِي السَّنِّ ، فَشَكَرًا لِكَ لَتَصَحِّحَ مَعْلُومَاتِي ، وَشَكَرًا لِمُسَاعَدَتِكَ . وَالْآنَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ . طَابَتْ لَيْلَتُكَ يَا سَيِّدَتِي . »

عِنْدَمَا غَادَرَ الرَّجُلُ أَلَيْتِ اتَّجَهَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِيسَ نَحْوَ النَّافِذَةِ لِتُراقِبَهُ وَهُوَ يَسِيرُ فِي خُطُوبَاتِ مُتَشَاوِلَةٍ .

وَبَعْدَ هُنَيْئَةٍ أَقْبَلَ يَبْتَزِرُ لِيَأْخُذَ أَكْبَابَ الشَّايِ الْفَارِغَةَ ، وَقَالَ لِلْسَّيِّدَةِ سِبَارِيسَ : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُنْفِقُ الْكَثِيرَ عَلَى مَلَابِسِهِ يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ : « إِنَّ مَلَابِسَهُ غَايَةٌ فِي الْأَنَاقَةِ يَا يَبْتَزِرُ . »

قال يَبْتَزِرُ : « وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ مَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا مِنْ نَقُودٍ . يَدُو أَنَّ هَذَا السَّيِّدَ لَا يَكْدُ فِي سَبِيلِ كَسْبِ النُّقُودِ . »

ظَلَّتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِيسَ جَالِسَةً بِجِوَارِ النَّافِذَةِ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ دُونَ أَنْ تُضَيَّءَ مِصْبَاحُ غُرْفَتِهَا حَتَّى بَعْدَ أَنْ أَظْلَمَتِ الْغُرْفَةُ . وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ أَصْطَبَعَتْ

بِالْأَلْوَنِ الْأَحْمَرِ بِسَبَبِ السَّيِّدَةِ اللَّهَبِ الَّتِي كَانَتْ تَتَصَاعَدُ مِنْ مَصَانِعِ كُوكُتَاوَن .
وَأَخِيرًا قَامَتْ لِتَنَامَ ، وَقَالَتْ : « يَا لَكَ مِنْ أُحْمَقٍ ! »

مَنْ كَانَ ذَلِكَ الْأُحْمَقُ ؟ ذَلِكَ مَا لَمْ تُفْصِحْ عَنْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِيسَ .

يا ثوم ، فعليك بمقابلة أخي جيم ، ففي مقدوره أن يعد خطباً رائعة ، ولندي طريقة ممتازة في التعامل . »

الفصل الحادي عشر

كان زائر السيد سبارست يدعى جيمس هارثهاوس ، ويطلق عليه أصدقاؤه اسم جيم . وكان الأخ الأصغر لأحد أعضاء البرلمان ممن يحظون بإعجاب السيد غراذغرايند .

« إلى جوشيا باونديري بمدينة كوكتاون : رسالة من ثوماس غراذغرايند بخصوص تقديم جيمس هارثهاوس . »

وبعد أن تسلم السيد باونديري الرسالة بساعة واحدة ، جاء بنفسه إلى الفندق . وكان جيم في ذلك الوقت يطل من نافذة الغرفة التي كان يتناول فيها إفطاره ، وقد بدت عليه أمارات الحزن ؛ إذ لم يكن يعتقد أن العمل في ميدان الحقائق مستهوي أو يثير اهتمامه خصوصاً في مدينة مثل كوكتاون ، حتى إنه كاد يتراجع عن الالتحاق بهذا العمل ، وأن يبحث لنفسه عن عمل آخر . ولكن في تلك اللحظة وصل أحد عمال الفندق وبصحبه السيد باونديري الذي قدم نفسه قائلاً : « اسمي جوشيا باونديري من مدينة كوكتاون يا سيدي . »

أجابه جيم : « يسعدني لقائك . » ولكن مظهره لم يدل مطلقاً على أنه كان سعيداً بهذا اللقاء .

استطرد باونديري قائلاً : « حسناً يا سيدي ! اعتقد أنك وجدت كوكتاون مكاناً غريباً ؛ ولهذا فإنني سأحكي لك عنها ، سواء استمعت لما أقول أم لم تستمع . »

وأعاده أخوه كتاباً أو كتابين بهدف تأهيله للعمل في ميدان الحقائق ، وبعد أسبوع شعر بأنه قد اكتسب قدرًا كافيًا من المهارة والقدره على فهم الحقائق مما يؤهله لهذا العمل الذي عزم على القيام به . وعندما قابل أخوه السيد غراذغرايند في البرلمان قال له : « إذا كنت في حاجة إلى رجل ملهم بالحقائق

قال جيم : « أرجو أن تحدثني عنها . »

قال باونديري : « إن مدينتنا لا تُعجِب مَنْ يَأْتِي إِلَيْهَا مِنْ أَهَالِي لَنْدَن . فَهُمْ يَجِدُونَهَا مَدِينَةً مُظْلِمَةً يَمْلَأُهَا الدُّخَانُ . وَلَكِنْ هَذَا الدُّخَانُ يَا سَيِّدَ هَارْتِهَاؤُس هُوَ طَعَامُنَا وَشَرَابُنَا ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ بِالصَّحَّةِ أَبَدًا ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ فَايِدَةً لِأَجْسَامِنَا ؛ لَذَا فَإِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُ ، بَلْ إِنَّا نَوَدُّ أَنْ نَحْتَفِظَ بِهِ . »

وَلَمَّا كَانَ هَارْتِهَاؤُس قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَمْضِيَ قُدَمًا فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَإِنَّهُ قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ مَا تَقُولُهُ صَحِيحٌ ، وَأَنَا أُوَافِقُكَ عَلَى ذَلِكَ تَمَامًا يَا سَيِّدَ باونديري . »

قال باونديري : « يُسْعِدُنِي أَنَّكَ تُوَافِقُنِي عَلَى هَذَا الرَّأْيِ . وَالْآنَ إِلَيْكَ بَعْضُ الْحَقَائِقِ الْآخَرَى . إِنَّ مَجَالَنَا هُوَ صِنَاعَةُ النَّسِيجِ ، وَهِيَ أَفْضَلُ وَأَسْهَلُ عَمَلٍ فِي الْعَالَمِ . كَمَا أَنَّ الْعُمَالِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ يَتَقَاضُونَ أَجُورًا أَعْلَى بِمَا يَتَقَاضَاهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الْعُمَالِ ، وَلَا يَبْقَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُضِيفَهُ إِلَى مَصَانِعِنَا بِهَدَفٍ نَحْسِنُهَا سِوَى أَنْ نَقْرِشَهَا بِالسَّجَاحِيدِ الْهِنْدِيَّةِ ، وَلَكِنْ هَذَا مَا لَنْ نَفْعَلَهُ . »

قال هَارْتِهَاؤُس : « أَنْتَ مُحَقِّقٌ فِي كَلَامِكَ تَمَامًا يَا سَيِّدَ باونديري . »

قال باونديري : « وَلَكِنْ النَّاسُ هُنَا لَا يَرْضَوْنَ بِشَيْءٍ ؛ فَهُمْ يَطْمَعُونَ فِي أَنْ يَتَنَاوَلُوا أَفْضَلَ اللَّحُومِ الْحَمْرَاءِ يَوْمِيًا ، بَلْ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَأْكُلُوا اللَّحْمَ بِمَلَاعِقٍ مِنْ ذَهَبٍ ؛ وَلِهَذَا تَرَاهُمْ أَلَيَوْمَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أُمُورٍ غَرِيبَةٍ كَالْتِقَابَاتِ الْعُمَالِيَّةِ . فَهَلْ سَمِعْتَ مِثْلَ هَذَا أَلْفَوْ مِنْ قَبْلُ . »

أَجَابَهُ هَارْتِهَاؤُس : « أَعْتَقِدُ أَنَّ مَا تَقُولُهُ هُوَ عَيْنُ الصُّوَابِ يَا سَيِّدَ باونديري . »

قال السَّيِّدُ باونديري : « إِنِّي عِنْدَمَا أَتَعَامَلُ مَعَ أَيِّ شَخْصٍ أَوَدُّ دَائِمًا أَنْ أَفْهَمَهُ جَيِّدًا ، كَمَا أَوَدُّ أَنْ يَفْهَمَنِي بِدَوْرِهِ جَيِّدًا . وَلِهَذَا فَقَدْ قُلْتُ لَكَ كُلَّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، كَمَا أَنَّنِي مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى سَأَسَاعِدُكَ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِي ، وَنَمَّةً شَيْءٍ آخَرَ أَوَدُّ أَنْ أَضِيفَهُ لِمَا قُلْتُ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ أَيْضًا : فَأَنْتَ يَا سَيِّدِي تَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ لَهَا شَأْنُهَا ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ سِوَى بَعْضٍ مِنْ قَدَارَةِ الطَّرِيقِ ، تِلْكَ الْقَدَارَةُ الَّتِي أَغْرِفُهَا جَيِّدًا ؛ إِذْ إِنَّنِي قَدْ أَرَلْتُهَا عَنْ نَفْسِي بِجُهِودِي الْيَدَايَةِ . وَلِهَذَا فَإِنَّ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ لَا يَقِلُّ عَمَّا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ فَخْرٍ . وَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّنِي تَزَوَّجْتُ ابْنَةً ثَوَمَ غَرَاغْرَايْنِد . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يَشْغُلُكَ هَذَا الصَّبَاحَ ، فَأَرْجُو أَنْ تُرَافِقَنِي إِلَى بَيْتِي ؛ إِذْ يُسْعِدُنِي أَنْ أَقْدَمَكَ إِلَى ابْنَةِ غَرَاغْرَايْنِد . »

أَجَابَهُ جيم : « إِنَّ اقْتِرَاحَكَ هَذَا يُعَبِّرُ عَنْ أَغْرَ أُمِّيَّاتِي . »

بَعْدَ حَوَالٍ بِصُفِّ سَاعَةٍ اتَّفَقَى جيم هَارْتِهَاؤُس بِالسَّيِّدَةِ باونديري . وَكَانَ فِي الْفَلَاءِ مَا حَرَّكَ مَشَاعِرَهُ ، فَقَدْ وَجَدَ السَّيِّدَةَ باونديري هَادِئَةً الطَّبَاعِ بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا لَا تَكْثُرُ كَثِيرًا بِمَا يَدُورُ حَوْلَهَا ، وَلَكِنَّهَا أَخَذَتْ تُرَاقِبُ ضَيْفَهَا بِإِمْعَانٍ . وَوَجَدَهَا مُعْتَزَّةً بِنَفْسِهَا ، وَتَشْعُرُ بِالْحَجَلِ مِنْ نَصْرَفَاتِ زَوْجِهَا وَمَسَلِكِهِ الْفُظِّ .

لَمْ يَسْقِ لَجيم أَنْ اتَّفَقَى فِي حَيَاتِهِ بِسَيِّدَةٍ مِثْلَ لُويزَا . كَانَتْ جَمِيلَةً ، رَغَمَ أَنَّهَا كَانَتْ تُحَاوِلُ السَّبْطَرَةَ عَلَى نَظَرَاتِهَا . وَاسْتَشَفَّ أَيْضًا أَنَّهَا تَعْتَمِدُ تَمَامًا عَلَى نَفْسِهَا ، كَمَا اسْتَنْجَحَ أَيْضًا أَنَّهَا سَيِّدَةٌ لَا تَنَالُ مِنْهَا الشُّكُوكُ أَوْ الْآوْهَامُ ، مَا لَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعُو إِلَى الشُّكِّ . هَا هِيَ ذِي تَقِفٍ أَمَامَهُ وَلَكِنْ يَدُو أَنَّ هُنَاكَ مَا يَشْغُلُ

دخنها وأن أفكارها قد شردت وذهبت بها بعيدا . وأدرك أنه حتى تلك اللحظة
لم يفهمها فهما كاملا .

وعندما أجال بصره في العرقة لم يجد بها ما ينعكس لسمات المرأة أو ذوقها ،
ولم يجد في العرقة ما يبهج النفس أو يشعرها بالراحة ، أو يدل على ذكريات
سعيدة ، فقد كانت عرقة مترفة قبيحة وثقيلة على النفس . وبعد أن قدم باولديري
ضيقة إلى زوجته قال : « يبدو يا لو أنه سوف يكون لكونكناون عضوان بالبرلمان
هنا : والدك والسيد هارنهاوس الذي جاء ليدرس المنطقة . » وألقت إلى ضيقه
قائلا :

« إن زوجتي — كما ترى يا سيدي — أصغر مني سنا ، ولا أعرف لماذا قبلت
أن تتزوجني ، ولكن لا يد أنها وجدت سببا لذلك . فهي إلى جانب صغر سنها
لأنها إمامة كافيا بكل ما في العالم من حقائق ، فإن كنت ترغب في التعلم سريعا
فليس هناك معلم أرشح لك أفضل من لو باولديري . »

أجاب جيم : « إنني واثق بذلك . »

قال باولديري : « إنني لا أمتدح الناس عادة ، فأنا لم أتعلم هذه العادة . كما
أنتي لست من عليا القوم المهذبين يا سيد هارنهاوس ، فما أنا إلا جوشيا
باولديري من كونكناون ، وفي هذا ما يكفي . وأنا لا أهتم كثيرا بما للآخرين من
مكانة ، أو مظهر ، كما يفعل غيري من الناس . »

قال جيم وهو ينظر إلى لويزا متبسما : « إن السيد باولديري مخلوق نبيل الأصل
يعيش طليقا في بيته الطبيعية ، أما أنا فليست سوى كائن ضعيف ثم ثرويته . »



قالت لويزا بهدوء : « أراك تُبدي قدراً كبيراً من الإحترام للسيدة باونديري ،
وليس في هذا ما يدهشني . »

دهش جيم قليلاً لهذا التعليل ؛ لأنه لم يفهم ما تقصده لويزا جيداً . ولكنها
استطردت قائلة : « إنك ترمع بحذمة بذك ، وتأمل أن توفق في إيجاد الحلول
المناسبة لمشكلات هذا البلد . »

ضحك جيم قائلاً : « إنني لم أظاهر يا سيّدة باونديري بأنني أستطيع أن أجِد
الحلول ليلك المشكلات ؛ فقد شاهدت الكثير خلال أسفاري وتبين لي أنه ما
من شيء في هذه الحياة له قيمة تذكر ، أما عن دخولي البرلمان فإنني لن أدخله
إلا استجابة لآراء والدك ، وهي آراء سديدة مثل آراء الآخرين . »

سأله لويزا : « أليس لك رأي خاص في هذا الصدد يا سيّد هارثهاوس ؟ »

أجابها : « نعم ، ليس لي رأي في ذلك على الإطلاق ، فضلاً عن أننا إذا
ما نظرنا إلى أية مجموعة من الآراء لوجدناها لا تختلف كثيراً عن غيرها من
الآراء ؛ فعادة ما يكون لها جميعاً النفع نفسه أو الضرر نفسه . وهذا ما يذكّرني
بقول مأثور يردده الإبطاليون وهو : « إن المقدّر سيكون . » وهذه هي الحقيقة
الوحيدة ، فهل توافقتني على هذا الرأي ؟ »

ويبدو أن هذا التوع من النزاهة الزائفة والخطرة قد أعجب السيدة باونديري ؛
لذا واصل جيم حديثه بسرعة قائلاً : « إن الحقائق والأرقام مملوءة بالمتعة ، وهي
تتيح للإنسان أحسن الفرص . وأنا أستمع بها كثيراً ، ولا أومن بها ؛ ولهذا
سأدخل البرلمان من أجلها ، وما أظنني كنت أفعل شيئاً بخلاف ذلك حتى لو أنني

أصدقها أو أومن بها . »

قالت لويزا : « سوف تكون عضواً غير عادي من أعضاء البرلمان . »

قال : « هذا ليس صحيحاً على الإطلاق ؛ فحزب جميعاً لنا الأفكار نفسها
يا سيّدة باونديري . ولكن الكثيرين تنقصهم القدرة على أن يذكروا ذلك
صراحة . »

بدأ السيد باونديري ، أثناء هذه المناقشة ، وكأنه سينفجر ؛ فقد أحمر وجهه ،
وصار أشبه بكرة حمراء كبيرة ، وفجأة قاطعهما قائلاً : « عليك أن تقوم يا سيّد
هارثهاوس بزيارة بعض الشخصيات المهمة في المدينة ، وأنا على استعداد
لأصحبك الآن . وعليك بعد ذلك أن تتناول معنا العشاء الليلة . »

قام السيد هارثهاوس بهذه الزيارات ، وأجاد في حديثه مع تلك الشخصيات
التي زارها ، إلا أن العمل أزهقه . وعندما ذهب لتناول العشاء وجد المائدة قد
أعدت لأربعة أشخاص ، ولكن لم يجلس عليها سوى ثلاثة فقط . وأثناء العشاء
تحدث باونديري حديثه الذي يفخر فيه بأنه ولد في الشارع ، وأفرط في ذكر
العديد من التفاصيل عن طفولته مما أثعب جيم هارثهاوس حتى إنه فكر في
الذهاب مرة ثانية إلى الهند أو إلى مصر . رُيما استطاع أن يفعل ذلك ما لم تكن
لويزا تشغل تفكيره . وسأله جيم في نفسه : « هل هناك شيء في العالم من
الممكن أن يؤثّر فيها ؟ »

نعم لقد كان هناك شيء ما ؛ فقد فتح الباب ، ودخل ثوم . وما لبث أن تعيّر
وجه الفتاة بمجرد أن رآته ، وأرسمت على شفّتها ابتسامة جميلة ، ومدّت يدها

لَتَلْتَقِيَ أَصَابِعُهَا بِأَصَابِعِ ثَوْمٍ فِي قُوَّةٍ . وَقَالَ جِيمٌ فِي نَفْسِهِ : « آه ، هَذَا الْجَرُّ إِذَا هُوَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي تُجِبُهُ ؟ » وَثُمَّ اتَّعَارَفَ بِالْجَرِّ الَّذِي جَلَسَ إِلَى الْمَائِدَةِ مَعَهُمْ .

قَدْ لَا يَكُونُ الْجَرُّ أَسْمًا ظَرِيفًا وَلَكِنَّ ثَوْمَ كَانَ يَسْتَحِقُّهُ . وَقَالَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي مُخَاطِبًا ثَوْمَ : « لَقَدْ تَأَخَّرْتَ يَا ثَوْمُ الصَّغِيرُ ، فَلِمَذَا ؟ »

أَجَابَ ثَوْمَ : « لَقَدْ كَانَتْ أُمَامِي أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ لِأَنْجِزَهَا . إِنَّ تَأَخِيرِي لَا يَبْهَمُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَابَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي : « عَلَى الشَّبَابِ أَلَا يَتَأَخَّرُوا عَنْ مُوَعِدِ الطَّعَامِ . »

فَبَهِمَ جِيمٌ مُشْكِلَةً ذَلِكَ أَلَيْسَتْ ، وَقَالَ : « إِنَّ وَجْهَ أَخِيكَ يَا سَيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي مَالُوفٌ لِي . رَبِّمَا أَكُونُ قَدْ قَابَلْتُهُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَوْ فِي الشَّرْقِ ، رَبِّمَا ؟ »

أَجَابَتْ لَوِيْرَا : « لَا أَعْتَقِدُ ، فَلَقَدْ دَرَسَ هُنَا ، وَلَمْ يَتِمَسَّرْ لَهُ السَّفَرُ خَارِجَ إِنْجَلْتِرا بَعْدَ . ثُمَّ سَأَلْتُ ثَوْمَ : « هَلْ سَافَرْتَ يَا ثَوْمُ ؟ »

أَجَابَ الْأَخِيرُ : « لَا ، لَمْ يُسْعِدْنِي الْحَظُّ بِالسَّفَرِ يَا سَيِّدِي . »

لَقَدْ شَغَلَتْ السَّيِّدَةَ بَاوْنِدِرِي وَشَفِيقُهَا تَفْكِيرَ جِيمٍ طَوَالَ الْعِشَاءِ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي ثَوْمِ الصَّغِيرِ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيرَ ، فَقَدْ وَجَدَهُ قَطًّا فِي مَسْئَلَتِهِ ، بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ قَاسِيًا حَتَّى مَعَ شَفِيقَتِهِ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : « لَا بُدَّ أَنْ قَلْبُهَا يَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا الْجَرُّ يَسْتَحْوِذُ عَلَى كُلِّ حُبِّهَا . فَلَا بُدَّ إِذَا أَنَّهَا تَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ إِلَى أَقْصَى حَدٍّ . »

الفصل الثاني عشر

كَانَ جِيمِسُ هَارْتْهَاؤُسُ يَتَظَاهَرُ أَثَاءَ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ بِأَنَّهُ مُعْجَبٌ بِثَوْمِ الصَّغِيرِ ، وَأَخَذَ يَشْجَعُهُ عَلَى الْكَلَامِ . وَعِنْدَمَا حَانَ وَقْتُ انْتِصَافِ هَارْتْهَاؤُسِ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى التُّنْدُقِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِ ، فَعَرَضَ الْجَرُّ أَنْ يُرَافِقَهُ إِلَى هُنَاكَ .

عِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى التُّنْدُقِ ، جَلَسَ ثَوْمُ فَوْقَ أَحَدِ الْمَقَاعِدِ الطَّوِيلَةِ الْوُثِيرَةِ ، وَأَمَرَ لَهُ جِيمٌ بِشَرَابٍ ، ثُمَّ تَوَالَتْ الْأَشْرِبَةُ الَّتِي كَانَتْ كُلُّهَا مُنْعِشَةً قُوَّةً .



سأله ثوم : « هل أمضيت وقتنا كافيا الليلة مع باوندي العجوز ؟ »

أجابته جيم : « إنه شخص ممتاز . »

سأله ثوم : « هل تعتقد ذلك حقا ؟ »

أجابته جيم وقد علت شفطته ابتسامة تذل على عدم الاكتراث : « نعم ، وأخو
زوجتي مضحك للغاية ! »

علق ثوم قائلا : « لعلك تعني أن باوندي العجوز صهبر مضحك للغاية . »

قال جيم : « لا أظن أن هذا تعليق مناسب يا ثوم . »

كان ثوم يشعر بالرضا عن نفسه ، وأعجب بهارثاوس ، كما أعجب بملابسه
وبصويته ، وقد أحب أن يناديه باسم ثوم دون كلفة . وبصفة عامة شعر بأنها
أمسية رائعة .

استطرد ثوم قائلا : « إنني لم أشعر يوما بأنني أحب باوندي العجوز ،
ولا اعتقد أنني سأبدأ اليوم في أن أغير رأيي فيه وأحبه . »

فقال له جيم : « لا أظنك تبدي مثل هذا الرأي على مسمع من زوجتي ، أليس
كذلك ؟ »

أجاب ثوم : « أتعني شقيقتي ؟ آه ، بلى ! ثم رشف رشقة من شرابه وواصل
حديثه قائلا : « إن لو لا تحب باوندي العجوز هي الأخرى . »

قال جيم : « لا أظنك تعني ما تقول . »

قال ثوم : « بل أغنيه ثامنا . وهذا صحيح فهي لا تُجبه . »

قال جيم : « ولكنها تزوجته يا ثوم ، ويبدو أنهما يعيشان سعيدين . »

قال ثوم : « إنك تعرف والدي ، فليس من الغريبة في شيء أن تتزوج لو
باوندي العجوز ، خصوصا أنها لم تعرف غيره من الرجال طوال حياتها . وعندما
رشحه والدي للزواج بها قبلته . »

قال جيم : « أ هو أمثال الابنة الصالحة للواجب ؟ »

رد ثوم : « اعتقد أنه أمثال الأخت الصالحة للواجب . »

لم يعلق هارثاوس بعد ذلك بشيء ، ولكن الحزب استطرد قائلا : « لقد
افتعتها بأن تتزوج باوندي العجوز ، لأنني كنت قد دفعت للعمل معه في البنك ،
ولم أكن أود أن أعمل هناك . ومن ثم فلو رفضت الزواج به لسبب هذا لي العديد
من المتاعب ، ولما أوضحت لها ذلك الموقف قبلت أن تتزوجه . إنها تستعد
دائما بأن تفعل أي شيء من أجلي . ألا ترى هذا موقفا طيبا منها ؟ »

قال جيم : « نعم ، إنه موقف طيب للغاية . »

قال ثوم : « لم يكن الأمر يعني الكثير لها ، فلم يكن في حياتها رجل آخر .
وكان بيتنا أشبه بالسجن ، خصوصا بعد أن غادرته للعمل ، وكان علي في الوقت
ذاته أن أفكر في مستقبلتي وفي راحتي ، وقد كان ذلك موقفا طيبا منها عندما وضعت
ذلك في اعتبارها . »

قال جيم مؤيدا ، وهو يصب المزيد من الشراب في كأسيهما : « نعم ، إنه

كَذَلِكَ بِالتَّكْوِينِ ، وَهِيَ تَبْدُو سَعِيدَةً تَمَامًا . »

قَالَ تُوْم : « مِنْ الْمُمْكِنِ لِآيَةٍ فَتَاةٌ أَنْ تَجِدَ سَعَادَتَهَا أَيْتَمَا كَانَتْ ، أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ لَوْ لَيْسَتْ بِالْفَتَاةِ الْعَادِيَّةِ ، فَفِي اسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَنْطَوِي عَلَى نَفْسِهَا وَتَسْتَفْرِقَ فِي التَّفَكِيرِ لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ بِهَدْوٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُسَلِّيَ نَفْسَهَا . »

قَالَ تُوْم : « لَا ، لَا ، لَا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ مَلَأَ وَالِدِي عَقْلَهَا عَلَى طَرِيقَتِهِ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الْحَقَائِقِ الْجَافَةِ وَالْأَرْقَامِ الْمُرْهَقَةِ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ : « إِذَا صَاغَهَا عَلَى شَاكِلَتِهِ ؟ »

أَجَابَ تُوْم : « نَعَمْ ، كَمَا صَاغَ الْجَمِيعُ أَيْضًا بِمَنْ فِيهِمْ أَنَا نَفْسِي . »

قَالَ جِيم : « لَا يَا تُوْم ، إِنَّهُ لَمْ يَصْنَعْكَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ . »

قَالَ تُوْم : « لَا ، بَلْ إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ يَا سَيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ . فَقَدْ كُنْتُ غَايَةً فِي الْعَبَاءِ ، بَلْ كُنْتُ جِمَارًا عِنْدَمَا تَرَكْتُ الْبَيْتَ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْحَيَاةِ . »

قَالَ جِيم : « لَا شَكَّ أَنَّكَ تَمْرُجُ يَا تُوْم . إِنِّي لَا أَصْدُقُ ذَلِكَ . »

قَالَ تُوْم وَهُوَ يَرْتَفِفُ مِنْ كَأْسِيهِ : « هَذَا صَحِيحٌ . » ثُمَّ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى الْمَقْعَدِ قَائِلًا : « وَلَكِنِّي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ تَعَلَّمْتُ الْقَلِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِجَهْدِي الْخَاصِّ وَلَا فَضْلَ لِي وَالِدِي فِي ذَلِكَ . »

سَأَلَهُ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ : « وَمَاذَا عَنْ شَقِيقَتِكَ الذَّكِيَّةِ ؟ »

أَجَابَ تُوْم : « إِنَّ شَقِيقَتِي الذَّكِيَّةَ لَمْ تَتَّعِبْ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تُشْكِرُ إِلَيَّ حَالَهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهَا يَوْمًا تِلْكَ الْأَفْكَارُ الَّتِي تُرَاوِدُ الْفَتَاةَ الْعَادِيَّةَ . كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ فِي حَيَاتِهَا شَيْئًا عَنِ الْحُبِّ أَوْ الْحَيَاةِ . وَلَكِنَّ الْفَتَيَاتِ يَخْتَلِفْنَ عَنِ الرِّجَالِ ، فَهُنَّ لَا يَخْتَجِرْنَ الْكَثِيرَ . »

لَمْ يَقُلْ تُوْمُ الْمَزِيدَ ، بَلْ رَاحَ فِي النَّوْمِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى أَنْ رَكَلَهُ هَارْتِهَاؤُسُ قَائِلًا : « لَقَدْ تَأَخَّرَ بِنَا الْوَقْتُ ؛ فَأَنْهَضْ وَغُدِّ إِلَى مَنْزِلِكَ . »

قَالَ تُوْمُ وَهُوَ يَنْهَضُ وَاقِفًا : « لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَشْرَبَةُ جَيِّدَةً ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً بِدَرَجَةٍ كَافِيَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِي . »

قَالَ جِيم : « لَا ، لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً بِدَرَجَةٍ كَافِيَةٍ ! »

قَالَ تُوْمُ : « لَقَدْ كَانَتْ أَشْبَهَ بِأَلْمَاءِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْبَابُ ؟ طَابَتْ لَيْلَتُكَ . »

اصْطَلَحَ أَخَذَ الْخَدَمَ تُوْمُ إِلَى الشَّارِعِ ، وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَسِيرَ وَحْدَهُ حَتَّى مَنْزِلِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ .

لَسْتَمِعَ إِلَى مَا يَقُولُهُ سَتِيفِنَ بِلَا كُبُولَ ، فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ جَمِيعًا مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ سَتِيفِنَ مِنْ
سُعَةِ طَبِيبَةٍ ، كَمَا تَعْرِفُونَ أَيْضًا مُشْكِلَتَهُ . »

جَلَسَ رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ بَعْدَ أَنْ صَافَحَ سَتِيفِنَ ، كَمَا جَلَسَ أَيْضًا سِلَاكْبِرِيدَجُ ،
لِيَسْتَمِعَ الْجَمِيعُ إِلَى سَتِيفِنَ الَّذِي تَحَدَّثَ قَائِلًا :

« أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ، إِنِّي الْوَحِيدُ مِنْ بَيْنِ عُمَالٍ مُصَنِّعِ نَسِيجٍ بَاوُلْدِرَنِي الَّذِي
لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى الْتَقَايَةِ ، وَلَنْ أُنْضَمَ إِلَيْهَا مُسْتَقْبَلًا . هَذِهِ التَّقَايَةُ لَا تُسَاعِدُنِي ،
وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَتُوفُ تُسَاعِدُكُمْ يَوْمًا . كَمَا أَنَّ لَدَيَّ سَبَبًا خَاصًّا يَمْنَعُنِي مِنْ
الْإِضْمَامِ إِلَيْهَا ، وَهَذَا سِرٌّ لَنْ أُبَوِّحَ بِهِ لِأَحَدٍ ، وَهُوَ سَبَبٌ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنْ
الْأَهَمِّيَّةِ بِالنَّسْبَةِ لِي . »

فَقَرَّ سِلَاكْبِرِيدَجُ مِنْ مَكَانِهِ صَائِحًا : « إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ سَتُوفُ يُدْمِرُكُمْ أَنْتُمْ
وَأَبْنَاءَكُمْ وَأَخْفَادَكُمْ . »

رَدَّ سَتِيفِنَ قَائِلًا : « إِنَّ السَّيِّدَ سِلَاكْبِرِيدَجَ خَطِيبٌ ، مِهْنَتُهُ الْخَطَابَةُ ، وَيُدْفَعُ
لَهُ أَجْرٌ غَنِيًّا ؛ فَلْيُوَدِّ عَمَلَهُ ، وَسَأُوَدِّي أَنَا عَمَلِي . وَهُوَ مِنْ نَاجِيَةِ أُخْرَى يَجْهَلُ
مَا بِخِيَايَ مِنْ الْعَرِ ، وَتِلْكَ هِيَ مُشْكِلَتِي وَخُذِي . »

فَصَاحَ أَخَذَ الْحَاضِرِينَ قَائِلًا : « اجْلِسْ يَا سِلَاكْبِرِيدَجُ وَأَعْطِ الرَّجُلَ فُرْصَتَهُ
لِيَتَحَدَّثَ . »

وَاصَلَ سَتِيفِنَ حَدِيثَهُ : « زُمَلَائِي الْعُمَالُ ! إِنِّي أَعْرِفُ مَا سَيَحْدُثُ لِي عِنْدَمَا
لَا أُنْضَمُ إِلَى الْتَقَايَةِ . سَتُرْفُضُونَ جَمِيعًا صِدَاقَتِي ، وَغَلَيَّ أَنْ أُتْقَبَلَ ذَلِكَ . »

قَالَ رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ : « فَلْتَفَكَّرْ مَرَّةً أُخْرَى يَا قَتِي قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . »

الفصل الثالث عشر

أَلْفَ عُمَالٍ النَّسِيجِ فِي كُرْكُتَاوَنَ بَقَايَةَ لِلْعُمَالِ ، بِقِيَادَةِ رَجُلٍ يُدْعَى
سِلَاكْبِرِيدَجَ ، وَلَمْ يَكُنْ وَاحِدًا مِنَ الْعُمَالِ بَلْ كَانَ خَطِيبًا . وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْصُلَ
عُمَالُ النَّسِيجِ عَلَى أَجُورٍ أَعْلَى ، وَأَنْ تَتَوَافَرَ لَهُمْ ظُرُوفُ عَمَلٍ أَفْضَلِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سِلَاكْبِرِيدَجَ لَمْ يَكُنْ عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَدْلِ أَوْ
الْأَمَانَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحُلْ دُونَ اتِّفَاقِ الْعُمَالِ مَعَهُ ، وَأَنْضَمَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْتَقَايَةِ ،
بِاسْتِثْنَاءِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْفَعُوا بِضْعَةَ بَنَسَاتٍ أُسْبُوعِيًّا لِسِلَاكْبِرِيدَجِ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اجْتَمَعَ الْعُمَالُ كُلُّهُمْ فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَرَأْسُ الْإِجْتِمَاعِ أَكْبَرُ الْعُمَالِ
سِينَا ، وَتَحَدَّثَ فِي الْإِجْتِمَاعِ سِلَاكْبِرِيدَجُ مُمْتَدِّحًا التَّقَايَةَ ، وَأَسَاءَ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ
الَّذِي رَفَضَ الْإِضْمَامَ إِلَيْهِمْ ، فَارْتَفَعَ صَوْتُ مِنْ بَيْنِ الْحَاضِرِينَ قَائِلًا :

« مَنْ هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ لَوْ كَانَ الْيَوْمَ مُوجُودًا بَيْنَنَا فِدَعْنَهُ يَتَكَلَّمُ ! » وَارْتَفَعَتْ
صَوِّحَاتُ أُخْرَى تُطَالِبُ ذَلِكَ الشَّخْصَ بِأَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ، وَطَالَبُوا بِأَنْ تُنَاحَ لَهُ
فُرْصَةُ الْحَدِيثِ ؛ فَصَعِدَ رَجُلٌ إِلَى الْمِنْصَةِ ، وَكَانَتْ تَبْدُو عَلَى مَلَاحِظِهِ أُمَارَاتُ
الْأَمَانَةِ وَالْإِحْلَاصِ ، وَدَلَائِلُ الْإِرْهَاقِ وَكِبَرِ السَّنَى . وَإِثْرُ صُعُودِهِ إِلَى الْمِنْصَةِ قَالَ
رَئِيسُ الْإِجْتِمَاعِ :

« يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ سِلَاكْبِرِيدَجِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَبَادِئِ الْعَدَالَةِ ، وَأَنْ يَجْلِسَ حَتَّى

أجاب ستيفن : « لقد فكرت كثيرا يا سيدي ، فوجدت أنني بكل بساطة لا أستطيع أن أنضم إلى هذه القافية . »

لم يكن ستيفن غاضبا من هؤلاء الرجال ، بل كان يعرفهم معرفة جيدة وهم يعرفونه كذلك ، فاستمر في حديثه قائلا : « إن كل ما عليّ هو أن أبشّر عملي وأخدي وسنطحكم ، وأرجو أن تسمحوا لي بذلك . فيجب يا أصدقائي أن أعمل في كوتناون حتى أعيش ، وهذا ما كنت أفعله طوال حياتي ، بل ومثل طفولتي ، وإلا فأين عساي أن أذهب الآن ؟ »

حجم الصمت على المكان ، فترك ستيفن المنصة وأفسح له الرجال الطريق ، ومشى بينهم دون أن ينظر إلى أي منهم حتى خرج من باب القافية .

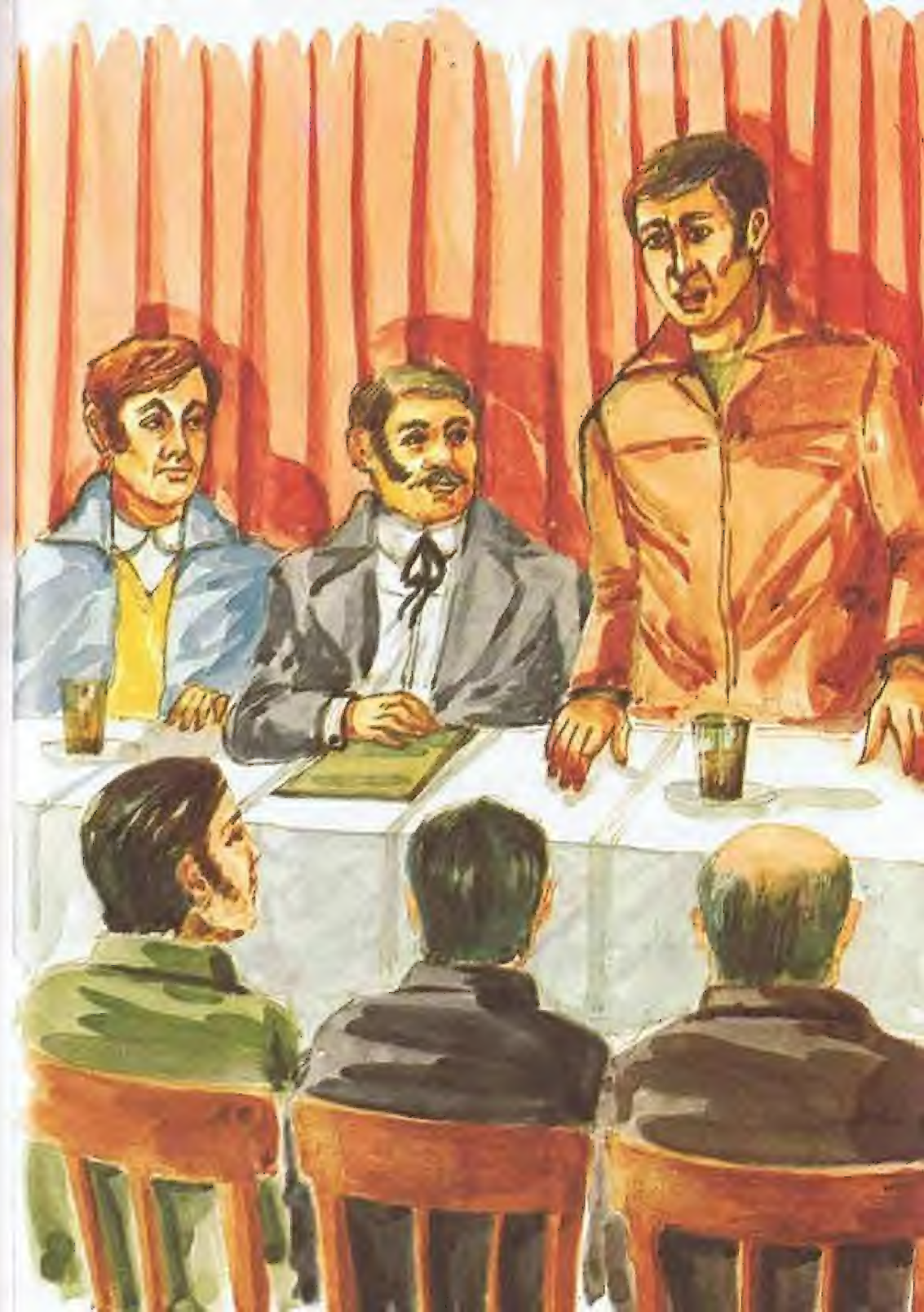
صاح سلاكيريدج مخاطبا العمال : « لا مكان بيتنا لشرير ! فقوموا بواجبكم يا عمال كوتناون ! ولننتهي الآن ثلاث مرات من أجل القافية . »

هتف الخطيب الهتاف الأول وخده ، أما الهتاف الثاني فقد رددته معه عشرون شخصا ، ثم ردد الجميع الهتاف الثالث .

استمت حياة ستيفن بعد ذلك بالوحدة ، فكان كلما سار في الشارع أو في مصنع النسيج لم ينظر إليه أو يتأوله الحديث أحد ، حتى النساء اللاتي كان يعمل معهن ألترمن الصمت .

كان ستيفن دائما شخصا هادئا ، وأصبح الآن يشعر بالوحدة التامة ، ولم يعد يرى راشيل ، بل حرص على ألا يتحدث عنها .

مرت الأيام التالية على ذلك الاجتماع بطيئة متأنقة ، وفي الليلة الرابعة عندما



غَادَرَ سَتِيفِنَ الْمَصْنَعَ فِي مَوْعِدِهِ الْمَعْتَادِ اسْتَوْفَقَهُ فِي الشَّارِعِ شَابٌّ ذُو شَعْرِ فَاتِحِ
الَّلَوْنِ ، وَكَانَ هَذَا الشَّخْصُ هُوَ بِيْتَزِرُ الَّذِي سَأَلَهُ : « أَلَسْتُ أَنْتَ بِلَاكِيُول ؟ »
رَدَّ سَتِيفِنُ : « بَلَى . » وَقَدْ اسْتَعَدَّ أَنْ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ صَوْتُ رَجُلٍ يُحَدِّثُهُ ؛
فَرَفَعَ قُبْعَتَهُ بِالنَّحِيَّةِ .

« يُرِيدُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي أَنْ يَرَاكَ ، فَهَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ يُقِيمُ ؟ »

فَلَمَّا رَدَّ بِالْإِجَابِ قَالَ لَهُ الشَّابُّ : « إِذَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ فَهُوَ يَنْتَظِرُكَ
هُنَاكَ . »

عِنْدَمَا ذَهَبَ بِلَاكِيُول إِلَى بَاوْنِدِرِي سَأَلَهُ الْأَخِيرُ بِصَوْتٍ عَالٍ : « حَسَنًا
يَا سَتِيفِنُ ، مَاذَا فَعَلَ بِكَ مُهْرَجُو كُوكْتَاوَن ؟ »

كَانَ سَتِيفِنُ يَقِفُ أَمَامَهُ وَقَدْ أُنْسِكَ بِقُبْعَتِهِ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَشْخَاصِ
الْأَرْبَعَةِ الْمَوْجُودِينَ فِي الْغُرْفَةِ يَتَنَاوَلُونَ الشَّايَ ، وَهُمْ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَزَوْجَتُهُ
وَشَقِيقُهَا ، وَضَيْفُهُمُ الْقَادِمُ مِنْ لَنْدَن . وَاسْتَحْتَتْهُ بَاوْنِدِرِي لِجَبِينِهِ عَنْ سُؤَالِهِ قَائِلًا :
« تَكَلِّمْ آلَانَ ، فَإِنَّا أَنْتَظِرُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ جَوَابًا . »

وَلَمَّا كَانَ سَتِيفِنُ قَدْ عَاشَ فِي صَمْتٍ طَوَالَ الْأَيَّامِ الْأَرْبَعَةِ السَّابِقَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ
يَشْعُرْ بِأَرْتِيَاحٍ لِسَمَاعِهِ صَوْتُ بَاوْنِدِرِي الْأَحْشَى ، وَلَكِنَّهُ أَجَابَ قَائِلًا : « لَقَدْ نَقَلَ
ذَلِكَ الشَّابُّ رِسَالَتَكَ يَا سَيِّدِي ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ تَرْعُبُ فِي مُقَابَلَتِي . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « حَدَّثَنِي عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ بِقَايَةِ الْعَمَالِ . »

أَجَابَهُ سَتِيفِنُ : « آسِفٌ يَا سَيِّدِي ، لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقُولُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ . »

إِرْتَفَعَتْ أَنْفَاسُ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي حَتَّى صَارَتْ أَشْبَهَ بِرِيحٍ قَوِيَّةٍ ، وَوَجَّهَ حَدِيثَهُ
إِلَى هَارْتِهَآوَسَ قَائِلًا : « هَلْ سَمِعْتَ مَا قَالَ يَا هَارْتِهَآوَسَ ؟ إِنَّ هَذَا وَاحِدٌ مِنْ
عُمَالِي . وَكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أُعْتَقِدُ أَنَّهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَى أَنْ يَنْحَرِفَ وَيُزْدَادَ سُوءًا فَحَدَّرْتُهُ ،
وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا فَعَلْتُهُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى ، فَهَا هُوَ ذَا يُخْشَى أَنْ يَنْطَلِقَ بِكَلِمَةٍ
وَاحِدَةٍ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « إِنِّي لَا أَخْشَى شَيْئًا يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدِي مَا أَقُولُهُ
لَكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّ هَذَا لِأَمْرٍ مُضْجِكَ يَا سَتِيفِنُ . هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّي سَأُصَدِّقُ
أَنْ سَلَكَ بِيْدِجَ لَا يُبِيرُ الْمَتَاعِبَ هُنَا ؟ »

أَجَابَهُ سَتِيفِنُ : « غَفَوَا يَا سَيِّدِي ، لَكِنْ إِذَا مَا قَسَدَ الْقَادَةُ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَعِيبُ
النَّاسَ . كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ قَادَةً أَفْضَلَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي مُوجِّهًا حَدِيثَهُ إِلَى هَارْتِهَآوَسَ : « أَنْصَبْتُ يَا هَارْتِهَآوَسَ لِمَا يُقَالُ ،
وَبِذَلِكَ سَوْفَ تَتَعَرَّفُ إِلَى بَعْضِ مُشْكِلاتِنَا . » ثُمَّ تَنَهَّدَ فِي عُمُقٍ قَائِلًا : « قُلْ لِي
يَا سَتِيفِنُ ، لِمَاذَا رَفَضْتَ أَنْ تُنْضَمَ إِلَى تِلْكَ التَّقَايَةِ ؟ »

أَجَابَ سَتِيفِنُ : « لَقَدْ كُنْتُ أَفْضَلُ أَلَا أَقُولُ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ . أَمَا وَقَدْ سَأَلْتَنِي
فَإِنِّي سَأُجِيبُكَ . لَقَدْ وَعَدْتُ بِذَلِكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَكِنَّكَ لَمْ تُعِدْنِي بِشَيْءٍ . »

قَالَ سَتِيفِنُ : « لَا يَا سَيِّدِي . لَمْ يَكُنْ وَعْدِي لَكَ . »

قال باونديري بحيرة : « بطبيعة الحال ، لم يكن غذك لي ، فهؤلاء الرجال لا يشغلهم أمرى على الإطلاق . » لكن ستيفن استدار فجأة ووجه حديثه إلى السيدة باونديري قائلاً : « لا يا سيدي ! إن هؤلاء الرجال ليسوا بمهرجين أو لصوص ، وإن كنت أدرك أنهم لم يحسنوا معاملتي ، ولكنهم يعتقدون أنهم أدوا واجبهم . وتلك هي الحقيقة ، فانا أعرف هؤلاء الرجال معرفة جيدة ، فقد عشت بينهم طوال حياتي ، ويجب علي أن ألتزم بالحقيقة كلما تكلمت عنهم . فهم في الواقع رجال أمناء ومخلصون ، مهذبون صادقون ، تمتلئ قلوبهم بمشاعر العطف والمحبة . »

ضحك باونديري ضحكة عالية وقال : « ولكنهم لا يحبونك يا ستيفن ! »

استمر ستيفن في مخاطبته السيدة باونديري قائلاً : « إنهم يحبون زملائهم يا سيدي ، وأنا واحد من زملائهم . إن بعض ما يتصفون به من صفات طيبة ، كالشرف والإحساس بالواجب من شأنه أن يثير بعض المتعجب ، أو يسبب بعض الأخطار . ورغم حرصهم على الالتزام بجانب الصواب فهناك أخطاء تقع أحياناً ولا قبل لهم بها . »

عندئذ بدأ باونديري يشعر بالضيق والغضب إزاء تلك المناقشة التي ليست من شؤون زوجته ، فقال لستيفن : « استمع لما سأقول يا ستيفن . إن هذا السيد — وأشار إلى هاريسهاوس — عضو في البرلمان ، وقد جاء من لندن ، ويود أن يعرف الحقائق . والآن أخبرني ما هي شكواك ؟ »

أجاب ستيفن : « إنني لا أشكو شيئاً ، وقد جئت هنا لأنك تريد أن تتحدث إلي . »

سأله باونديري : « حسناً ومن يشكو العمال ؟ »

أجاب ستيفن : « أنا لست متحدثاً ليقاً ، ولكنني أعرف الكثير عن مشكلاتهم ، فنحن نعيش في مدينة بالغة الثراء ، وبالغة الفقر في الوقت نفسه . فالآلاف من العمال يعملون في المصانع ، ويؤدون جميعهم العمل نفسه الذي التحقوا به منذ صباهم ، ولن يكفوا عن أدائه حتى يموتوا . ولكن أنظر يا سيدي إلى بيوتنا : إنها بيوت صغيرة مظلمة مكتظ بسكانها ، ولا بارقة أمل تبشر بحياة أفضل ، اللهم إلا الراحة الأبدية التي تأتي في النهاية . إنك تكذب عتاً يا سيدي كما تحدثت في البرلمان عن أمورنا ، ولا شك أنك دائماً منجق فيما تقوله ، ونحن دائماً مُحطون . إن حياتنا يا سيدي ما هي إلا ضرب من التخبط ، التخبط الهائل . »

سأله باونديري : « وكيف يمكنك أن تصحح هذا التخبط ؟ »

أجاب ستيفن : « إنني لا أستطيع أن أجد حلاً لهذا ، أليس هذا من صميم واجبات قادتنا هنا ، وهناك في البرلمان ؟ »

قال باونديري : « إنني أعرف ذلك . وسوف نقبض على كل هؤلاء الرجال من أمثال سلاكيريديج ، ونلقي بهم في السجن . »

هز ستيفن رأسه وقال : « إن هذا لن يغير من الأمر شيئاً يا سيدي . لقد عشنا وسط هذا التخبط قبل أن يظهر سلاكيريديج . ثم نظر إلى ساعة معلقة على الحائط واستطرد قائلاً « إنك يا سيدي لن تستطيع أن توقف مسيرة الزمن إذا وضعت هذه الساعة في السجن . »

نَظَرَتِ السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي إِلَى سَتِيفِنَ نَظَرَةً سَرِيعَةً ، ثُمَّ أَشَارَتْ بِنَظَرِهَا نَحْوَ
الْبَابِ فَفَهِمَ سَتِيفِنَ مَا تُعْنِيهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مِقْبَضِ الْبَابِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يُدْرِكُ
أَيْضًا أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُدَافِعَ عَنِ شَرَفِ قَوْمِهِ . وَنَظَرَ إِلَى السَّيِّدِ هَارْتِهَاؤُسَ وَقَالَ :

« أَنَا لَسْتُ رَجُلًا مُتَعَلِّمًا يَا سَيِّدِي ، وَلَا أَعْرِفُ سَبِيلًا لِيُوضَعَ حَدٌّ لِهَذَا
التَّخَبُّطِ . وَلَكِنِّي أَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُضَعَ حَدًّا لَهَا . وَلَيْسَ بِمَقْدُورٍ
يَدٍ وَاحِدَةٍ — مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهَا — أَنْ تُضَعَ حَدًّا لِذَلِكَ التَّخَبُّطِ ، كَمَا أَنَّ السَّلَاسِيَّةَ
لَنْ تُنْهِيَهُ . وَإِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ طَرَفًا مِنَ الْأَطْرَافِ عَلَى صَوَابٍ دَائِمًا ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
الطَّرَفُ الْآخَرُ مُخْطِئًا دَائِمًا ، وَلَنْ يُسَاعِدَ ذَلِكَ عَلَى إِنْهَاءِ هَذَا الْوَضْعِ . فَهَنَّاكَ
يَا سَيِّدِي عَالَمَ أَسْوَدَ وَأَجْوَفَ يَفْصِلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَاتِّفَاصُهُمَا عَلَى ذَلِكَ التَّخَوُّفِ
لَا يَضَعُ حَدًّا لِيُنْكَرَ الْمَشْكِلَةُ . فَتَحْنُ جَمِيعًا رِجَالًا وَنِسَاءً لَسْنَا آلَاتٍ أَوْ شُخُوصًا
لَا حَيَاةَ فِيهَا ، بَلْ إِنَّا بَشَرٌ لَنَا قُلُوبُنَا ، وَنُحِبُّ وَنُتَمَنَّى ، وَلَنَا مَخَافُنَا وَذِكْرِيَانَا ،
مِثْلُ مَا لَكُمْ تَمَامًا . »

فَتَحَ سَتِيفِنَ الْبَابَ وَانْتَظَرَ ، فَقَالَ بَاوْنِدِرِي وَقَدْ أَحْمَرَّ وَجْهُهُ أَحْمَرًا شَدِيدًا :
« آه ، إِنَّمَا يَلُكُ الذَّهَبُ الْمَلْعَنَةُ دَهَبِيَّةً مَرَّةً أُخْرَى يَا بَلَاكُوبُل . فَأَنْتُمْ دَائِمُو الشُّكُوى ،
حَتَّى لَقَدْ صَارَتْ الشُّكُوى هِيَ كُلُّ حَيَاتِكُمْ . »

هَزَّ سَتِيفِنَ رَأْسَهُ وَقَالَ : « مَا أَنَا إِلَّا نَسَاجٌ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّكَ تُبِيرُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِيبِ ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ بِكَ النِّقَابَةُ
نَفْسُهَا . إِنَّمَا مَا كُنْتُ أَظُنُّ يَوْمًا أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ عَلَى صَوَابٍ ، وَلَكِنِّي اتَّفَقْتُ مَعَهُمْ
الآنَ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، فَقَدْ ضَيَّقْتُ أَنَا أَيْضًا بِكَ . »

تَطَلَّعَ سَتِيفِنَ بِسُرْعَةٍ إِلَى وَجْهِ بَاوْنِدِرِي ، وَلَكِنَّهُ الْأَخِيرُ قَالَ : « بَعْدَ أَنْ تُحْصَلَ
عَلَى أَجْرِكَ فِي نِهَايَةِ هَذَا الْأُسْبُوعِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِكَ مَكَانًا آخَرَ تَذْهَبُ
إِلَيْهِ . »

أَجَابَهُ سَتِيفِنَ : « وَلَكِنْ يَا سَيِّدِي إِنْ لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أُحْصَلَ عَلَى عَمَلٍ مَعَكَ ،
فَلَنْ أُحْصَلَ عَلَى عَمَلٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ . أَنْتَ تَعْرِفُ هَذَا يَا سَيِّدِي ! »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « هَذِهِ مُشْكِلَتُكَ الْخَاصَّةُ . »

نَظَرَ سَتِيفِنَ إِلَى السَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرِي ، وَلَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَاسْتَدَارَ وَغَادَرَ الْغُرْفَةَ .

الفصل الرابع عشر

كَانَ الظَّلَامُ قَدْ بَدَأَ يُحْكِمُ عَلَى الْمَدِينَةِ عِنْدَمَا غَادَرَ سَتِيفِن مَنَزِلَ بَاوْنِدِرِي . وَفِي الشَّارِعِ كَانَتْ ثَمَّةُ مُفَاجَأَةٍ ، بَلْ مُفَاجَأَتَانِ فِي آنِظَارِهِ ، فَقَدِ اتَّقَى بِتِلْكَ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي قَابَلَهَا مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ عَامٍ . وَهَا هُوَ يَلْتَقِي بِهَا مَرَّةً أُخْرَى . أَمَّا الْمُفَاجَأَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ وُجُودُ رَاشِيلَ مَعَهَا .

قَالَ : « آه يَا عَزِيزِي رَاشِيلُ ! أَأَنْتِ مَعَهَا يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْهُ الْعَجُوزُ قَائِلَةً : « نَعَمْ إِنِّي مَعَهَا ، وَقَدْ اتَّقَيْتُ بِهَا لَتَوَي . وَكُنْتُ أَرْقُبُ مَنَزِلَ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي مُنْذُ الصَّبَاحِ . وَقَدْ سَمِعْتُ بِنِّبَا زَوَاجِهِ الْعَامَ الْمَاضِي ، وَكُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَرَى زَوْجَتَهُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُغَادِرِ الْمَنَزِلَ قَطُّ . وَقَدْ اتَّقَيْتُ بِهَذِهِ الشَّابَّةِ مُنْذُ عَشْرِ ذُقَاتٍ ، وَتَبَادَلْنَا الْحَدِيثَ . »

عَاوَدَ سَتِيفِن الْإِحْسَاسُ بِأَنَّهُ لَا يُجِبُّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ ، وَخُصُوصًا أَنَّهَا كَانَتْ تُسَمَّى بِالْبَسَاطَةِ وَالصِّدْقِ ، فَقَالَ لَهَا بِطَرِيقَتِهِ الرَّقِيقَةِ الْمُعْتَادَةِ : « حَسَنًا يَا سَيِّدَتِي . لَقَدْ اتَّقَيْتُ بِالسَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرِي ، وَهِيَ شَابَّةٌ جَمِيلَةٌ ، وَلَهَا عَيْنَانِ تَمْتَلِحَانِ بِالْفِكْرِ ، وَهِيَ هَادِئَةٌ الطَّبَعِ . »

قَالَتْ الْعَجُوزُ : « شَابَّةٌ وَجَمِيلَةٌ أَجَلُ ! وَسَعِيدَةٌ ؟ »

قَالَ سَتِيفِن مُتَرَدِّدًا : « فِيمَا أَحْسَبُ يَا سَيِّدَتِي . »

سَأَلَتْهُ الْمَرْأَةُ : « فِيمَا تَحْسَبُ ؟ لَا بُدَّ أَنَّهَا سَعِيدَةٌ . إِنَّهَا زَوْجَةُ رَئِيسِكُمْ . »

نَظَرَ سَتِيفِن إِلَى رَاشِيلَ وَقَالَ : « لَنْ يَكُونَ رَئِيسِي بَعْدَ هَذَا الْأُسْبُوعِ . »

سَأَلَتْهُ رَاشِيلُ فِي قَلْبِهَا : « هَلْ سَتَتْرَكَ الْمَصْنَعِ يَا سَتِيفِن ؟ »

أَجَابَهَا : « يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُتْرَكَهُ . فَهَذَا أَفْضَلُ شَيْءٍ لِي وَلِلْعَمَالِ الْآخَرِينَ . كَمَا يَجِبُ أَنْ أُغَادِرَ كُوكْتَاوَنَ ، وَأُبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ . »

سَأَلَتْهُ : « أَيْنَ سَتَذْهَبُ يَا سَتِيفِن . »

أَجَابَهَا : « لَا أَعْلَمُ إِلَّا الآنَ ، وَلَكِنِّي سَأَجِدُ مَكَانًا آخَرَ . »

كَانَ سَتِيفِن يَكْرَهُ أَنْ يَتْرَكَ رَاشِيلَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ أَجْدَى لَهَا . فَلَنْ يَجِدَ الْعَمَالُ مَبْرَرًا لِلْعُصَبِ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يَذْهَبَ ، فَقَالَ لَهَا : « إِنِّي أَشْعُرُ بِأَنْ يُقَالَا قَدْ آتَرَاحَ عَنْ صَدْرِي . »

إِنْتَسَمَتْ لَهُ رَاشِيلُ آتِسَامَةً وَدُودًا ، وَمَشَى الثَّلَاثَةَ مَعًا .

سَأَلَ سَتِيفِن السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ : « هَلْ سَتَقْضِي لَيْلَتَكَ فِي كُوكْتَاوَنَ يَا سَيِّدَتِي ؟ »

أَجَابَتْهُ : « نَعَمْ ، فِي ذَلِكَ الْفُنْدُقِ الصَّغِيرِ الْقَرِيبِ مِنَ الْمَحْطَةِ ؛ لِأَنِّي سَأَسَافِرُ غَدًا عَائِدَةً إِلَى بَيْتِي . »

قَالَ لَهَا سَتِيفِن : « تَفْضُلِي فِي بَيْتِي يَا سَيِّدَتِي وَتَنَاوَلِي الشَّاي ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَتَأْتِي رَاشِيلُ أَيْضًا ، وَسَأُرَافِقُكَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْفُنْدُقِ . رُبَّمَا يَنْقُضِي وَقْتُ طَوِيلٍ يَا رَاشِيلَ قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِيَ مَرَّةً أُخْرَى . »

قَبِلَا دَعْوَتَهُ ، وَسَارَ ثَلَاثُهُمْ حَتَّى ذَلِكَ الشَّارِعِ الضَّيِّقِ حَيْثُ يُقِيمُ سَتِيفِن .
وَهُنَاكَ نَظَرَ سَتِيفِن فِي خَوْفٍ إِلَى أَعْلَى ، فَوَجَدَ نَافِذَةً غُرْفَتِهِ مَفْتُوحَةً كَمَا تَرَكَهَا
فِي الصَّبَاحِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي الْغُرْفَةِ أَحَدًا بَعْدَ أَنْ هَرَبَتْ زَوْجَتُهُ مِنْذُ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ
وَتَرَكَتْ أَلْيَتَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَتْ . وَكَانَ عَلَى سَتِيفِن أَنْ يَشْتَرِيَ اثْنَا
جَدِيدًا لِيَقْرَسَ بِهِ غُرْفَتَهُ .

بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا أَشْعَلَ سَتِيفِن الْمَصْبَاحَ ، وَتَوَلَّى رَاشِيلَ تَقْطِيعَ الْخُبْزِ وَالزُّبْدِ
وَأَعْدَادَ أَشْيَايَ . وَتَمَتَّعَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ بِالْوَجِبَةِ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا ، وَبَدَتْ عَلَيْهَا
السَّعَادَةُ . وَسَأَلَهَا سَتِيفِن : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ اسْمَكَ بَعْدَ يَا سَيِّدَتِي ، فَمَا
اسْمُكَ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « اسْمِي السَّيِّدَةُ بَغْلَرُ ، وَقَدْ تَوَفَّى زَوْجِي مِنْذُ سَنَوَاتٍ ، وَكَانَ رَجُلًا
طَيِّبًا لِلْغَايَةِ . »

سَأَلَهَا : « إِنِّي آسِيفُ . هَلْ لَدَيْكَ أَوْلَادٌ ؟ »

إِفْتَرَزَ كَوْبُ أَشْيَايَ فِي يَدِ السَّيِّدَةِ بَغْلَرُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا السُّؤَالِ ، وَلَكِنَّهَا
أَجَابَتْهُ : « لَا ، لَمْ يَعُدْ لِي إِلَّا أَوْلَادٌ ! »

هَمَسَتْ رَاشِيلُ إِلَى سَتِيفِن قَائِلَةً : « لَقَدْ مَاتُوا . »

قَالَ سَتِيفِن : « آسِيفُ يَا سَيِّدَتِي لِتَوْجِئِي هَذَا السُّؤَالَ . كَمْ أَلُومٌ نَفْسِي
لَأَنِّي ... »

قَاطَعَتْهُ الْعَجُوزُ قَائِلَةً : « لَقَدْ كَانَ لِي آيَنٌ ، وَكَانَ جَادًا فِي عَمَلِهِ وَنَاجِحًا كُلَّ

الْجَاحِ ، وَلَكِنِّي أَفْضَلُ أَلَا أَتَكَلَّمَ عَنْهُ . إِنَّهُ ... » ثُمَّ وَضَعَتْ كَوْبَهَا وَقَالَتْ :
« لَقَدْ فَقَدْتُهُ . »

فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ سَمِعَ الْجَمِيعُ ضَوْضَاءَ عَلَى السَّلَمِ ، ثُمَّ سَمِعُوا صَوْتَ سَيِّدَةِ
تُنَادِي سَتِيفِن . وَكَانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ هِيَ صَاحِبَةُ الْمَتَجَرِّ بِالطَّابِقِ السُّفْلِيِّ مِنْ
أَلْيَتَيْهِ . وَخَرَجَ سَتِيفِن إِلَيْهَا ، وَتَحَدَّثَا مَعًا . وَتَنَاهَى إِلَى آذَانِ رَاشِيلَ وَالسَّيِّدَةِ
بَغْلَرُ اسْمَ رَدْدَتِهِ السَّيِّدَةِ بَغْلَرُ بِصَوْتٍ خَافَتْ قَائِلَةً : « بَاوْنِيدِرِي ! يَجِبُ أَنْ أُخْتَفِيَ
عَنْهُ ! » ثُمَّ هَبَّتْ وَاقْفَتْ وَهِيَ تَقُولُ : « أَرْجُوكُمْ ، لَا تَجْعَلُوهُ يَرَانِي . »

تَعَجَّبَ سَتِيفِن وَسَأَلَهَا فِي ذَهْشَةٍ : « مَا الْأَمْرُ يَا سَيِّدَتِي ؟ إِنَّهُ لَيْسَ السَّيِّدُ
بَاوْنِيدِرِي ، إِنَّهَا زَوْجَتُهُ ، وَلَا أَظُنُّكَ تَخَافِينَ مِنْهَا ، فَقَدْ ذَكَرْتَ مِنْذُ سَاعَةٍ أَنَّكَ
تَعْتَقِدِينَ أَنَّهَا أَمْرَأَةٌ رَائِعَةٌ . »

سَأَلَتْهُ وَهِيَ لَا تَزَالُ تَرْتَجِفُ : « هَلْ هِيَ حَقًّا السَّيِّدَةُ بَاوْنِيدِرِي ؟ أَوَإِنَّكَ أَنْتَ
بِذَلِكَ ؟ »

أَجَابَهَا : « تَمَامَ الْثَقَةِ . »

فَقَالَتْ : « سَأَلْتُكَ مَكَانِي فِي هَذَا الزُّكْنِ مِنَ الْغُرْفَةِ ، وَأَرْجُوكَ أَلَّا تَتَحَدَّثَ
إِلَيَّ . »

حَمَلَ سَتِيفِن الْمَصْبَاحَ وَنَزَلَ السَّلَمَ ، ثُمَّ عَادَ وَمَعَهُ لُوِيْزَا يَتَّبِعُهَا الْجَرُّو شَقِيقُهَا ،
ثُمَّ دَخَلُوا جَمِيعًا الْغُرْفَةَ .

كَانَتْ تِلْكَ أَوَّلُ زِيَارَةٍ تَقُومُ بِهَا لُوِيْزَا إِلَى مَسْكَنِ أُمِّي مِنَ الْعُمَالِ فِي كُوْكُنَاوَن .

لَقَدْ كَانَتْ تُعْرِفُ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَقَائِقِ عَنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَعَنْ عَمَلِهِمْ ، وَلَكِنَّ مَعْرِفَتَهَا بِهِمْ كَانَتْ أَشْبَهَ بِمَعْرِفَتِهَا بِالْحَشَرَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَقْرَأُ عَنْهَا فِي كُتُبِ الْعُلُومِ ، فَهُمْ جَمِيعًا يَتَوَنَّأُونَ أَعْمَاشَهُمْ وَيَعْمَلُونَ . وَكَانَتْ عُرْفَةُ سَتِيفِنَ وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَاشِ .

تَطَلَّعَتْ لُويزَا حَوْلَهَا لِيَضَعَ دَقَائِقُ ، وَلاَحَظَتْ فِي الْعُرْفَةِ قِطْعَ الْأَثَابِ الْقَلِيلَةِ ، وَبَعْضَ الْكُتُبِ . وَوَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى السَّيِّدَتَيْنِ ، فَخَمَّنتُ أَنْ الشَّابَّةَ الصَّغِيرَةَ لَيْسَتْ زَوْجَةَ سَتِيفِنَ . وَكَمَا حَدَّثَتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَمَا تَحَدَّثَتْ سَتِيفِنَ إِلَى السَّيِّدَةِ بَاوْنِدِرِي ، تَحَدَّثَتْ هِيَ إِلَى رَاشِيلَ فَقَالَتْ لَهَا : « لَقَدْ جِئْتُ لِأُمْدٍ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ إِنْ سَمَحْتُمْ لِي بِذَلِكَ . هَلْ تُعْرِفِينَ مَا حَدَّثَ ؟ هَلْ أُخْبِرُكَ بِالْأَمْرِ ؟ »

أَجَابَتْهَا رَاشِيلُ : « لَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَوْفَ يَتْرُكُ الْعَمَلَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « إِذَا تَرَكَ الْعَمَلَ فِي مَصْنَعِ زَوْجِي ، فَلَنْ يَكُونَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا آخَرَ فِي مَدِينَةِ كُوكْتاون . أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا ؟ »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « بَلَى أَيْتُهَا الشَّابَّةُ ، فَسَوْفَ تَكُونُ سَمِعْتُهُ قَدْ سَاءَتْ بَيْنَ الْجَمِيعِ . »

قَالَتْ لُويزَا : « كَمَا أَنَّ زُمَلَاءَهُ مِنَ الْعَمَالِ لَنْ يَقْبَلُوا الْعَمَلَ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي نِقَابَتِهِمْ ، وَلِلْسَبَبِ نَفْسِهِ أَيْضًا لَنْ يُوظَّفَهُ أَيُّ مِنَ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ . وَلَكِنَّ أُخْبِرَنِي هَلْ وَعْدُكَ يَأْلا يَنْصَمُ إِلَى النَّقَايَةِ ؟ »

إِنْفَجَرَتْ رَاشِيلُ فِي الْبُكَاءِ قَائِلَةً : « إِنِّي لَمْ أَطْلُبْ مِنْهُ وَعْدًا . يَا لِلْفَتَى الْمِسْكِينِ ! إِنِّي مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ أَجْبُهُ الْمَتَاعَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ . وَلَمْ أَكُنْ

أَطْلُرُ أَنَّهُ سَوْفَ يَفْقِدُ عَمَلَهُ ، وَلَكِنَّ هَا هُوَ الْآنَ يُفَضَّلُ الْمَوْتَ عَلَى أَنْ يَنْقُضَ وَعْدَهُ . »

أَمْسَكَ سَتِيفِنَ بِيَدِ رَاشِيلَ قَائِلًا : « إِنِّي أَكْبُرُ لَكَ تَقْدِيرًا كَبِيرًا وَحُبًّا فَائِقًا يَا رَاشِيلَ . لَقَدْ كُنْتُ سَعِيدًا عِنْدَمَا وَعَدْتُ ذَلِكَ الْوَعْدَ ، وَسَيُسْعِدُنِي أَيْضًا أَنْ أُحَافِظَ عَلَيْهِ . »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ لُويزَا نَظْرَةً تُكْشِفُ عَنْ مَزِيدٍ مِنَ الْإِحْرَامِ لَهُ ، ثُمَّ أَحْتَتْ رَأْسَهَا ، وَسَأَلَتْهُ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ : « مَاذَا سَتَصْنَعُ ؟ »

أَجَابَهَا : « سَأَذْهَبُ بَعِيدًا يَا سَيِّدَتِي ، وَسَأُحَاوِلُ أَنْ أَجِدَ لِنَفْسِي عَمَلًا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ . »

سَأَلَتْهُ : « وَكَيْفَ سَتَسَافِرُ ؟ »

أَجَابَهَا : « سَأَسِيرُ يَا سَيِّدَتِي . »

قَالَتْ لُويزَا : « رَاشِيلُ ! » ثُمَّ فَتَحَتْ حَقِيْبَةَ يَدِهَا ، وَأَخْرَجَتْ مِنْهَا أُرْبَعَةَ جَنْبِهَاتٍ وَضَعَتْهَا عَلَى الْمِئْضَدَةِ قَائِلَةً : « إِنَّكَ تُعْرِفِينَهُ جَيِّدًا ، وَتُمْكِنُكَ أَنْ تَبْلُغِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْقَفُودَ لَهُ دُونَ أَنْ تُجْرِحِي بِذَلِكَ شَعُورَهُ . هَلْ لَكَ أَنْ تَفْعَلِي ذَلِكَ ؟ »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَيْتُهَا الشَّابَّةُ ! وَإِنَّهُ لَعَطْفٌ زَائِدٌ مِنْكَ أَنْ تُفَكِّرِي بِأَمْرِ هَذَا الْفَتَى الْمِسْكِينِ ، وَلَكِنَّ مَا مِنْ أَحَدٍ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ هَذِهِ الْقَفُودَ إِلَّا هُوَ شَخْصِيًّا . »

عَطَى سَتِيفِنَ وَجْهَهُ بِرَاحَتِيهِ لِلْحَطَّةِ قَصِيرَةٍ ، ثُمَّ آيَسَهُمْ وَقَالَ : « يَا لَكُمَا مِنْ

سَيِّدَتَيْنِ عَطُوفَتَيْنِ . إِنَّ لِلرَّجَالِ بَعْضًا مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَأَنَا لَسْتُ غَبِيًّا ، وَلَسْتُ نَاكِرًا لِلْجَمِيلِ ، وَلِهَذَا فَإِنِّي سَأَخُذُ جُنَيْهَتِي يَا سَيِّدَتِي ، وَسَوْفَ أُرُدُّهُمَا لَكَ حَالَمَا أَجِدُ عَمَلًا ، وَسَيَكُونُ ذَلِكَ عِنْدِيذٍ أَطْلَبُ عَمَلٍ أَوْدِيهِ . »

تَنَاولَ سَتِيفِنِ الْجُنَيْهَتَيْنِ ، وَوَضَعَتْ لُوِيْزَا الْجُنَيْهَتَيْنِ الْآخَرَتَيْنِ فِي حَقِيْبَتِهَا ، أَمَّا شَقِيْقُهَا الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَى السَّرِيرِ طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَقَدْ نَهَضَ عِنْدَمَا وَجَدَ أُخْتَهُ تَوَشِيْكَ أَنْ تَنْصَرِفَ ، وَقَالَ لَهَا بِسُرْعَةٍ :

« إِنْتَظِرِي لِحَظَّةٍ يَا لُو . هَلْ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ ؟ لَقَدْ طَرَأَتْ لِي فِكْرَةٌ . تَعَالَ مَعِي يَا بِلَاكُيُولَ خَارِجَ الْغُرْفَةِ لِحَظَّةٍ . »

عِنْدَمَا تَحَرَّكَ سَتِيفِنِ نَحْوَ الصَّبَاحِ قَالَ لَهُ تُوْم : « لَا يَا رَجُلُ . لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى ضَوْءٍ . »

تَبِعَ سَتِيفِنِ تُوْمَ إِلَى خَارِجِ الْغُرْفَةِ ، فَقَالَ لَهُ تُوْمَ هَامِسًا : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَاعِدَكَ ، وَلَا تَطْلُبْ مِنِّي مَزِيدًا مِنْ التَّفَاصِيلِ لِأَنَّهَا مَا زَالَتْ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ . وَلَكِنْ أَسْتَمِيعُ لِمَا أَقُولُهُ . إِنِّي أَعْمَلُ بِالْبَنْكِ ، وَأَنْتِ تَعْرِفُ بِيْتْرَرِ الْخَارِجِ بِطَبِيعَةِ الْخَالِ . مَتَى سَتُعَادِرُ كَوْنُكَاوَنَ ؟ »

أَجَابَتْ سَتِيفِنِ : « إِنَّ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ ، وَسَأَرْحَلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمَ السَّبْتِ . »

قَالَ تُوْمَ : « حَسَنًا . سَأَحَاوِلُ أَنْ أُسَاعِدَكَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَنْتَظِرَ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ الْبَنْكِ كُلَّ مَسَاءٍ حَتَّى يَوْمِ سَفَرِكَ . وَسَوْفَ أَخْبِرُ أُخْتِي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَعْرِفُ أَنَّهَا سَتَوَافِقُنِي . وَلَكِنْ لَا تَتَحَدَّثِ إِلَى بِيْتْرَرِ ، فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَجْلِكَ



فَسَيُكَلِّمُكَ بِتَرْزُورٍ إِبْلَاقِكَ رِسَالَتِي . هَلْ فَهِمْتَ ؟ »

أَجَابَهُ سَتِيفِن : « نَعَمْ يَا سَيِّدِي . إِنَّ ذَلِكَ وَاضِحٌ تَمَامَ الْوُضُوحِ . »

ثُمَّ فَتَحَ ثَوْبَ أَلْيَابٍ وَنَادَى أُخْتَهُ قَائِلًا : « هَيَّا يَا لُو ، فَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِلِانْصِرَافِ
الآن . » وَأَنْدَفَعُ يَهِيْطُ السَّلْمَ مُسْرِعًا ، وَانْتَظَرَ أُخْتَهُ فِي الشَّارِعِ .

تَحَرَّكَتْ مَشَاعِيرُ السَّيِّدَةِ بِغُلْرِ لِمُشَاهَدَتِهَا بَلِّكَ السَّيِّدَةِ الْمُحِبَّةِ إِلَى النَّفْسِ .
وَقَامَ صَدِيقَاهَا ، سَتِيفِن وَرَاشِيل ، بِاصْطِحَابِهَا إِلَى الْفُنْدُقِ الَّذِي تَنْزُلُ بِهِ ، وَبَعْدَ
أَنْ تَمَنَّا لَهَا لَيْلَةً سَعِيدَةً انْصَرَفَا وَسَارَا مَعًا حَتَّى وَصَلَا مَنْزِلَ رَاشِيل . وَهُنَاكَ اتَّفَقَا
عَلَى أَلَّا يَلْتَقِيَا مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى يُغَادِرَ سَتِيفِن الْمَدِينَةَ . وَلَكِنَّهُمَا تَبَادُلَا بَعْضَ كَلِمَاتِ
الْمَحَبَّةِ وَالشَّجْعِيعِ . وَبَعْدَ أَنْ تَوَاعَدَا عَلَى تَبَادُلِ الْخِطَابَاتِ وَدَّعَ كُلُّ مَنِهْمَا الْآخَرَ .

اسْتَمَرَّ سَتِيفِن فِي عَمَلِهِ أَيَّامَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ وَالْخَمِيسِ ، وَكَانَ يَقِفُ كُلَّ مَسَاءٍ
جَلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْبَنِّكَ وَيَجُولُ حَوْلَهُ . وَكَانَ يَرَى بِتَرْزُورٍ ،
إِلَّا أَنْ الْأَخِيرَ لَمْ يُبَادِرْهُ بِالْحَدِيثِ . وَشَاهَدَ سَتِيفِن السَّيِّدَةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ مُدِيرَةً
مَنْزِلَ لَدَى السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، وَكَانَتْ تُبْطِلُ مِنْ نَافِذَتِهَا الَّتِي فَوْقَ الْبَنِّكَ .

وَفِي لَيْلَةِ الْخَمِيسِ انْتَظَرَ سَتِيفِن طَوَالَ سَاعَتَيْنِ وَلَكِنْ شَيْئًا لَمْ يَخْطُثْ ، سِوَى
مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ سَتِيفِن كُلَّمَا نَظَرَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، إِذْ كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ لَيْسَ .

وَقَدْ قَضَى سَتِيفِن بَلِّكَ اللَّيْلَةَ نَائِمًا عَلَى الْأَرْضِ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ بَاعَ كُلَّ مَا لَدَيْهِ
مِنْ أَثْنَابٍ . وَفِي الْخَامِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي غَادَرَ غُرْفَتَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى شَوَارِعِ
الْمَدِينَةِ الْخَالِيَةِ ، وَبَعْدَ مَسِيرَةِ سَاعَتَيْنِ وَصَلَ قِمَّةً ثَلُ يُبْطِلُ عَلَى مَشَارِفِ الْمَدِينَةِ ،
فَوَقَفَ هُنَاكَ وَتَطَلَّعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَرَأَاهَا غَارِقَةً فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ السَّاطِعِ ، وَسَمِعَ

الْأُحْرَاسَ تَذُقُ إِيْدَانًا بِبَدَأِ الْعَمَلِ ، وَقَدْ أَرْتَفَعَتْ أَعْمِدَةُ الدُّخَانِ الْأَسْوَدِ فِي السَّمَاءِ .
وَشِعَرَ سَتِيفِن عِنْدَئِذٍ بِأَنَّهُ غُلَامٌ صَغِيرٌ ، وَبِأَنَّ أَصْوَاتَ الطُّيُورِ وَشِدْوَهَا تَحْمِلُ إِلَيْهِ
رِسَالَةً حُبٍّ مِنْ رَاشِيلِ .

« إِنَّ وَجْهَهَا يَزْدَادُ جَمَالًا وَتَالِقًا خَاصَّةً عِنْدَمَا يَقَعُ بَصَرُهَا عَلَى الْحَجَرِ . كَمْ أَوْدُ أَنْ أَرَى مِثْلَ هَذَا التَّغْيِيرِ عَلَى مَلَامِحِهَا عِنْدَمَا تَرَانِي أَنَا . »

وَكَانَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ يَمْتَلِكُ حِصَانًا يَرْكَبُهُ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْاجْتِمَاعَاتِ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَافِرَ أحيانًا إِلَى قُرَى تَبْعُدُ عِدَّةَ كِيلُومِتْرَاتٍ . وَلَمْ تَكُنْ أَعْمَالُهُ فِي الْمَدِينَةِ تَسْتَعْرِقُ مِنْ وَقْتِهِ الْكَثِيرَ ، فَهُوَ يُلْقِي الْخُطَبَ وَالْمُحَاضِرَاتِ . وَكَانَ شَخْصًا مَحْبُوبًا مِنْ الْجَمِيعِ ، وَكَانَ آلُ بَاوْنِدِرِي أَفْضَلَ أَصْدِقَائِهِ ، وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ بَاوْنِدِرِي أَفْضَلَهُمْ جَمِيعًا .

وَكَانَ يُحِيطُ بِأَكْبَرِ حَدِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ ، تَمْلَأُهَا الْأَشْجَارُ الَّتِي تُلْقِي بِظِلِّهَا عَلَى الْمَكَانِ وَعَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمَقَاعِدِ الْمَوْجُودَةِ . أَمَّا الطَّرِيقُ الْمُسْتَقْدِمُ إِلَى كُوتَاوَنَ فَقَدْ أَمْتَلَأَ بِمَنَاجِمِ الْفَحْمِ الْقَدِيمَةِ الْمَهْجُورَةِ الَّتِي تَرَكَّتْ أَثَارًا سَوْدَاءَ عَلَى الْأَرْضِ . وَكَانَتِ الْمَبَانِي الْمَوْجُودَةُ بِالْمِنْطَقَةِ خَالِيَةً بِذَوْرِهَا ، وَكَادَتْ الشَّجَرَاتُ النَّاتِيَةُ

الفصل الخامس عشر

وَكَانَتِ لُويزَا مُعْجَبَةً بِبَعْضِ أَفْكَارِهِ الَّتِي تَذُلُّ عَلَى عَدَمِ الْإِكْتِرَاتِ بِشَيْءٍ . وَكَانَتِ تَتَذَكَّرُ قَوْلَهُ « إِنَّ الْمَقْدَرُ سَيَكُونُ » ، فَهُوَ قَوْلٌ يَقْنُقُ مَعَ شَيْءٍ فِي أَعْمَاقِهَا ، كَمَا أَنَّهُ يَذْكُرُهَا بِأَنَّهَا قَالَتْ يَوْمًا لِأَبِيهَا إِنَّ زَوَاجَهَا لَا يَعْني شَيْئًا لَهَا . وَكَانَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُسُ بِذَوْرِهِ يُعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَالٍ وَلَا قِيَمَةَ لَهُ . وَلَمْ تَكُنْ لُويزَا تَرى جَدِيدًا فِي آرَائِهِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُؤْمِنُ بِهَا ، وَلَمْ تَكُنْ آرَؤُهُ ضَارَةً ، وَلَكِنْ لُويزَا كَانَتْ تَجِدُ فِي حَدِيثِهَا إِلَى هَارْتِهَاؤُسِ مَنَعَةً .

وَلَاخِظَ هَارْتِهَاؤُسُ تَغْيِيرًا طَفِيفًا عَلَى لُويزَا ، وَتَذَكَّرَ كُلَّ مَا قَالَهُ أُنْحُوها عَنْهَا ، وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَفْهَمُهَا وَيَفْهَمُ سُلُوكَهَا بِطَيِّءٍ . فَهُوَ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَسِيرَ أَغْوَارَ عَقْلِهَا ، أَوْ يَصِلَ إِلَى أَعْمَاقِ تَفْكِيرِهَا وَيَتَعَرَّفَ إِلَى دَقَائِقِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَفْكِيرُهُ الْأَضْحَلُ لِيَتَّخِذَ لَهُ ذَلِكَ . وَلَكِنْ كَانَ كُلَّمَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا قَالَ فِي نَفْسِهِ :

وَلَاخِظَ هَارْتِهَاؤُسُ تَغْيِيرًا طَفِيفًا عَلَى لُويزَا ، وَتَذَكَّرَ كُلَّ مَا قَالَهُ أُنْحُوها عَنْهَا ، وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يَفْهَمُهَا وَيَفْهَمُ سُلُوكَهَا بِطَيِّءٍ . فَهُوَ لَمْ يَسْتَطِيعْ أَنْ يَسِيرَ أَغْوَارَ عَقْلِهَا ، أَوْ يَصِلَ إِلَى أَعْمَاقِ تَفْكِيرِهَا وَيَتَعَرَّفَ إِلَى دَقَائِقِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَفْكِيرُهُ الْأَضْحَلُ لِيَتَّخِذَ لَهُ ذَلِكَ . وَلَكِنْ كَانَ كُلَّمَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا قَالَ فِي نَفْسِهِ :



حَوْلَهَا تَحْجُبُهَا عَنِ الْأَنْظَارِ ، وَتَكَاثَرَتْ أَيْضًا الشَّجِيرَاتُ وَالْحَشَائِشُ ،
وَأَرْتَفَعَتْ حَوْلَ مَدَاخِلِ تِلْكَ الْمَنَاجِمِ الْقَدِيمَةِ . وَبِصُورَةٍ عَامَّةٍ كَانَتْ الْمِنْطَقَةُ غَيْرَ
آمِنَةٍ خَاصَّةً أَثْنَاءَ اللَّيْلِ . وَلَكِنَّ الْحَقُولَ كَانَتْ تُبْدُو دَائِمًا نَصِيرَةً رَاضِيَةً بَعِيدًا عَنْ
أَعْيُنِ الدُّخَانِ الَّتِي تُرَى مِنْ بَعِيدٍ وَهِيَ تَرْتَفِعُ فِي سَمَاءِ كُوكْتَاوَن .

أَحْبَبْتُ لَوِيْزَا هَذَا الْمَكَانَ وَصَارَتْ تَقْضِي بِهِ مُعْظَمَ أَوْقَاتِ الصَّيْفِ الْحَارِّ . وَكَانَ
السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي يَحْضُرُ إِلَيْهَا لَيَالًا ، وَيُقِيمُ هُنَاكَ أَيَّامَ الْآحَادِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْكَبُ الْخَيْلَ عَادَةً ؛ فَإِنَّهُ احْتَفَظَ هُنَاكَ بِحَظِيرَةٍ لِلْخَيْلِ تَضُمُّ اثْنَيْ عَشَرَ
جِصَانًا . وَقَدْ دَعَى السَّيِّدُ هَارْتْهَآوَسَ لِيُقِيمَ هُنَاكَ ؛ إِذْ قَالَ لَهُ السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي :

« لَا حَاجَةَ بِكَ لِأَنْ تَسْتَأْجِرَ حَظِيرَةً فِي كُوكْتَاوَن ؛ إِذْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَحْتَفِظَ هُنَا
بِحِصَانِكَ ، وَيُمَكِّنُكَ أَنْ تُقِيمَ هُنَا أَيْضًا إِنْ رَغِبْتَ فِي ذَلِكَ . »

وَجَاءَتْ أَيَّامُ الصَّيْفِ الْحَارَّةِ ، وَكَانَ مَنَظَرُ الْمَقَاعِدِ وَسَطِ الْحَدِيدَةِ جَمِيلًا .
وَوَجَدَ السَّيِّدُ هَارْتْهَآوَسَ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَا يُنَاسِبُ مُحَافَظَتِهِ لِلنَّجَاحِ فِي تَحْرِيكِ
مَشَاعِرِ لَوِيْزَا فَاجِئَتِهِ .

وَفِي عَصْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ جَلَسَ إِلَى جَوَارِهَا وَقَالَ : « أَوَدُّ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِشَأْنِ أُخِيكَ
صَدِيقِي ثَوْمِ الصَّغِيرِ يَا سَيِّدَةَ بَاوْنْدِرِي . »

وَمَا إِنْ سَمِعَتْ لَوِيْزَا ذَلِكَ حَتَّى تَوَرَّدَتْ وَجَنَّتَاهَا ، فَقَالَ هَارْتْهَآوَسَ لِنَفْسِهِ :
« كَمْ هِيَ جَمِيلَةٌ ! » ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « عَفْوًا يَا سَيِّدَةَ بَاوْنْدِرِي ، وَلَكِنَّ
تِلْكَ الْأَنْظُرَةَ الَّتِي أَرَاهَا فِي عَيْنَيْكَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُجْعَلَ ثَوْمُ يَشْعُرُ بِالْفَخْرِ ، وَلَا يَسْغَنِي
إِلَّا أَنْ أُعْبَرَ عَنْ إِعْجَالِي بِمَا أَرَاهُ ... »

فَاطَمَتُهُ لَوِيْزَا قَائِلَةً : « إِنِّي فِي أَنْتِظَارٍ مَا تَوَدُّ أَنْ تَقُولَهُ عَنْ ثَوْمِ . »

قَالَ : « أَرَأَيْكَ حَازِمَةً مَعِي ، وَهَذَا مَا اسْتَحَقَّتْهُ . فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّي لَا قِيَمَةَ لِي ،
وَأَنْ كُنْتُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِيهِ صَادِقًا مَعَكَ وَلَسْتُ بِمُخَادِعٍ ، كَمَا أَنَّي مُهْتَمٌّ بِأُمُورِ
أَخِيكَ . »

قَالَتْ : « هَلْ ثَمَّةُ شَيْءٍ تُهْنَمُ بِهِ يَا سَيِّدُ هَارْتْهَآوَسَ ؟ »

أَجَابَهَا : « نَعَمْ ، إِنَّنِي أَهْتَمُّ بِثَوْمِ . إِنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ الْكَثِيرَ مِنْ أَجْلِهِ ، بَلْ إِنَّكَ
كَرَسْتَ حَيَاتَكَ كُلَّهَا مِنْ أَجْلِهِ . »

ثَمَلَمْتُ لَوِيْزَا فِي جِلْسَتِهَا فَجَاءَةً ، وَلَكِنَّ هَارْتْهَآوَسَ وَاصِلَ حَدِيثِهِ بِسُرْعَةٍ قَائِلًا :
« عَفْوًا ، مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنِّي أَهْتَمُّ بِهِ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ . » ثُمَّ آتَسَمَ وَقَالَ : « قَدْ
لَا يَبْدُو فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا لَمْ يَكُنِ الشَّابُّ نَاكِرًا لِلْجَمِيلِ أَوْ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْجَفَاءِ ،
أَوْ لَعَلَّهُ يَنْفَقُ الْكَثِيرَ ، فَلَا بَأْسَ مِنْ ذَلِكَ . هَلْ لِيثَوْمُ مِثْلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؟ »

قَالَتْ : « أَجَلٌ . »

سَأَلَهَا : « هَلْ يُقَامِرُ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « أُعْتَقِدُ ذَلِكَ . » وَسَكَتَتْ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَتْ : « نَعَمْ ، أَعْرِفُ أَنَّهُ
يُقَامِرُ . »

سَأَلَهَا : « كَمَا أَنَّهُ يَخْمِرُ ثَقُودًا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

قَالَتْ : « نَعَمْ . »

قال : « إِنَّ كُلَّ مُقَامِرٍ يَخْسِرُ نَفْسَهُ ، وَلَكِنْ هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَ : هَلْ تُمَدِّدُهُ
بِالنَّفْسِ الَّتِي يُقَامِرُ بِهَا ؟ إِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ
نَوْمَ رَبِّمَا يُعَانِي مِنْ بَعْضِ الْمَتَاعِبِ ، وَأَوَدُّ أَنْ أَسَاعِدَهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَرُورِيًّا ،
وَهَذَا مِنْ أَجْلِهِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ . »

لَمْ تَعْلَقْ لُويزا بِشَيْءٍ ، وَاسْتَمَرَّ هَارْتَهَاؤُسُ فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا :

« لَيْسَ لِنَوْمِ مَزَايَا كَثِيرَةٌ ، فَوَالِدُهُ الْمَوْفَرُ ، بِمَا بَثَّ فِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ لَمْ يُوَهِّلْهُ تَاهِيلًا
كَافِيًا لِذَلِكَ ، أَغْنَى لِمُوَاجَهَةِ ذَلِكَ الْعَالَمِ الْقَاسِي . كَمَا أَنَّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي رَغِمَ
أَنَّهُ رَجُلٌ فَاضِلٌ وَقَوِيٌّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالشَّخْصِ الْمُنَاسِبِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ
شَابٌّ طَلِبًا لِلْمُسَاعَدَةِ . »

قَالَتْ لُويزا وَهِيَ تَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهَا : « هَذَا صَحِيحٌ . صَحِيحٌ تَمَامًا . »

قَالَ هَارْتَهَاؤُسُ : « حَسَنًا ، إِنَّنِي إِذَا عَلَيَّ أُنْمَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْمُعَاوَنَةِ ، كَمَا أَنَّ لِي
بَعْضَ الْخَبِيرَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكِلَاتِ ، فَإِذَا قَلَّتْ لِي الْحَقِيقَةُ بِصِرَاحَةٍ ... »

قَاطَعَتْهُ لُويزَا قَائِلَةً : « إِنْهُنِي يَا سَيِّدَ هَارْتَهَاؤُسَ . أَنَا لَا أَشْكُو مِنْ شَيْءٍ ، كَمَا
أَنْتَ لَا أَتَدُّ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ أَجْلِهِ . »

قَالَ هَارْتَهَاؤُسُ فِي نَفْسِهِ : « يَا لَهَا مِنْ شَجَاعَةٍ أَيْضًا ! »

وَاصَلَتْ لُويزَا حَدِيثَهَا قَائِلَةً : « كَانَ أَخِي مَدِينًا طَوَالَ عَامٍ أَوْ أَكْثَرَ ، إِذَا بَعَثَ
بَعْضَ جَوَاهِرِي الَّتِي لَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا ... » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنِ الْكَلَامِ وَنَظَرَتْ
إِلَى السَّيِّدِ هَارْتَهَاؤُسَ . لَقَدْ بَاعَتْ بَعْضَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهَا رَوْجُهَا — تِلْكَ

خَفِيفَةٌ يُدْرِكُهَا أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمَا كَانَ غَيْبًا — وَلَكِنْ السَّيِّدَ هَارْتَهَاؤُسَ لَمْ يَكُنْ
بِالشَّخْصِ الْعَبِيِّ .

وَاسْتَمَرَّتْ لُويزَا قَائِلَةً : « لَقَدْ أُعْطِيَتْهُ مُنْذُ ذَلِكَ التَّارِيخِ ، مِثْلًا كَبِيرًا مِنْ
النَّفْسِ . وَمُنْذُ أَسْبُوعَيْنِ طَلَبَ مِنِّي مِئَةَ جُنْيَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعِيَ ذَلِكَ الْمَبْلَغُ ؛ وَلِهَذَا
فَأَنْتَ أَشْعَرُ بِالْقَلْقِ مِنْ أَجْلِهِ يَا سَيِّدَ هَارْتَهَاؤُسَ . لَمْ أَبْحَ بِهِذِهِ الْأَسْرَارَ لِأَحَدٍ
سِوَاكَ . »

قَالَ هَارْتَهَاؤُسُ بِهَدْوٍ : « لَمْ يَكُنْ نَوْمٌ حَكِيمًا فِي تَصَرُّفَاتِهِ ، وَلَكِنْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ
أَنْ يَمُرَّ كُلُّ رَجُلٍ فِي حَيَاتِهِ بِفَتْرَةٍ مِنَ الشَّطَطِ ، وَغَدَمِ التَّعَقُّلِ ؛ لِذَا قَالَا لَا الْوَمَةَ
عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ أَجِدُهُ مُدْنِيًا لِسَبَبٍ آخَرَ . وَلَعَلَّهُ سَبَبُ أَجْدُهُ أَكْثَرَ خُطُورَةً
وَأَهْمِيَّةً ، وَهَذَا مَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْفِرَهُ لَهُ . »

سَأَلَتْهُ : « لِمَاذَا ؟ مَاذَا فَعَلَ ؟ أَرَجُوكَ أَنْ تُخْبِرَنِي . »

أَجَابَهَا : « لَقَدْ كُنْتُ أُمِيَّةً مَعِيَ يَا سَيِّدَ بَاوْنِدِرِي ؛ إِذَا سَأَلْتُ أُمِيَّةً مَعَكَ .
إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْفِرَ لِنَوْمِ مَسْلُكِهِ الْجَافَ مَعَكَ . كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ
رَفِيقًا مَعَكَ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا ، وَفِي كُلِّ نَظَرَةٍ مِنْ نَظَرَاتِهِ ، بَلْ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ
يَقُومُ بِهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ . فَأَنْتَ أَفْضَلُ أَوْصِيَاءِهِ ، كَمَا أَنَّ حُبَّكَ وَرِعَايَتَكَ لَهُ يَفُوقَانِ
الْوَصْفَ . فَمَاذَا يُعْطِيكَ مُقَابِلَ ذَلِكَ ؟ مَاذَا يُقَدِّمُ لَكَ ؟ لَا شَيْءَ — عَلَى
مَا أَعْتَقِدُ — سِوَى كَلِمَاتِهِ الْجَافَةِ وَمَسْلُكِهِ الْقَاسِي . »

خُيِّلَ لِلُويزَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّ أَشْجَارَ الْحَدِيقَةِ تَطْفُرُ أَمَامَ نَاضِرَتِهَا ، وَأَمْتَلَأَتْ
عَيْنَاهَا بِدُمُوعٍ . كَأَنَّهَا جَاءَتْ مِنْ بَيْتٍ عَمِيقَةٍ خَفِيفَةٍ فِي دَاخِلِهَا ، وَلَكِنْ تِلْكَ الدَّمُوعُ
لَمْ تُخَفَّفْ عَنْهَا وَلَمْ تُرَخِّهَا .

وواصل هارثهاوس حديثه قائلاً : « أنا أيضًا على قدرٍ من الجفاء يا سيِّدة باوندرلي . ولم أظاهر يوماً بأنني شخصٌ فاضلٌ يُقدَّر الجميل . ولعل في هذا ما يجعلني قادرًا على أن أبتين الهوة التي بُردى فيها نوم ، تلك الهوة التي سوف أحاول أن أخرجَ منها : سأجعلُه يكف عن المقامرة . »

ونظر السيِّد هارثهاوس نحو اليتيم فلمح طيف شخصٍ هناك ؛ فأشار إليه قائلاً للويزا : « لا بُدَّ أنه أحوك ، فهيا بنا لنقابله . »

ساعدتها على التهوُّض فامسكت بذراعه . وعندما اقتربا من نوم وجداه مُعسكًا بعضًا يضربُ بها بعض الشجيرات ، وما إن شاهدهما حتى صاح : « أهلاً بكما ! لم أكن أتوقَّع أن أجدكما هنا . »

فقال هارثهاوس : « أظنك كنت تتوقَّع إحدى قتيات كوكشناون ، وخاب رجائك لما رأيتهما . »

قال نوم : « كم أتمنى أن تقع فتاة ثرية في حبي ، حتى وإن كانت تلك الفتاة عجوزًا أو قبيحةً فإني لن أنكرها أبدًا . »

قال هارثهاوس : « إنك لا تكف أبدًا عن التفكير في التَّعود يا نوم . »

ردَّ نوم : « إن هذا ما يفعله كلُّ إنسانٍ ، حتى أختي . أليس كذلك يا لو ؟ »

أجابته لويزا : « ليس دائمًا يا نوم . »

قال هارثهاوس : « يبدو أن نوم غير سعيد اليوم ؛ ولهذا يجب ألا نزعجه . »



قال ثوم : « إني أعرف ما يدور بخلد أختي من أفكار ، يا سيّد هارثهاوس ،
كما أنها تعرف ذلك أيضا . »

قال هارثهاوس : « لا تصدّقه يا سيّدة باوندرني ، وإذا لم يكن أكثر أدبا فإني
سأبوخ لك ببعض أفكاره نحوك . »

قال ثوم : « إني أمتدحها عندما لا تبدي أكثرنا بالتقود ، وسأمتدحها كلما
وجدت لذلك سببا مناسباً . ولكن هذا أمر لا يعنيك كثيرا يا سيّد هارثهاوس ،
كما أنني نعتت منه أيضا . »

مشى الثلاثة حتى وصلوا إلى البيت ، ودخلت لويزا ، ووضع هارثهاوس يده
على كتف ثوم قائلا : « هيا بنا نسير قليلا يا ثوم ، فانا أريد أن أتحدث إليك . »

وصلا إلى جدار منخفض في نهاية الحديقة فجلسا عليه ، ثم سأله هارثهاوس :
« الآن أخبرني ما الأمر يا ثوم ؟ »

أجاب ثوم : « ليس معي نقود يا سيّد هارثهاوس ، كما أنني واقع في
مشكلة . »

قال هارثهاوس : « وأنا أيضا يا صديقي العزيز ليس معي نقود . »

قال ثوم : « ولكنك لا تعاني من أية مشكلة . وكان في إمكان شقيقتي أن
تساعدني ، ولكنها لم تفعل . »

قال هارثهاوس : « إنك تتوقع الكثير منها . لقد أعطتك قدرا كبيرا من النقود ،
وكم تريد الآن ؟ »

أجاب ثوم : « لقد فات الأوان يا سيّد هارثهاوس . لا أريد شيئا الآن . كان
في استطاعة لو أن تحصل لي على النقود من باوندرني العجوز . لقد تزوّجته من
أجلي . إلا أنها رفضت أن تطلب منه نقودا . إنها لو كانت لطيفة معه لأعطاه
كل ما تطلبه ، ولكنها ليست لطيفة معه حتى لو كان ذلك من أجلي . »

كانت ثمة بركة ماء صغيرة في وسط الحديقة . وفجأة شعر هارثهاوس بالرغبة
في أن يلقي بئوم الصغير في هذه البركة ، ولكنه ثمالك مشاعره واحتفظ بهدوئه
وقال : « حسنا يا ثوم سأقوم الآن بدور المصيرفي بالنسبة لك . »

قال ثوم : « المصيرفي ؟ ! أرجو ألا تحدثني عن هذا الموضوع . »
وتعجب هارثهاوس مما ظهر على وجه الجرو من مظاهر الإغواء المفاجئ .

فقال له : « عندما تقع في أية مشكلة يا ثوم ، أخبرني . أخبرني بكل شيء قبل
فوات الأوان ، وقبل أن تزداد الأمور سوءا . وسأحاول أن أجد لك مخرجا
سهلا . »

قال ثوم : « شكرا لك يا سيّد هارثهاوس . إنك صديق مخلص . كم كنت
أود لو أنني عرفتك من قبل . »

قال هارثهاوس : « ولكن يجب عليك أن تفعل شيئا من أجلي يا ثوم . عليك
أن تكون أكثر رقة مع أختك ، وأظهر لها بكل وضوح أنك تحبها . »

أجاب ثوم : « سوف أفعل ذلك يا سيّد هارثهاوس ، وسأبدأ ذلك على الفور هذا
المساء . »

بِالْفِعْلِ نَقَذَ ثُومَ وَعْدَهُ ؛ إِذْ قَالَ لِأُخْتِهِ فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِهَا وَقَبْلَ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ :
« أَرْجُو أَنْ تُعْفِرَ لِي يَا لُو . أَنْتِ تَعْرِفِينَ أَنَّي أُجِبُّكَ . وَمَا كُنْتُ أَوْدُ قَطُّ أَنْ أَكُونَ
فَقْلاً مَعَكَ . »

عَلَتْ الْإِيْتِسَامَةُ الْجَمِيلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ وَجَهَ لُويزَا كُلَّمَا رَأَتْ السَّيِّدَ هَارْتِهَاؤُسَ .
وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « هَذَا حَسَنٌ لِلْغَايَةِ . إِنَّ الْمَقْدَرِ سَيَكُونُ . »

الفصل السادس عشر

لَمْ يَكُنْ هَارْتِهَاؤُسَ أَقَلَّ سَعَادَةً صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الْتَالِي ، فَقَدْ كَانَتْ إِيْتِسَامَةُ لُويزَا
لَهُ تَسْلُطٌ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فِي جَمَالِ وَرَقَةٍ بِالْعَيْنِ . وَبَدَتْ لَهُ عَيْنَاهَا ، كَمَا وَصَفَهُمَا
لِنَفْسِهِ ، جَوْهَرَتَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ . وَظَلَّ طَوَالَ يَوْمِهِ يُكْرِّرُ ذَلِكَ .

وَفِي حَوَالِي السَّادِسَةِ عَادَ مِنْ أَحَدِ الْاجْتِمَاعَاتِ . وَبَيْنَمَا كَانَ يَقُودُ جِصَانَهُ إِلَى
الْإِسْطَبِلِ ظَهَرَ أَمَامَهُ فَجْأَةً السَّيِّدُ بَارُونْدِرِي ، وَصَاحَ قَائِلاً : « هَلْ بَلَغَكَ الْبَيَّا
يَا هَارْتِهَاؤُسَ ؟ »



رَدَّ هَارْتِهَاؤُس : « أَيُّ تَبَا ؟ »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ سَطَا اللَّصُوصُ عَلَى الْبَنكِ الَّذِي أُمْلِكُهُ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُس : « لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ صَحِيحًا يَا سَيِّدِي ! »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « بَلْ هِيَ الْحَقِيقَةُ . لَقَدْ سَرَقَ الْبَنكِ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ ، وَاسْتَحْدَمَ اللَّصُوصُ مِفْتَاحًا مُصْطَنَعًا . »

سَأَلَهُ هَارْتِهَاؤُس : « كَمْ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَيْسَ هَذَا هُوَ الْمُهَمُّ يَا رَجُلُ . لَمْ يُسْرِقِ الْكَثِيرُ فِي الْوَاقِعِ ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُسْرِقَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . »

كَرَّرَ هَارْتِهَاؤُس سُؤَالَهُ : « كَمْ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَمْ يُسْرِقْ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ جُنيْهًا . وَلَكِنَّ الْمَبْلُغَ لَيْسَ هُوَ الْمُهَمُّ ، إِنَّمَا الْمُهَمُّ هُوَ أَنْ يَنْكِي قَدْ سَرَقَ . »

أَيْدَهُ هَارْتِهَاؤُس قَائِلًا : « هَذَا صَحِيحٌ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، وَلَكِنِّي سَعِيدٌ بِأَنَّ اللَّصُوصَ لَمْ يَسْرِقُوا مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي غَاضِبًا : « شُكْرًا لَكَ . لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَصِلَ الْمَبْلُغُ الْمَسْرُوقُ إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ جُنيْهٍ . لَوْ لَمْ يَخْذُلْ مَا أُرْجَعِجَ اللَّصُّ وَقَدْ خُذِيَ السَّرِقَةُ ، فَأَنَا يَا سَيِّدِي صَاحِبُ الْبَنكِ الْوَحِيدِ فِي كُوكْتَاوَن . »

وَصَلَتْ فِي بَلَدِ اللَّحْظَةِ لُوِيْزَا وَالسَّيِّدَةُ سِبَارِسِت وَبِيْتَرُ . وَاسْتَأْنَفَ بَاوْنِدِرِي

كَلَامَهُ : « هَا هِيَ ذِي آيَةٍ تَوَمَّ عِرَادُغِرَانِد . لَقَدْ أَهْلَاوَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، عِنْدَمَا أَخْبَرْتُهَا بِمَا حَدَثَ . »

لَاخِظَ السَّيِّدُ هَارْتِهَاؤُس مَا بَدَأَ عَلَى وَجْهِ لُوِيْزَا مِنْ شُحُوبٍ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا مَادًّا ذِرَاعَهُ لَهَا . أَمَّا بَاوْنِدِرِي فَقَدْ أُمْسَكَ بِضِيْقٍ بِذِرَاعِ السَّيِّدَةِ سِبَارِسِت ، وَسَارُوا جَمِيعًا مُتَجَهِّينَ إِلَى الْبَيْتِ .

سَأَلَ هَارْتِهَاؤُس بَاوْنِدِرِي : « كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْفَظِيْعُ ؟ »

أَجَابَهُ بَاوْنِدِرِي : « هَذَا هُوَ مَا كُنْتُ سَأْخِيْرُكَ بِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تُكُنْ مُهْتَمًّا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مَقْدَارِ مَا سَرَقَ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ ! إِنْ مَا حَدَثَ هُوَ أَنَّنَا أَغْلَقْنَا الْبَنِكَ أَمْسَ بَعْدَ الظُّهْرِ كَعَادَتِنَا ، وَكَانَ فِي غُرْفَةِ الْخِزَانَةِ الْمُحَصَّنَةِ مَبْلُغٌ كَبِيرٌ مِنَ أَمْوَالِ . وَكَانَ بِالْخِزَانَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي بِمَكْتَبِ تَوَمَّ مَبْلُغٌ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ جُنيْهًا . »

تَدَخَّلَ بِيْتَرُ مُصْحَحًا : « بَلْ كَانَ بِهَا مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ جُنيْهًا وَسَبْعَةٌ شِلِينَاتٍ . »

وَكَاذَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي يَتَفَجَّرُ غَيْظًا فَصَاحَ قَائِلًا : « لَا تُقَاطِعْنِي يَا بِيْتَرُ ! إِنِّي مَا سَرَقْتُ إِلَّا لِأَنَّكَ كُنْتَ تَنْعَمُ بِتَوَمَّكَ . كَانَ تَوَمَّ قَدْ أَغْلَقَ خِزَانَتَهُ وَبَدَاخِلَهَا مِئَةٌ وَخَمْسُونَ جُنيْهًا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَوَجَّهَ بِيْتَرُ لِنِيَامٍ عَلَى سَرِيرِهِ فِي مَوْجِعِهِ الْمُجَاوِرِ لِمَعْرِفَةِ الْخِزَانَةِ الْمُحَصَّنَةِ ، وَأَثْنَاءَ اللَّيْلِ تِمَكَّنَ لِمِصٍّ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ فَتْحِ الْخِزَانَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَسَرَقُوا مَا بِهَا مِنْ تَقْوِيْدٍ . وَيَبْدُو أَنَّ شَيْئًا مَا قَدْ أُرْجَعِجَهُمْ أَثْنَاءَ ذَلِكَ فَهَرَبُوا مِنَ الْبَابِ الرَّئِيسِيِّ الَّذِي كَانَ لَدَيْهِمْ مِفْتَاحٌ مُصْطَنَعٌ لَهُ اسْتَحْدَمُوهُ فِي إِغْلَاقِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهُ . وَقَدْ غُيِّرَ صَبَاحَ الْيَوْمِ عَلَى هَذَا الْمِفْتَاحِ فِي الشَّارِعِ . وَلَكِنِّي بِيْتَرُ لَمْ يَرْعِجْهُ شَيْءٌ ، وَاسْتَمَرَّ فِي تَوَمِّهِ حَتَّى السَّابِغَةِ صَبَاحًا عِنْدَمَا رَأَى خِزَانَةَ تَوَمَّ وَقَدْ فُتِحَ بِأَيْهَا ،

وَكَسِيرَ قُلُوبِهَا ، وَسَرَقَتِ التُّقُودَ مِنْهَا . »

تَلَفَّتْ هَارْتِهَاؤُسُ حَوْلَهُ مُتَسَائِلًا : « أَيْنَ تُوْمَ الْآنَ ؟ »

أَجَابَهُ بَاوْنِدِرِي : « كَانَ يُسَاعِدُ رِجَالَ الشَّرْطَةِ ، وَهُوَ الْآنَ يُتَجَرَّبُ بَقِيَّةِ أَعْمَالِهِ الْيَوْمِيَّةِ بِأَلْبَنَكِ . »

عَاذَ هَارْتِهَاؤُسُ يَسْأَلُ : « هَلْ لَدَى الشَّرْطَةِ أَيْدٍ فَكْرَةٌ عَنْ هَؤُلَاءِ اللَّصُوصِ ؟ »

إِنْفَجَرَ بَاوْنِدِرِي صَائِحًا : « بِطَبِيعَةِ الْحَالِ يَا سَيِّدِي . إِنَّ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي إِذَا مَا سُرِقَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا فِي طَيِّ الْكِتْمَانِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَلَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْهَا . إِنَّ اللَّصَّ وَاحِدٌ عَلَى الْأَقْلَ مِنْ الْعَمَالِ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ بِكَاسِلٍ : « أَمَلُ الْأَيْدِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اللَّصُّ هُوَ صَدِيقُنَا بِلَاكِيُول . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّهُ هُوَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَدَّثْتُهُ عِنْدَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِيَ حَيَاتُهُ الزَّوْجِيَّةَ . وَحَدَّثْتُهُ الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي ... »

قَالَتْ لُوِيْزَا مُقَاطَعَةً فِي صَوْتِ خَافَتٍ : « لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِلَاكِيُول هُوَ اللَّصُّ . »

صَاحَ بَاوْنِدِرِي قَائِلًا : « إِنِّي أَغْرَفُ هَؤُلَاءِ النَّاسَ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، وَقَدْ رَحَلَ بِلَاكِيُولُ عَنِ الْمَدِينَةِ إِلَى حَيْثُ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَقَرَّهُ تَمَامًا ، مِثْلَمَا فَعَلْتُ أُمِّي عِنْدَمَا تَرَكْتَنِي وَأَنَا طِفْلٌ صَغِيرٌ . فَمَاذَا فَعَلَ قَبْلَ أَنْ يَرَحَلَ ؟ »

وَأَبْتَسَمَ بَاوْنِدِرِي وَهُوَ يَقُولُ لِهَارْتِهَاؤُسَ : « إِنَّ هَذَا سُؤَالَ تَعْرِفُ السَّيِّدَةِ

سِيَارِسْتِ الْإِجَابَةَ عَنْهُ ، كَمَا يَعْرِفُ بِيَتَزَرُ ذَلِكَ أَيْضًا ، بَلَى وَيَعْرِفُهَا بَعْضُ جِيرَانِ أَلْبَنَكِ . »

سَأَلَ جِيْمِسَ هَارْتِهَاؤُسَ : « مَاذَا فَعَلَ ؟ »

أَجَابَ بَاوْنِدِرِي : « لَقَدْ ظَلَّ يُرَاقِبُ أَلْبَنَكِ لَيْلَةً بَلَوَ الْآخَرَى ، وَيُحَوِّمُ حَوْلَ الْمَكَانِ يُرَاقِبُ وَيَنْتَظِرُ . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ مُؤَيَّدًا : « هَذَا ذَلِيلٌ وَاضِحٌ وَكَافٍ ، »

اسْتَمَرَ بَاوْنِدِرِي فِي حَدِيثِهِ قَائِلًا : « وَلَكِنْ بِلَاكِيُولُ لَيْسَ وَخَذَهُ ، فَهَنَّاكُ أَيْضًا أَمْرًا عَجُوزًا رَأَاهَا النَّاسُ تُرَاقِبُ مَنْزِلِي وَتُرَاقِبُ أَلْبَنَكِ ، وَكَانَتْ تَقِفُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ عِنْدَمَا أَتَيْنَا بِلَاكِيُولَ الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي ثُمَّ انْتَصَرَفَا مَعًا . »

تَذَكَّرَتْ لُوِيْزَا تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْعَجُوزَ الَّتِي رَأَتْهَا فِي غُرْفَةِ بِلَاكِيُولِ ، وَلَكِنْ بَاوْنِدِرِي أَضَافَ : « يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَلْزِمَ الْهَدوءَ لِبَعْضِ الْوَقْتِ ، وَلَكِنَّا سَوْفَ نَقْبِضُ عَلَيْهِمَا . فَلَنْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَفْرَا مِنْ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي . »

قَالَ هَارْتِهَاؤُسُ : « يَجِبُ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمَا الْقَانُونُ أَقْسَى عُقُوبَةٍ . إِنَّ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَسْطُونَ عَلَى أَلْبَنُوكِ يَسْتَحِقُّونَ أَقْسَى عِقَابٍ . »

انْتَفَتَ بَاوْنِدِرِي إِلَى زَوْجَتِهِ قَائِلًا : « إِنَّ ذَلِكَ الْمَوْضُوعَ يَا لَوْ قَدْ أَصَابَ السَّيِّدَةَ سِيَارِسْتِ بِالْإِغْيَاءِ ، فَأَعْمَلِي عَلَى تَوْفِيرِ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ لَهَا هُنَا ، فَسَوْفَ تُقْضِي مَعَنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ . »

قَالَتِ السَّيِّدَةُ سِيَارِسْتِ : « أَشْكُرُكَ كَثِيرًا يَا سَيِّدِي ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ بِكَ لِأَنْ

تُرْجِعْ نَفْسَكَ بِشَأْنِ رَاحَتِي ، فَأَقُلَّ الْقَلِيلَ يَكْفِينِي . »

بِهَذَا أَخَذَتِ السَّيِّدَةُ سَارِسِتَ مِنْ مَنْزِلِ أَسْرَفِ بَاوْنِدِرِي مَقَامًا لَهَا . وَأَسْعَدَهَا أَنْ تُعَاوِدَ إِبْدَاءَ مَشَاعِرِ الشَّقَقَةِ نَحْوَهُ ، وَكَذَلِكَ لَعِبَ الزُّرْقَ مَعَهُ . وَصَارَتْ تُعَدُّ لَهُ شِرَاهِ الْمُفَضَّلِ السَّاحِنِ كُلِّ لَيْلَةٍ . كَانَتْ تُرْعَاهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، كَأَنَّهَا أُمُّهُ . وَلَمْ يُعْرِ لُويزَا تِلْكَ السَّيِّدَةَ أَيَّ أَهْتِمَامٍ .

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَادَ ثُومُ إِلَى الْبَيْتِ مُتَأَخِّرًا ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ قَدْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ مَاعِدًا لُويزَا الَّتِي سَمِعَتْ وَقَعَ خُطْوَاتِهِ وَهُوَ يَصْعَدُ الدَّرَجَ إِلَى الطَّائِقِ الْعُلَوِيِّ ، فَلَحِقَتْ بِهِ فِي عُرْفِيهِ بَعْدَ خَمْسِ دَقَائِقَ . وَوَجَدَتْهُ قَدْ تَظَاهَرَ بِالنُّومِ ، إِلَّا أَنَّهَا أَحَاطَتْهُ بِذِرَاعَيْهَا ، فَتَظَاهَرَ بِأَنَّهُ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَقُولُ : « مَا هَذَا ؟ مَنْ هُنَاك ؟ مَاذَا حَدَثَ ؟ »

سَأَلَتْهُ لُويزَا : « هَلْ تَوَدُّ أَنْ تَقُولَ لِي شَيْئًا يَا عَزِيزِي ثُومُ ؟ »

سَأَلَهَا بِدَوْرِهِ : « مَاذَا تُعْنِينَ بِهَذَا يَا لُو ؟ هَلْ كُنْتَ تَحْلُمِينَ ؟ »

قَالَتْ : « لَا تُخَفِ شَيْئًا عَنِّي يَا عَزِيزِي ثُومُ ؛ فَمَنْهُمَا قُلْتُ فَلَنْ يُغَيِّرَ ذَلِكَ مِنْ حُبِّي لَكَ ، وَلَكِنْ قُلْ لِي الْحَقِيقَةَ . »

سَأَلَهَا : « مَاذَا تُرِيدِينَ أَنْ تَعْرِفِي ؟ »

اِحْتَضَنْتَهُ بِقُوَّةٍ قَائِلَةً : « لَنْ أَلْوَمَكَ أَبَدًا عَلَى شَيْءٍ يَا ثُومُ . وَسَتَوْفَ أُثْبِتُكَ مِنْهُمَا كَانَ الْقَمْنُ . هَلْ لَدَيْكَ مَا تَوَدُّ أَنْ تَقُولَهُ لِي ؟ قُلْ نَعَمْ ، وَسَأَقْبَلُهُمْ أَنَا كُلَّ شَيْءٍ . »

قَالَ : « أَنَا لَا أَعْرِفُ مَاذَا تُقْصِدِينَ يَا لُو . أَنْتِ فَتَاةٌ عَطُوفٌ وَشَجَاعَةٌ ،

وَلَا شَكَّ أَنَّكَ تَسْتَحْقِينَ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَحْ أَفْضَلُ مِنِّي ، وَلَكِنْ عَوْدِي إِلَى فِرَاشِكَ الْآنَ ... عَوْدِي إِلَى فِرَاشِكَ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَكْشِفُ شَيْءًا جَدِيدًا لِلشَّرْطَةِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا ، لَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا ذَكَرَهُ بَاوْنِدِرِي الْعَجُوزُ . »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ أُخْبِرَتْ أَحَدًا عَنْ زِيَارَتِنَا لِإِبْلَاكِيُولِ فِي مَسْكَنِهِ ؟ »

أَجَابَ : « لَا ، فَإِنَّكَ رَغَبْتَ أَنْ يَظَلَّ ذَلِكَ سِرًّا . »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عِنْدَيْكَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ سَيَسْطُو عَلَى الْبَيْتِ . »

قَالَ بِسُرْعَةٍ : « وَلَا أَنَا ، فَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَعْرِفَ ؟ »

سَأَلَتْهُ : « هَلْ تَرَى أَنَّهُ مِنْ وَاجِبِنَا أَنْ نُبْلِغَ أَحَدًا بِأَمْرِ تِلْكَ الزَّيَارَةِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا نَسْأَلُنِي النَّصِيحَةَ يَا لُو . أَفْعَلِي مَا يَحُلُو لَكَ ، فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الزَّيَارَةُ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِكَ . »

هَبَّتْ لُويزَا وَاقِفَةً وَهِيَ تَسْأَلُ : « هَلْ تُعْتَقِدُ يَا ثُومُ أَنَّ إِبْلَاكِيُولَ سَطَا عَلَى الْبَيْتِ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَا أَعْرِفُ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ . »

قَالَتْ لُويزَا : « لَقَدْ كَانَ يَتَلَوُّ لِي شَخْصًا أَمِينًا . »

قال : « لقد أسعده أن يأخذ ثَقُودًا . وقد تحدثت إليه خارج الغرفة ، وقلت له إنه من حسن طالعه أن يحصل على الجنيتهين ، وهذا كل ما أعرفه . ولعله إنسان صالح . »

سأله : « ألا تود أن تقول لي المزيد يا ثوم ؟ »

أجاب : « لا شيء ، لذي لأقوله . أ تريدني أن أكذب ؟ »

قالت : « لا ، أنا لا أريد ذلك . »

قال : « حسنًا ! عودي إذا إلى فراشك ، فإني متعب . تصبحين على خير يا لو . »

وما إن أنصرفت حتى هب ثوم من فراشه بهدوء ، وأغلق باب الغرفة ، ثم التقى بنفسه على السرير وألحظ في البكاء .

الفصل السابع عشر

سرعان ما احتلت السيدة سبارست مكان لويزا في منزل أسرة باوليدري الريفي . ولم تجد لويزا في ذلك ما يقلقها ، وكانت تقول للسيدة سبارست : « ألهم ألك تجدين في رعايتك للسيد باوليدري متعة . »

كانت السيدة سبارست ترعى شؤون سيدها رعاية طيبة ، فكانت تقدم له الطعام ، وتنظف ملابسه . وكانت تباوله فبعتة قبل أن يخرج من بيته ، وتقبل يده هامسة : « يا لك من رجل عطوف ... عطوف جدًا ! » وما إن يدبر ظهره لها حتى تلوخ بقبضتها في الهواء قائلة لنفسها : « أيها المهرج إنك لا تستحق إلا هذه الزوجة ، ويسعدني أن أراك زوجًا لها . »

إزداد التقارب بين السيد باوليدري وبين مديرة منزله ؛ ونتيجة لذلك ... ازداد التقارب بين لويزا والسيد هارثهاوس .

وفي العاشرة من صباح أحد الأيام قدم بينتر من كوكناون حاملًا رسالة تفيد بأن السيدة غراذغرايند تخطط ، ومن ثم فقد كان على لويزا أن تتوجه إلى ستون لودج على الفور .

كانت لويزا قد زارت بيتها القديم مرتين منذ زواجها ، فقد كان والدها في لندن في معظم الأوقات . ولم تكن الزيارات ثريخ السيدة غراذغرايند . وعندما

حَضَرَتْ لُويزَا وَجَدَتْ أَلَيْتَ مُخْتَلِفًا كَثِيرًا عَمَّا عَهْدَتْهُ فِيهِ ، فَحَرَّكَ فِيهَا هَذَا التَّغْيِيرُ
الْإِحْسَاسَ بِالْعَمِيرَةِ . فَقَدْ وَجَدَتْ بِأَلَيْتٍ مِنْ الْحُبِّ أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفَتْ طَوَالَ حَيَاتِهَا .
وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى سِيَّسِي جُوبَ بِكَلِمَاتِهَا الْحُلُوةِ وَنَظَرَاتِهَا الرَّقِيقَةِ
الَّتِي غَيَّرَتْ الْكَثِيرَ فِي سَتُونَ لَوْذَجَ .

لَمْ تَكُنْ لُويزَا قَدْ بَادَلَتْ سِيَّسِي الْحَدِيثَ مِنْذُ زَوَاجِهَا ، وَلَكِنْ سِيَّسِي اسْتَطَاعَتْ
أَنْ تَحْظِيَ بِحُبِّ السَّيِّدَةِ غَرَادُغْرَايْنِدَ ، وَحُبِّ ابْنَيْهَا الصَّغَارِ الَّذِينَ أَحْبَبُوها حُبًّا
جَمًّا ، فَقَدْ بَلَغَتْ جِينُ غَرَادُغْرَايْنِدَ الْعَاشِرَةَ أَوْ الْقَانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا ، وَكَانَ
وَجْهُهَا يُمَازِلُ وَجْهَ سِيَّسِي فِي الْجَمَالِ ، وَمَسْلُكُهَا يُشَبِّهُ مَسْلَكَ سِيَّسِي فِي الرِّقَّةِ
وَالْعُدُوِيَّةِ .

وَكَانَ لَدَى السَّيِّدَةِ غَرَادُغْرَايْنِدَ رِسَالَةٌ تَوَدُّ أَنْ تُسَلِّمَهَا إِلَى زَوْجِهَا عِنْدَمَا يَعُودُ
إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَظَلَبَتْ إِلَى لُويزَا أَنْ تَتَوَلَّى ذَلِكَ ، وَكَانَ صَوْتُهَا ضَعِيفًا جَدًّا عِنْدَمَا
تُحَدِّثُ إِلَى ابْنَتِهَا .

قَالَتْ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتُ الْكَثِيرَ يَا لُويزَا ، كَمَا تَعَلَّمُ أَخُوكَ الْكَثِيرَ أَيْضًا . وَلَكِنْ
هُنَاكَ شَيْئًا نَسِيْتُ وَالذِّكْرُ — أَوْ فَاثَةُ — أَنْ يُعَلِّمَهُ لَكَ ، وَهَذَا شَغْلُ تَفْكِيرِي كَثِيرًا . »

وَأَزْدَادَ صَوْتُهَا ضَعْفًا وَهِيَ تَقُولُ : « لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَشْغُلُ تَفْكِيرِي عِنْدَمَا أَجِدُ
سِيَّسِي إِلَى جِوَارِي وَلَكِنِّي لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَذْكُرَ ذَلِكَ الشَّيْءَ ، وَقَدْ يَسْتَطِيعُ وَالذِّكْرُ
أَنْ يَتَذَكَّرَهُ ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ إِِرْضَاءً لِلَّهِ . »

وَمَاتَتْ الْكَلِمَاتُ عَلَى شَفَتَيْهَا . وَكَانَتْ بَلَّكَ آخِرَ كَلِمَاتِ السَّيِّدَةِ غَرَادُغْرَايْنِدَ
قَبْلَ أَنْ تَلْفِظَ أُنْفَاسَهَا الْآخِرَةَ ، فِي عَصْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَبْلَ أَنْ يَعُودَ زَوْجُهَا إِلَى
مَنْزِلِهِ .

أَقَامَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ مَعَ عَائِلَتِهِ بَاوْنِدِرِي بِضَعَّةِ أَسَابِيعَ . وَكَانَتْ طَوَالَ فِتْرَةٍ
إِقَامَتِهَا تَتَخَيَّلُ وَجُودَ سَلَمٍ هَائِلٍ يَنْتَهِي إِلَى قَاعِ هَوَّةٍ سَوْدَاءٍ يَقْبَعُ فِيهَا السَّيِّدَةُ
هَارْتَهَاوُسَ مُنْتَظِرًا لُويزَا ، الَّتِي تَهَيِّطُ هَذَا السَّلَمَ مُنْجِدَةً نَحْوَ هَوَّةِ الْعَارِ بَلَّكَ .

وَفِي إِحْدَى أَمَاسِي الصَّبِيْفِ الدَّفَاقَةِ كَانَتْ لُويزَا تُجْلِسُ إِلَى جِوَارِ السَّيِّدِ
هَارْتَهَاوُسَ فِي الْحَدِيقَةِ يُنَاقِشَانِ مَوْضُوعَ بِلَاكُيُولِ الَّذِي كَانَتْ الشَّرْطَةُ تَبْحَثُ عَنْهُ .
وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتَ تُرَاقِبُهُمَا مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِهَا ، وَقَدْ اسْتَرَعَى أَنْتِبَاهُهَا أَنَّ وَجْهَ
هَارْتَهَاوُسَ كَادَ يُلَامِسُ شَعْرَ لُويزَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسْمَعَ حَدِيثَهُمَا .

سَأَلَتْ لُويزَا السَّيِّدَةَ هَارْتَهَاوُسَ : « مَا رَأَيْتُكَ فِي بِلَاكُيُولِ يَا سَيِّدَ هَارْتَهَاوُسَ ؟ »

أَجَابَهَا : « لَقَدْ تَكَلَّمْتُ كَثِيرًا ، بَلْ لَعَلَّهُ أَفْرَطَ فِي الْكَلَامِ . »

قَالَتْ لُويزَا : « لَقَدْ تَرَكَ عِنْدِي انْطِبَاعًا بِأَنَّهُ إِنْسَانٌ شَرِيفٌ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَعْرِفُ
شَيْئًا عَنِ الرِّجَالِ أَوْ النِّسَاءِ . »

قَالَ هَارْتَهَاوُسَ : « يَا عَزِيزَتِي لُويزَا . . . » وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يُبَادِيهَا بِذَلِكَ الْإِسْمِ
« لَقَدْ كَانَ بِلَاكُيُولُ يَتَدَوَّى غَاضِبًا جَدًّا ، كَمَا أَنَّ الْقِيَّ بِاللُّؤْمِ عَلَى بَاوْنِدِرِي لِمَا
تُعَانِيهِ كَوْنُهَا مِنْ مَتَاعِبَ . وَلَعَلَّهُ فَكَّرَ آنَذَاكَ فِي بَنكِ السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، وَسَطًا
عَلَيْهِ كَوَسِيلَةً سَهْلَةً لِلْحَصُولِ عَلَى أَلْمَالِ . »

ظَلَّتْ لُويزَا صَامِتَةً بَعْضَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ قَالَتْ : « إِنِّي مَا زِلْتُ أَذْكُرُ وَجْهَ
بِلَاكُيُولِ وَمَسْلُكَهُ ، وَلِذَا فَاتَنِي لَا أُوَافِقُكَ الرَّأْيَ ، وَلَكِنْ إِذَا وَافَقْتُكَ فَإِنَّ مَوَافَقَتِي
مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُخَفِّفَ الْعِيبَ عَنْ قَلْبِي . »

قَالَ : « إِنَّ ثُومَ الصَّغِيرِ يُوَافِقُنِي الرَّأْيَ . هَيَّا بِنَا نَسِيرُ قَلِيلًا . »

وسارا في الحديقة معا ، وقد أمسكت لويزا بذراعيه ، ولم تكن تعرف عندئذ أنها تهبط وتهبط سلم السيدة سبارست ، التي كانت تراقب وتنتظر وتأمل أن ترى لويزا وقد تردت في تلك الهوة .

عادت السيدة سبارست مرة أخرى إلى شقتها الكائنة فوق البيت ، ولكنها حرصت دائما على أن تقضي بانتظام عطلة نهاية الأسبوع في البيت الريفي . وبعد مرور أسبوعين كان على السيد باولدرني أن يذهب إلى المدينة في أمر من أمور عمله ، فطلب من السيدة سبارست أن تحرص على قضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيته الريفي كعادتها . فشكرته على تلك الدعوة ، لكنها لم تذكر له شيئا عن ذلك السلم الهائل الذي خلقته بخيالها .

غادر باولدرني كوكناون صباح يوم الجمعة ، فدعت السيدة سبارست — عصر اليوم نفسه — ثوم الصغير ليتناول معها الشاي . وفي تمام الرابعة ، وبعد أن انصرف موظفو البيت ، أغلق ثوم بخزائنه ، وأسرع إلى الطابق العلوي حيث تقيم السيدة سبارست .

سألته : « لقد فكرت أنك ربما لحب أن تستمتع بوجبة صغيرة يا سيد ثوم . أخبرني . كيف حال السيد هارثهاوس ؟ »

أجابها وهو يأكل بنهم : « في أحسن حال على ما أظن . لقد كان غائبا طوال الأيام القليلة الماضية . »

قالت : « إني متعجبة به . هل سيعود قريبا ؟ »

أجابها : « سيعود مساء الغد ، وسوف اللقاء في محطة القطار لتتوجه معا إلى

المدينة ليتناول العشاء . ولن تقضي عطلة نهاية الأسبوع في البيت . »

قالت السيدة سبارست : « يجب علي ، لسوء الحظ ، أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع هنا . فهل لك أن تبلغ أختك الرقيقة أعذارني . »

أجابها : « هذا إن لم أكن يا سيده سبارست ، ولكن ليس في هذا ما يهم ؛ فإني لن أخطري ببال لو إلا عندما تراك . »

بهذه الكلمات الرقيقة عبر الحزو عن شكره للسيدة سبارست على دعوتها له لتناول الشاي !

وفي مساء يوم السبت وضعت السيدة سبارست قبعتها على رأسها ، وانسحبت منالها وانصرفت مسرعة إلى محطة القطار . وهناك رفعت الشال فوق قبعتها عندما رأت ثوم الذي لم يتعرف إليها . ووصل القطار إلى المحطة وأعقبه آخر ، إلا أن السيد هارثهاوس لم يصل . وفي النهاية ضاق ثوم بالانتظار فغادر المحطة .

وقالت السيدة سبارست في نفسها : « ليس هذا إلا من تخطيط هارثهاوس . لقد أراد أن يبقى الأخ في المدينة حتى يستطيع ... آه ! إن لويزا قد هبطت إلى القاع ، لقد هبطت السلم وتردت في الهاوية ، ولا بد أن هارثهاوس معها الآن . »

ركبت السيدة سبارست القطار التالي ، وبعد ساعة ونصف الساعة كانت تغبر الحقل متجهة إلى الحديقة . وكانت توافد البيت مفتوحة ، إلا أن السيدة سبارست سارت في هدوء حول الحديقة وكلها غيور ترقب وأذان تنصب . ولم تكن تريد أن تتبعع عن شجيرات الحديقة . وأخيرا تهاوت إلى سمعها أصوات

خَافَتِ فَمَيَّزَتْ صَوْتَهُ وَصَوْتَهَا . إِنَّهَا حُطَّةٌ لِإِعَادِ الْآخِ ، وَهِيَ هُما يَجْلِسَانِ مَعًا فَوْقَ
جَذْعِ شَجَرَةٍ بِالْحَدِيقَةِ ، فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُمَا فِي هُدُوءٍ ، وَلَكِنْ مَا هَذِهِ الضَّوَّاءُ ؟
إِنَّهُ الْجِصَّانُ ! جِصَّانُ هَارْتْهَافُوسُ ! إِذَا فَهُوَ لَمْ يَنْجَهِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَإِنَّمَا رَكِبَ
جِصَّانَهُ وَاتَّجَهَ بِهِ نَحْوَهَا مُبَاشَرَةً . وَأَنْصَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ إِلَى صَوْتَيْهِمَا ،
فَسَمِعَتْ هَارْتْهَافُوسَ يَقُولُ :

« وَلَكِنَّكَ وَخَذِكِ يَا أَعَزَّ النَّاسِ ! مَاذَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ »

أَجَابَتْهُ لُويزَا : « لَيْسَ هُنَا . »

أَحَاطَهَا هَارْتْهَافُوسُ بِذِرَاعِهِ قَائِلًا : « أَيْنَ إِذَا يَا غَزِيرَتِي ؟ »



قَالَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ فِي نَفْسِهَا : « آه ... يَا غَزِيرَتِي ... إِنَّكُمَا لَا تَعْرِفَانِ
مَنْ يُرَاقِبُكُمَا . »

وَسَمِعَتْ لُويزَا تَقُولُ : « لَيْسَ هُنَا . يَجِبُ أَنْ تَتْرَكْنِي وَخَذِي هُنَا . »

قَالَ : « يَا غَزِيرَتِي لُويزَا يَجِبُ أَنْ تَلْتَقِي فِي مَكَانٍ مَا . لَقَدْ قَطَعْتَ ثَمَانِينَ
كِيلُومِترًا عَلَى ظَهْرِ جَوَادِي حَتَّى الْفَاكِ ، وَلَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرَكَكَ الْآنَ . »

قَالَتْ : « بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ ذَلِكَ . »

وَحَاولَتْ أَنْ تَنْهَضَ وَلَكِنْ ذِرَاعُهُ مَنَعَتْهَا . وَسَمِعَتْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ يَقُولُ :
« إِنِّي أُجِبُكَ يَا لُويزَا ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ . » وَكَانَ صَوْتُهُ يَنْخَفِضُ
أُخَيَّانًا لِيَصِيرَ هَمْسًا ، وَكَانَ يَتَوَسَّلُ إِلَيْهَا أحيانًا أُخْرَى قَائِلًا : « لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَبْقَى
هُنَا وَحِيدَةً بِدُونِ صَدِيقٍ ، وَسَوْفَ أَغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ إِذَا جِئْتُ مَعِي . »

أَجَابَتْهُ لُويزَا فِي صَوْتٍ خَافِتٍ لَمْ تُمَيِّزْهُ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ ، وَلَكِنَّهَا اعْتَقَدَتْ
أَنَّهَا قَدْ اتَّفَقَا عَلَى الْفَقَاءِ ؛ إِذْ كَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ كَلِمَةَ « اللَّيْلَةُ » فِي وَضُوحٍ تَامٍ .

وَأَتَلَقَّى هَارْتْهَافُوسُ بِجِصَّانِهِ بَعِيدًا عَنِ الْإِسْطِطِيلِ ، أَمَّا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ فَقَدْ
تَبِعَتْ لُويزَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَكَانَ الْمَطَرُ قَدْ بَدَأَ يَنْهَمِرُ خَفِيفًا ، ثُمَّ أَزْدَادَ غُرَارَةً ،
فَتَوَقَّفتْ تَحْتَ بَعْضِ الْأَشْجَارِ لَا تَعْرِفُ مَاذَا تَفْعَلُ . وَلَكِنْ لُويزَا ظَهَرَتْ فَجَاءَةً مَرَّةً
أُخْرَى ، وَكَانَتْ تَرْتَدِي مَعْطَفًا ، فَقَالَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ لِنَفْسِهَا : « سَوْفَ
تَهْرُبُ مَعَهُ . لَقَدْ سَقَطَتْ بِالْفِعْلِ فِي الْهُوَّةِ ! »

أَسْرَعَتْ لُويزَا إِلَى مَحْطَةِ الْقِطَارِ تَتْبَعُهَا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ غَيْرَ الْخَشَائِشِ
الْمُبْتَلَةِ ، وَوَسَطَ الظَّلَامِ الدَّامِسِ وَالْأَمْطَارِ الْغَزِيرَةِ . وَتَوَقَّفتْ لُويزَا اثْنَاءَ سَيْرِهَا ؛

فَتَوَقَّفتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ أَيضًا ، وَعِندَما وَاصَلَتْ لُويزا السَّيْرَ تَبِعَتْها السَّيِّدَةُ
سِيارِيتَ بِدَوْرَها وَهي تَلَوِّحُ بِقَبْضَتِها في الْهَواءِ .

وَصَلّا إلى الْمَحْطَةِ فَغَطَّتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ رَأْسَها بِالْشَّالِ . وَرَكِبَتْ السَّيِّدَتانِ
الْقِطارَ الْمُتَّجِةَ إلى كُوكْناون . وَكانَتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ تُحَدِّثُ نَفْسَها قَائِلَةً :
« يَجِبُ أَنْ أَتَّبِعَها . ثَرى أَيْنَ سَتَقَابِلُهُ ؟ »

وَعِندَما وَصَلَ الْقِطارُ إلى كُوكْناون . كانتِ الْمَدِينَةُ غارقةً في مِياهٍ أَشْبَهَ بِمِياهِ
الْفَيْضانِ ، وَانْدَفَعَ خَمْسُونَ أَوْ سِتُونَ مِنْ رُكَّابِ الْقِطارِ مُتَّجِهِينَ إلى الْعَرَباتِ الَّتِي
أَصْطَلَقَتْ خَارجَ الْمَحْطَةِ . وَتَطَلَّعتِ السَّيِّدَةُ سِيارِيتَ إلى كُلِّ هَذِهِ الْعَرَباتِ
وَتَمَحَّصَتْها بَحْثًا عَنِ لُويزا ، وَلَكِنَّها لَمْ تَجِدْها . فَقالَتْ في نَفْسِها : « إِنَّها لا تُزَالُ
في الْقِطارِ ، وَسَتَنْزِلُ في الْمَحْطَةِ التَّالِيَةِ حَيْثُ سَتَقَابِلُهُ ! » وَعادَتْ بِسُرْعَةٍ تَحَوُّ
الْقِطارِ وَأَخَذَتْ تُعْجِزُ بِجَانِبِهِ جِئَةً وَذَهابًا وَهي تَنْظُرُ داخِلَ الْعَرَباتِ مِنْ خِلالِ
نَوافِذِها ، وَلَكِنَّها لَمْ تَجِدْ لُويزا . وَتَحَرَّكَ الْقِطارُ تارِكًا السَّيِّدَةَ سِيارِيتَ وَقَدْ
بَلَّغَتْها الْمِياهُ ، وَتَمَلَّكَها الْغَضَبُ وَالضَّيقُ بَعْدَ أَنْ خابَتْ آمالُها ، فَانْفَجَرَتْ باكِيةً ،
ثُمَّ قالَتْ : « لَقَدْ فَقَدْتُ كُلَّ أثرٍ لَها ! »

كانَ السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ يَمُضِي عَطْلَةً نِهايَةَ الْأُسْبُوعِ في بَيْتِهِ ، وَكانَ يَرْقُبُ
الْعاصِفَةَ مِنْ نافِذَةِ عُرْفَتِهِ عِندَما فَتَحَ الْبابَ ؛ فَالْتَفَتَ بِسُرْعَةٍ لِيَرى لُويزا أَمامَهُ تَخْلُجُ
قُبْعَها وَتُحَاطِبُهُ قَائِلَةً : « يَجِبُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ يا أُمِّي . »

قالَ : « لُويزا ! ماذَا حَدَثَ ؟ أَرَأَيْكَ مُبْتَلًةً . هَلْ كُنْتَ تَسِيرِينَ وَسَطَ هَذِهِ
الْعاصِفَةِ الْهَوِجاءِ ؟ »

أجابَتْ : « نَعَمْ . » وَيَبْدُو أَنَّها لَمْ تُلْحِظْ مَلايِسَها الْمُبْتَلَّةُ ، وَتَرَكَتْ مِعْطَفَها

سَقَطَ على الْأَرْضِ وَقَدْ شَحِبَ لَوْنُها وَارْتَعَدَ جَسَدُها . وَشَعَرَ وَالْدها بِالْخَوْفِ
عَليْها ، إِلَّا أَنَّها مَدَّتْ يَدَها الْبارِدَةَ وَوَضَعَتْها على ذِراعِهِ قَائِلَةً : « لَقَدْ تَوَلَّيْتُ يا أُمِّي
لِرَبِّتي وَتَدْرِيبِي مِنْذُ طُفُولَتِي . »

قالَ : « نَعَمْ يا لُويزا . »

قالَتْ : « إِنَّكَ لَمْ تُمْنَحْنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي في حَياتي . أَيْنَ ذَلِكَ الْحُبِّ الَّذِي كانَ
مِنْ الْواجِبِ أَنْ يَمَلَأَ قَلْبِي ؟ إِنَّ قَلْبِي خاوٍ . هَلْ تُذَكِّرُ آخِرَ مَرَّةٍ نَحَدَّثْنا فِيها في
هَذِهِ الْغُرْفَةِ ؟ »

لَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ مُسْتَعِدًّا لِسَماعِ مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِماتِ الَّتِي قالَتْها
أَبْنَتُهُ ، فَأجابَها دُونَ تَفْكيرٍ : « نَعَمْ يا لُويزا أَذْكَرُ ذَلِكَ . »

قالَتْ : « كَمْ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّكَ ساعَدْتَنِي وَقَتَها . إِنَّني لا أَلْمُوكَ آلانَ يا أُمِّي على
أَيِّ شَيْءٍ ؛ فَلَمْ يَكُنْ بِاسْطِيعاتِكَ يَوْمًا أَنْ تُعَلِّمَ الْآخِرِينَ أَشْياءَ لا تُعَلِّمُها أَنْتَ
لِنَفْسِكَ . وَلَكِنْ أَهْ ، لَوْ أَنَّكَ عَلَّمْتَنِي الْأَشْياءَ الصَّحِيحَةَ أَوْ لَمْ تُعَلِّمْنِي شَيْئًا على
الْإِطلاقِ . لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَفْضَلَ وَأَسْعَدَ حَالًا مِمَّا أَنَا فِيهِ . »

أُحْنى السَّيِّدُ غِراذِغِرايِنْدُ رَأْسَهُ عِندَ سَماعِهِ هَذِهِ الْكَلِماتِ ، وَقالَ : « يا طِفْلَتِي
الْمِسْكِينَةُ لَمْ أَكُنْ أَعرِفُ أَنَّكَ غَيْرُ سَعِيدَةٍ . »

قالَتْ : « أُمّا أَنَا فَكُنْتُ أَعرِفُ ذَلِكَ دائِماً . فَكُلُّ ما تُعَلِّمُهُ كانَ خَطَأً يا أُمِّي ،
وَمَا كُنْتُ أَجِدُ السَّلْوى إِلَّا في ... » وَصَمَتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ قالَتْ : « في فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَهي أَنَّ الْحِياةَ قَصِيرَةٌ . »

قالَ مُشْفِقًا : « وَلَكِنَّكَ صَغِيرَةٌ السِّنِّ يا لُويزا ! »

قالت : « نعم ، لقد دبرت أمر زواجي ورشحت لي زوجا . وقد قبلته لأنه لم يكن هناك ما يستحق المناقشة ؛ فقد كنت أعرف أنني لا أحيه . وكنت تعرف أنك ذلك أيضا ، وكان هو أيضا يعرفه . لقد كنت أمل أن أمد يد المساعدة ليوم ؛ لأنه كان يُشارِكُنِي في تعاسي ، وكان هو الشخص الوحيد الذي يُمكنني أن أشعر نحوه بأحاسيس الحب والشفقة . لقد كان هو السبب والمهزب . ولكن هذا لا يعني شيئا الآن ، وإن كان من الممكن لك أن تُبدي بعض العطف على نوم يا أبي . »

وأخذها والدها بين ذراعيه قائلا : « ماذا أستطيع أن أفعل يا طفلي ؟ اطلبي ما تشائين . »



قالت : « أريد مُساعدتك يا أبي ، فإن لي صديقا يختلف عن كل من عرفتهم من الرجال : فهو إنسان عطوف له تجاربه في الحياة ، ولا يدعي الأهمية ، ويُشارِكُنِي بعض أفكاره ، ويهتم بأمره . »

قال السيد غراذغرايند وهو يرتعد : « يهتم بك يا لويزا ! »

قالت : « إنه يهتمني يا والدي ، بل يستطيع أن يقرأ أفكاره . لقد تبين بسرعة الحقائق التي أحاطت بزواجي . إنني لم أرتكب خطأ يا أبي . وقد ترغب في أن تسألني هل أحيه أم لا ؟ حسنا ، إنني لا أعرف ، ولكنني أستطيع أن أقول لك من المحتمل أن أحيه . » ثم رفعت يديها عن كتفي والدها ، وبذلت جهدا هائلا لتهي خديتها ، فقالت : « لقد أخبرني مساء اليوم أنه يُحبني ، ويتنظر أن أقابله ، ولا أظن أنني أشعر بالأسف أو بالحجل مما أفعل ، وإن كنت أعرف أمرا واحدا هو أن تعليمك لي يا أبي لن يكون فيه خلاصي ، ولن يتقذني مما أنا فيه ، ويجب عليك أن تجد سبيلا آخر لإنقاذي . »

وعندما وجدها تنهار على الأرض ، أمسكها بقوة ، ولكنها أطلقت صرخة مروعة قائلة : « ساموث إن أمسكتني ! دعني أسقط ! دعني أسقط ! »

أرقدتها على الأرض عند قدميه ليرى أمام ناظره كل كبرياء قلبه ، وكل ما حوته أفكاره من حقائق مُمددا على الأرض .

الفصل الثامن عشر

قَضَتْ لُويزَا لِبَلَّتْهَا فِي سِتُونِ لُودَج ، وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظَتْ فِي الصَّبَاح . وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي غُرْفَتِهَا الْقَدِيمَةِ . وَكَانَتْ سِيسِي قَدْ حَمَلَتْهَا إِلَى فَرَاشِهَا بِمُسَاعَدَةِ الْخَادِمَةِ ، وَقَضَتْ شَطْرًا مِنَ اللَّيْلِ بِجَوَارِهَا .

جَاءَتْ إِلَيْهَا شَقِيقَتُهَا الصَّغُورَى جِين وَأَخَذَتَا تَحَدَّثَانِ مَعًا .

سَأَلَتْهَا جِين : « هَلْ أُعْجِبْتِكِ غُرْفَتُكَ ؟ لَقَدْ حَافَظْتُ سِيسِي عَلَى وَضْعِ الْغُرْفَةِ مِنْذُ أَنْ تَرَكَتِ الْبَيْتَ . »

شَعَرَتْ لُويزَا بِمَا تَمْتَنِعُ بِهِ شَقِيقَتُهَا مِنْ رَقَّةٍ وَعُذُوبَةٍ . وَعِنْدَمَا جَاءَ وَالِدَاهُمَا أَلَسِيْدُ غِرَاذْغِرَايْنِدَ إِلَى الْغُرْفَةِ انْصَرَفَتْ جِين ، وَسَادَ الْغُرْفَةُ مَشْهَدُ خَزِيْنٍ : إِذْ أُنْحَى أَلَسِيْدُ غِرَاذْغِرَايْنِدَ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِهِ بِسَبَبِ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ أَبْنَتُهُ مِنْ مَتَاعِبٍ وَصِعَابٍ فِي حَيَاتِهَا ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ يَتَقَدَّرُ دَائِمًا فِي صَوَابِ آرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ عَنِ التَّرْبِيَةِ .

سَأَلَهَا : « هَلْ يُمَكِّنُ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةُ أَنْ تَتَوَافَرَ لِأَيِّ شَخْصٍ الْحَكْمَةُ فِي أَتْجَاهَيْنِ أَوْ مَجَالَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ؟ يَتَقَدَّرُ الْبَعْضُ أَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ ، وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ مَا لِلْعَقْلِ مِنْ حِكْمَةٍ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَوْمِنْ بِصِحَّةِ ذَلِكَ الرَّأْيِ ؛ وَلَعَلِّي كُنْتُ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ . »

وَمَدَّ غِرَاذْغِرَايْنِدَ يَدَهُ وَلَمَسَ نَحْصَلَاتِ شَعْرِ لُويزَا الَّتِي كَانَتْ تُعْطِي وَسَادَتَهَا ،

وَأَضَافَ قَائِلًا : « كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَتَعَيَّبُ عَنِ الْبَيْتِ ، وَلَكِنْ أَوْلَادِي كَانَ لَهُمْ مُدَرِّسُهُمْ دَائِمًا ، وَسَارَ فِي تَعْلِيمِهِمْ عَلَى الْمَنْهَجِ نَفْسِهِ الَّذِي سَرَتْ أَنَا عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ مَعَهُمْ سِيسِي بِطَبِيعَةِ الْحَالِ وَلِفَتْرَةِ طَوِيلَةٍ . فَهَلْ تَعْتَقِدِينَ يَا عَزِيزَتِي أَنَّ جِين أَسْعَدُ حَالًا مِنْكَ ؟ »

قَالَتْ لُويزَا : « إِنَّ إِجَابَةَ هَذَا السُّؤَالِ تَرْثِسِمُ عَلَى وَجْهِهَا . فَإِنَّ كَانَتْ قَدْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَجَنَّبَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكَتُهُ لَوْجِبَ عَلَيْهَا أَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ شُكْرًا . »

قَالَ وَالِدُهَا : « إِنَّكَ يَا صَغِيرَتِي وَإِنْ كُنْتَ لَا تَتَّحِينَ بِاللَّوْمِ عَلَيَّ ، إِلَّا أَنِّي الْيَوْمَ نَفْسِي . » وَأَخْنَى رَأْسَهُ وَهُوَ يَقُولُ بِهَدْوٍ : « يَبْدُو أَنَّ الْحُبَّ قَدْ غَيَّرَ الْكَثِيرَ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، فَهَنَّاكَ أُمُورٌ لَمْ يُفْلِحِ الْعَقْلُ فِي تَغْيِيرِهَا ، وَمَا كَانَ بِاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يَغْيِرَهَا ، فَتَوَلَّى الْقَلْبُ تَغْيِيرَهَا فِي هَدْوٍ . فَهَلْ تُصَدِّقِينَ هَذَا ! إِنِّي أَلَا أَنْ أَقْرَ بِذَلِكَ كُلَّ تَوَاضِعٍ . »

وَلَمَّا وَجَدَهَا أَعْمَضَتْ عَيْنَيْهَا ، وَلَمْ تُجِبْهُ عَنْ سُؤَالِهِ ، خَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ فِي هَدْوٍ ، وَلَكِنْ لُويزَا اسْتَرْجَعَتْ فِي ذَاكِرَتِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَحَدَّثَتْ فِيهِ إِلَى وَالِدَتِهَا بِشَأْنِ زَوَاجِهَا ، يَوْمَ أَنَّ كَانَتْ سِيسِي تَجْلِسُ إِلَى جَوَارِ فَرَاشِهَا ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَاتٍ كُلُّهَا إِحْسَاسٌ بِالشَّقِيقَةِ ، وَهِيَ نَظْرَاتٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمَحُوهَا مِنْ ذَاكِرَتِهَا أَوْ تَغْفِرَهَا لَهَا ، وَآلَانَهَا هِيَ ذِي النَّتِيجَةِ ، أَنَّ ابْنَةَ الْمَهْرَجِ هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ الْحُبَّ إِلَى الْبَيْتِ .

وَبَيْنَمَا هِيَ غَارِقَةٌ فِي أَفْكَارِهَا شَعَرَتْ بِيَدٍ دَافِقَةٍ تَلْمَسُ رَقَبَتَهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَفْتَحْ عَيْنَيْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ شَعَرَتْ بِالْذَمْعِ تَمَلَّأَتْهُمَا . وَشَعَرَتْ بِمَنْ يَلْمِسُ بِوُجْهِتِهِ

الْمُبَلَّلَةِ وَجَنَّتْهَا ، فَظَاهَرَتْ بِأَنَّهَا اسْتَقْبَلَتْ لِنُوحَا مِنْ الْيَوْمِ لِتَجِدَ سِيسِي أَمَامَهَا
تَقُولُ : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ أَرَعَجْتُكَ . هَلْ لِي أَنْ أَبْقَى هُنَا مَعَكَ ؟ »

أَجَابَتْهَا لُويزَا : « وَلَكِنْ أُخَيِّ سَتَقْبَلُكَ ، فَأَنْتِ كُلُّ شَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا . »

قَالَتْ سِيسِي : « كَمْ أَوْدُ أَنْ أَكُونَ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ أَنْتِ . »

نَهَضَتْ لُويزَا مِنْ فِرَاشِهَا وَوَقَفَتْ بِجَوَارِهِ ، وَسَأَلَتْهَا : « هَلْ أُرْسِلُكَ وَالَّذِي
إِلَى هُنَا . »

أَجَابَتْهَا : « لَا ، لَمْ يَرْسَلْنِي ، وَلَكِنَّهُ قَالَ إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَجِيءَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ
لَعَلَّكَ لَا تَرْغِبِينَ فِي بَقَائِي . »

سَأَلَتْهَا لُويزَا : « هَلْ كَرِهْتِكِ يَوْمًا إِلَى هَذَا الْخَدِّ ؟ »

أَجَابَتْهَا سِيسِي : « أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ صَحِيحًا ، فَقَدْ أُخْبِئْتُكَ دَائِمًا ، وَقَدْ
تَغَيَّرَ الْكَثِيرُ مِنْ طَبْعِكَ قَبْلَ أَنْ تَتْرَكِي الْبَيْتَ . وَلَمْ أَذْهَبْ لِذَلِكَ كَثِيرًا ، فَقَدْ كُنْتُ
فِي غَايَةِ الْذِكَاةِ وَالْمَهَارَةِ عَلَى حِينِ كُنْتُ أَنَا غَايَةً فِي الْغَبَاءِ . » وَأَضَافَتْ وَقَدْ غَلَتْ
الْحُمْرَةُ وَجَنَّتَيْهَا : « وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَجْرَحْ مَشَاعِرِي . »

كَانَتْ مَشَاعِرُ سِيسِي قَدْ جُرِحَتْ بِالْفِعْلِ ، وَكَانَتْ لُويزَا تُدْرِكُ ذَلِكَ ، فَتَنَاولَتْ
يَدَ سِيسِي قَائِلَةً : « إِنِّي مُتَكَبِّرَةٌ وَقَاسِيَةٌ ، وَكَثِيرًا مَا تَمْلِكُنِي الْغَضَبُ حَتَّى إِنِّي
كُنْتُ أَظْلِمُ الْآخَرِينَ بِمَنْ فِيهِمْ نَفْسِي . أَلَا تُجِدِينَ فِي هَذَا مَا يَذْفَعُكَ إِلَى
كَرَاهِيَّتِي ؟ »

أَجَابَتْهَا : « نَعَمْ . »

قَالَتْ لُويزَا : « كَمْ يُخْزِنُنِي يَا سِيسِي أَنْ أُجِدَنِي قَدْ بَدَأْتُ مُوَحَّرًا أَذْرِكُ أَبْسَطَ
الْحَقَائِقِ ! إِنَّنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعَلِّمُنِي الْإِحْتِرَامَ وَالشَّرَفَ وَالْحُبَّ . أَلَا تُجِدِينَ
فِي ذَلِكَ مَا يَجْعَلُكَ تَكْرَهِيَنِي ؟ »

أَجَابَتْهَا سِيسِي : « نَعَمْ . »

الْقَتْ لُويزَا بِنَفْسِهَا عِنْدَ قَدَمَيْ سِيسِي وَأَمْسَكَتْ بِذَيْلِ ثَوْبِهَا قَائِلَةً : « إِغْفِرِي
لِي يَا سِيسِي ! إِرْحَمِيَنِي وَسَاعِدِيَنِي ! اسْتَمَحِي لِي أَنْ أَضَعَ رَأْسِي عَلَى قَلْبِكَ
الْمُحِبِّ ! »

صَاحَتْ سِيسِي قَائِلَةً : « بِالطَّبَعِ يَا عَزِيزَتِي ! » وَضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا .

بَقِيَ جِيَمِسُ هَارْتْهَاؤُسُ مُنْتَظِرًا بِالْكَفَنُوقِ ، لَعَلَّهُ يَتَلَقَّى رِسَالَةً مِنْ لُويزَا ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَتَلَقَّ شَيْئًا . وَاعْتَدَرَ لَيُومَ الصَّغِيرِ عِنْدَمَا قَابَلَهُ يَوْمَ الْآخِدِ .

كَانَ ثَوْمُ يَشْعُرُ بِالْقَلَقِ ، وَشَكَا مِنْ أَنْ يَبْتَرَزَ بَدَأُ يَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَكَانَ
السَّيِّدُ بَاوْنْدِرِي مُتَعَبًا ، أَمَّا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتْ فَقَدْ غَادَرَتْ مَدِينَةَ كُوكْتَاوَنَ فِي
عَرَبَةٍ بِصُورَةٍ غَامِضَةٍ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ .

إِنْتَابَ الْقَلْقُ السَّيِّدُ هَارْتْهَاؤُسُ مَسَاءَ الْآخِدِ ، إِذْ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ
كَشَفَ عِلَاقَتَهُ بِلُويزَا ، أَوْ لَعَلَّ بَاوْنْدِرِي قَدْ عَرَفَ سِرَّهُمَا . وَكَانَ يَسْأَلُ : أَيْحِبُّ
عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَحِمَ فِي عِرَاكِ مَعَ زَوْجِ لُويزَا ؟ لَكِنَّهُ قَالَ فِي نَفْسِهِ : « إِنِّي لَا أَجِدُ
الْمَلَائِمَةَ . »

وَحَاوَلَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهَدُوءِهِ ، فَطَالَمَا تَمَالَكَ نَفْسُهُ إِزَاءَ الْعَدِيدِ مِنَ الصَّعَابِ .
وَلِهَذَا لَمْ يَرِ فِي تِلْكَ الْمَشْكِلَةِ الصَّغِيرَةِ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِ عَشَاءَهُ ؛ فَتَنَاولَ

عشاءه بشهية ، ثم استغرق في قراءة كتاب إلى أن جاءه أحد خدم الفندق قائلا :
« ثمة سيّدة ترغب في مقابلتك يا سيدي . »

هَبْ وافقاً بسرعة وهو يقول : « ترغب في مقابلتي ؟ أدخلها يا رجل . »

دخلت الغرفة فتاة لم يسبق أن رآها هارثاوس من قبل ، وكانت ترتدي ملابس
بسيطة ، وكانت على قدرٍ وافٍ من الجمال والهدوء . سألتها : « هل أنت السيّدة
هارثاوس ؟ »

أجابها : « نعم . » ثم همست لنفسه : « إن عينيها من أجمل ما رأيته في
حياتي . »



قالت : « إن رسالتي إليك سيّدة يا سيدي ، فهل اعتمد عليك في الحفاظ على
ميراثها ؟ »

أجابها : « في استطاعتك ذلك . »

قالت : « لعلك الآن قد امتنعت سبب وجودي هنا . »

قال هارثاوس محدثاً نفسه مرة أخرى : « ولها صوت جميل أيضاً . » ثم
قال لها : « إنني قلق على إحدى السيّدات منذ أمس ، فهل قدمت من عندها ؟ »
أجابته : « نعم . »

سألها : « وأين هي الآن ؟ »

أجابته : « إنها في بيت والديها . فقد ذهبت هناك ليلة أمس على عجل أثناء
العاصفة ، وأنا أعيش في هذا البيت ، وقد قضيت ليلتي معها ، ويمكنني أنؤكد
يا سيدي أنك لن تراها مرة أخرى . »

تنفّس هارثاوس نفساً عميقاً في محاولة منه لأن يمين تفكيره فيما يسمع ؛
فهذه الفتاة رغم صغر سنّها قالت الحقيقة ، كما تفهمها دون ادعاء أو مواربة .
قال لها : « كم يذهشني ذلك ! هل كلّفك تلك السيّدة ينقل هذه الرسالة
اليائسة إليّ ؟ »

أجابته : « لا ، إنها لم تفعل ذلك . »

قال : « إذا فليست تلك رغبتها . وربما سارها مرة أخرى . »

قالت له : « ليس هناك أدنى أمل في ذلك يا سيدي ، وعليك أن تصدق ما أقوله . »

قال : « علي أن أصدق ؟ ولكني لا أريد ولا أستطيع أن أصدق ... »

قاطعته سيسبي قائلة : « تلك هي الحقيقة : لا أمل في أن تراها إطلاقاً . »

حاول هارثهاوس أن يتنسيم لها ، ولكن آيسامته ضاغت هباء ، فقد كان تفكيرها مشغولاً بعيداً عنه ، فقال لها : « حسناً ! يبدو أنك واثقة بما تقولين . ولكن هذه السيدة لم ترسلك إلي ... وهذا صحيح ، ليس كذلك ؟ »

أجابته : « إن حبي لها هو الذي أتى لي إلى هنا ، وحبيها لي هو الذي يقود خطاي . فانا عرفت كل ما يدور بعقلها وبقلبها . لقد حكيت لي عن زواجها ، وحكيت لك أيضاً لأنها وثقت بك . »

شعر هارثهاوس بالآلم يلمس قلبه فقال : « لعل أولئك الذين يتقنون في غير حكماء ؛ فوالد هذه السيدة آله ، وأخوها جزو ، وزوجها دب . فإذا كنت قد سببت لها المتاعب ، فكُل ما أستطيع قوله أنني ما أزدت يوماً الإساءة إليها بأي شكل من الأشكال . وآلان أراك تلوميني يا سيدي الشابة ، وهذا يعني أنني قد ارتكبت خطأ ، وقد أقبل ذلك منك وإن كنت لا أقبله من أي شخص آخر . ولا أعتقد أن صفاتي سوف تتغير ، ومن ثم يجب أن أعود نفسي على ذلك الموقف الجديد ، وهو أنني قد لا أرى تلك السيدة مرة أخرى . »

قالت سيسبي بمزيج من الرقة والحزم : « يجب عليك أن تصلح ما أفسدته بأن تغادر هذه المدينة . لا تعد إليها مرة أخرى . وليس هذا عليك بكثير ، كما

أنه ليس في ذلك ما يكفي ، ولكنه شيء ما وإن كان ضرورياً ، وهذا سير يني وبينك يا سيدي هارثهاوس . غادر كوتاون الليلة ولا تعد إليها أبداً . »

قال : « ولكني ... ولكني هنا في مهلة عامة ، وقد يكون ذلك غباء مني ولكني سأدخل البرلمان ، وتلك هي الحقيقة . »

قالت : « عليك أن ترحل الليلة يا سيدي هارثهاوس . »

قال : « فكري في العار ! » وتوقف هنيهة ثم سأل : « ولكن إذا ذهبت فهل يظل سبب مغادرتي طي الكتمان ؟ »

أجابته : « سأبقى بك يا سيدي ، وستبقى لي . »

راح هارثهاوس يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يضع ذقائق ، ثم عاد إلى سيسبي وضجك قائلاً : « إن المقدّر سيكون ، وهذا هو ما سيكون . لقد هزمتني يا سيدي الشابة ! وآلان هل لي أن أعرف اسم خصمي . »

سألته : « إسمي أنا يا سيدي ؟ » ثم اتجهت نحو الباب .

أجاب : « نعم ، وهو الاسم الوحيد الذي أود أن أعرفه الليلة . »

قالت : « سيسبي جوب . »

سألها : « هل أنت من أقارب السيدة ؟ »

أجابته : « لا ، إنني ابنة مهرج من مهرجي السيرك ، تركني والدي وأخذني السيد غراذغرايد رجمة بي ، وأعيش في بيته منذ ذلك التاريخ . » وغادرت

تهاوى السيد هارثاوس جالساً وهو يقول لنفسه : « إن هذا ما يكتمل به العار . إنه مهرج بالسيرك ! وما هي ذي قد أفلحت في أن تجعل هارثاوس خائماً في أصبعها الصغير . »

ترك هارثاوس رسالة صغيرة لأخيه قال فيها : « أخي ، لقد ضيقت ذرعاً بكوكناون ، فقرررت أن أذهب إلى مصر . وسوف أكتب إليك مرة أخرى من القاهرة . »

جيم .

بعد ذلك بساعة واحدة ركب هارثاوس وخدامه القطار المتجه إلى لندن .

الفصل التاسع عشر

تيسبت السيدة سباريت أن السيد باونديري موجود في لندن ؛ فسافرت إليه صباح يوم الأحد . والتقت به في الفندق الذي ينزل به ، وأبلغته بأن زوجها قد هرب مع السيد هارثاوس . وفي وقت متأخر من مساء الليلة نفسها ؛ عاد السيد باونديري والسيدة سباريت إلى مدينة كوكناون ، وأتجها مباشرة إلى شتون لودج ، وأفتحا غرفة السيد غراذغرايند .

صاح باونديري : « يا غراذغرايند ، لدى السيدة سباريت ما تؤد أن تقول لك عن آبتيك الذكيّة . »

دهش غراذغرايند ، وقال له : « لقد أرسلت إليك خطاباً ليلة أمس . ويتلو أنك لم تتسلمه بطبيعة الحال ... »

قاطعه باونديري صائحاً : « إنه ليس وقت خطابات يا سيدي ! أخبريه يا سيدي ! أخبريه بما قلته لي ! »

كانت السيدة سباريت تعاني من المرض منذ ليلة العاصفة ، وعندما حاولت الكلام لم تخرج منها إلا أصوات ضعيفة ، ففضب باونديري وصاح : « اسمع يا نوم غراذغرايند ! لقد سمعت السيدة سباريت حديثاً دار بين آبتيك وبين صديقك جيمس هارثاوس . فقد سمعت ... »

قَالَ غِرَادُغَرَايَنْدُ مُقَاطِعًا : « أَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَا دَاعِي لَأَنْ تُعِيدَهُ عَلَى مَسْمَعِي . »

صَاحَ بَاوْنِدِرُ بِيْذَهْشْتَه : « أَأَنْتَ تَعْرِفُ ! وَهَلْ تَعْرِفُ أَيْضًا أَيْنَ أَتَشْكُ الْآنَ ؟ »
أُجَابَهُ : « بِكُلِّ تَأْكِيدٍ . إِنَّهَا هُنَا . »

قَالَ : « هُنَا ؟ ! »

قَالَ غِرَادُغَرَايَنْدُ : « أَرْجُو أَلَّا تَصْرُخَ يَا بَاوْنِدِرُ بِيْ . لَقَدْ هُرَعْتُ لَوِيزَا إِلَى هُنَا عِنْدَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجِدَ لِنَفْسِهَا مَهْرَبًا مِنْ هَارْتِهَاوَس ، وَسَارَتْ وَسَطَ الْعَاصِفَةِ إِلَى الْبَيْتِ . وَهِيَ الْآنَ مَرِيضَةٌ مُنْذُ لَيْلَةٍ أَمْسَ . »

اسْتَدَارَ بَاوْنِدِرُ بِيْ غَاضِبًا نَحْوَ السَّيِّدَةِ سِيَارْمِيْتِ وَقَالَ لَهَا : « الْآنَ يَا سَيِّدَتِي سَوْفَ يُسْعِدُنَا أَنْ نَسْمَعَ آغِيْدَارِكِ ؛ فَإِنَّ قِصَّتِكَ مُخْتَلَفَةٌ . »

بَكَتِ السَّيِّدَةُ سِيَارْمِيْتِ قَائِلَةً : « يَا سَيِّدِي ! يَا سَيِّدِي ! إِنِّي أضعُفُ مِنْ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا ؛ فَأَنَا مَرِيضَةٌ . »

قَالَ لَهَا بَاوْنِدِرُ بِيْ : « حَسَنًا يَا سَيِّدَتِي . إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ لَا تَرَالُ وَاقِفَةً بِالْبَابِ ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَعُودِي بِهَا إِلَى شَقَّتِكَ ، وَتَأْوِي إِلَى فِرَاشِكَ بَعْدَ حَمَامِ سَاجِنِ . »
صَحَبَهَا بَاوْنِدِرُ بِيْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَعَاذَ وَحْدَهُ . وَقَالَ لِرِغْرَادُغَرَايَنْدِ بِخُشُونَةٍ : « أَرْجُو أَنْ تُوضِّحَ لِي كُلَّ شَيْءٍ الْآنَ يَا غِرَادُغَرَايَنْدُ . »

قَالَ غِرَادُغَرَايَنْدُ : « يُوسُفُنِي أَنَّنَا لَمْ نَفْهَمْ لَوِيزَا فَهْمًا صَحِيحًا . »



قال باولديرني : « لا ثقل نحن يا غراذغرايند ، فقد كنت افهمها دائما . »

قال غراذغرايند : « اذا فانا لم نستطيع ذلك ، وقد اخطأت في تربيتها . »

اجابه : « انك قد اخطأت بالتأكيد . فانا لا اثق باية طريقة تربيه سوى اللطامات يا سيدي ، والضربات القاسية بالعصا . »

قال غراذغرايند : « ولكن هذا غير ممكن تطبيقه على امرأة شائبة يا باولديرني . »

سأله باولديرني بعباء : « ولماذا غير ممكن ؟ »

اجابه غراذغرايند : « لا اهمية لكل هذا الآن ، فعلينا ان نحاول اصلاح ما نجم عن ذلك من ضرر . اريد ان تساعدني ؛ فانا حزين من اجل لويزا . »

قال باولديرني : « لن اعدك بشيء يا غراذغرايند . »

قال غراذغرايند : « اود ان تترك لويزا معي بعض الوقت . فالذي ستلقاه من حب ورعاية ، سيحقق افضل النتائج ؛ فقد كانت دائما طفلتي الاثيرة . »

سأل باولديرني وقد احمر وجهه : « اود ان تبقها هنا ؟ »

اجابه غراذغرايند : « يمكننا ان نسمي وجودها هنا زيارة ، كما ان سيسي — اقصد سيسيلىا جوب — تفهم لويزا ، ولويزا تثق بها . »

قال باولديرني : « اسمع يا غراذغرايند . انا جوشيا باولديرني من كوكناون ، والزواج بي شرف يبدو ان ابنتك لا تستحقه . ولكن اخبرني ماذا يمكن ان نحقق

تلك الزيارة ؟ »

اجابه غراذغرايند : « لقد اخبرتك بالفعل . ان لويزا غير سعيدة ، وامل ان تساعدني على استعادها . فهل تجد في طلبي هذا شيئا من المغالاة ؟ انك اكبر منها شيئا ، والفرق بينكما كبير ، وانت قبلت ... »

قاطعه باولديرني بغضب قائلا : « اعرف هذا ، وذلك شأني وحدي ! »

قال غراذغرايند : « اننا جميعا قد اخطانا يا باولديرني ، ونستطيع الآن ان نصح ما وقع من خطأ . وجميل منك ان توافق على خطتي هذه . »

قال باولديرني : « انني لا اوافق على ذلك يا غراذغرايند . ولكني لن اتشاجر معك ، ومن الافضل لصديقك هارثهاوس هذا ان يغادر كوكناون قبل ان اجده في طريقي . ويجب ايضا — بطبيعة الحال — ان تعود ابنتك الى منزلي ، وسانتظرها حتى ظهر الغد ، فان لم تأت فيمكنها ان تبقى هنا الى الابد . »

قال غراذغرايند : « ارجوك يا باولديرني ، بل اتوسل اليك ان تعيد التفكير في هذا الأمر . »

قال باولديرني : « لا يا سيدي ! ان جوشيا باولديرني لا يأخذ قرارا ثم يتغير عنه . هذا كل ما اود ان اقله . طابث ليلتك ! »

انصرف السيد باولديرني عائدا الى منزله في كوكناون . ولم تعد اليه لويزا في اليوم التالي . وعند الظهر تماما اصدر باولديرني اوامره لخدمته ؛ فوضعوا ملايسها في عتد من الصناديق ارسلت الى ستون لودج . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى عرض السيد باولديرني منزله الريفي للبيع .

كَانَ لِهَذَا التَّغْيِيرِ فِي حَيَاةِ بَاوْنِدِرِي مَا أَتَاخَ لَهُ مَرِيدًا مِنَ الْوَقْتِ لِمُبَاشَرَةِ أَعْمَالِهِ .
فَقَدْ أَصْرَّ عَلَى أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ سَطَوْا عَلَى أَيْتِكَ ، وَصَارَ يَحْتَرُّ رِجَالُ
الْشَّرْطَةِ عَلَى بَذْلِ الْمَزِيدِ مِنَ الْجَهْدِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

انْقَطَعَتْ أَخْبَارُ سَتِيفِنِ بِلَاكْبُولِ ، وَظَلَّ أَمْرُ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الْعَجُوزِ سِرًّا غَامِضًا ،
وَلَكِنَّ السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي عَرَضَ مُكَافَأَةً قَدَرُهَا عِشْرُونَ جَنْتِيهَا لِمَنْ يَجِدُ بِلَاكْبُولَ .
وَأَثَارَ هَذَا قَلَى رَاشِيلَ عَلَى حِينِ اسْتَعْدَ سِلَاكْبِيرِيْدَجَ رَئِيسَ بَقَايَةِ الْعَمَالِ . فَإِذَا ثَبِتَ
أَنَّ بِلَاكْبُولَ لَيْسَ لِأَصْبَحَ سِلَاكْبِيرِيْدَجَ عَلَى صَوَابٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَعِنْدَمَا عَلِمَتْ
رَاشِيلُ بِخَبَرِ تِلْكَ الْمُكَافَأَةِ اسْتَرْعَتْ إِلَى مَنْزِلِ بَاوْنِدِرِي .

وَصَلَّ إِلَى سَتُونِ لُودِجِ ذَاتِ لَيْلَةٍ ثَلَاثَةِ ضُبُوفٍ هُمْ : السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي ،
وَرَاشِيلُ ، وَتُومُ غِرَاذْغَرَايْنِدِ الصَّغِيرُ . وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ رَافَقَتْهُمْ سِيسِي إِلَى غُرْفَةِ
السَّيِّدِ غِرَاذْغَرَايْنِدِ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ إِلَى ابْنَتِهِ لُويزَا . وَمَا إِنْ دَخَلُوا حَتَّى قُبِعَ
تُومُ الصَّغِيرُ فِي رُكْنٍ مُظْلِمٍ مِنَ الْغُرْفَةِ يُجَاوِرُ الْبَابَ . أَمَّا بَاوْنِدِرِي فَقَالَ
لِغِرَاذْغَرَايْنِدِ : « أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ أُرْغِمْتُكَ ؛ فَقَدْ دَارَ حَدِيثٌ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذِهِ
الْشَّائَةِ . » وَأَشَارَ إِلَى رَاشِيلَ . « وَيَرْفُضُ أَيْتُكَ تُومُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ، وَلَعَلَّ السَّيِّدَةَ
بَاوْنِدِرِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ لَنَا الْحَقِيقَةَ . »

وَقَفَّتْ رَاشِيلُ أَمَامَ لُويزَا قَائِلَةً : « لَقَدْ سَبَقَ أَنْ تَقَابَلْنَا ذَاتَ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ
يَا سَيِّدَتِي . »

سَمِعَ تُومُ الصَّغِيرُ ، وَلَكِنَّ رَاشِيلَ كَرَّرَتْ قَوْلَهَا : « لَقَدْ تَقَابَلْنَا مِنْ قَبْلِ ؛ أَلَيْسَ
كَذَلِكَ ؟ »

سَمِعَ تُومُ مَرَّةً أُخْرَى ، أَمَّا لُويزَا فَاجَابَتْ : « بَلَى ... لَقَدْ اتَّفَقْنَا . »

سَأَلَتْهَا رَاشِيلُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرِي أَيْنَ اتَّفَقْنَا ؟ وَمَنْ كَانَ مُوجُودًا فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ ؟ »

اجَابَتْهَا لُويزَا : « لَقَدْ اتَّفَقْنَا فِي غُرْفَةِ بِلَاكْبُولِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ مُغَادَرَتِهِ مَنْزِلَ
السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُكَ هُنَاكَ مَعَهُ ، وَكَانَتْ مَعَكُمْ سَيِّدَةُ عَجُوزٍ ، وَكَانَ
مَعِيَ أَخِي . »

عِنْدَئِذٍ سَأَلَ بَاوْنِدِرِي تُومَ : « لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرِي بِذَلِكَ يَا تُومُ الصَّغِيرُ ؟ »

اجَابَتْهُ تُومَ : « لِأَنِّي وَعَدْتُ أَخْتِي بِأَلَّا أَفْعَلَ ذَلِكَ . »

عَادَتْ رَاشِيلُ تُوجِّهَ أَسْئَلَهَا إِلَى لُويزَا فَقَالَتْ لَهَا : « هَلْ لَكَ أَيْتُهَا السَّيِّدَةُ الطَّيِّبَةُ
أَنْ تَذْكُرِي سَبَبَ مَحَبَّتِكَ إِلَى غُرْفَةِ سَتِيفِنِ ؟ »

اجَابَتْ لُويزَا : « لَقَدْ شَعُرْتُ بِالْأَسَفِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَمُدَّ لَهُ يَدَ
الْمُسَاعَدَةِ . »

قَالَ بَاوْنِدِرِي : « أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدَتِي ! . أَنْخَلِّصُ أَنَا مِنْ الرَّجُلِ ، ثُمَّ أَجِدُكَ
تُسَاعِدِينَهُ . »

سَأَلَتْ رَاشِيلَ لُويزَا : « مَا هُوَ الْمَبْلُغُ الَّذِي قَدَّمْتِهِ لَهُ ؟ »

اجَابَتْ : « قَدَّمْتُ لَهُ أَرْبَعَةَ جَنْتِيهَا ، لَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا سِوَى جَنْتِيهِينِ . »

نَظَرَتْ رَاشِيلُ إِلَى بَاوْنِدِرِي بِإِنْفَةٍ ، وَلَكِنَّهُ صَاحَ قَائِلًا : « نَعَمْ يَا سَيِّدَتِي الشَّائَةِ
يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَصْدَقَ آلَانَ يَعْضُ ذَلِكَ أَلَلُّغُو الَّذِي أَخْبَرْتَنِي بِهِ . »

بَدَأَتْ رَاشِيلُ تَبْكِي ، ثُمَّ قَالَتْ لِلْوِيْزَا : « إِنَّ سَتِيفِنَ بَلَائِكُوبَ شَابًّا أَمِينًا ، وَلَكِنْ كُلُّ مَنْ فِي كُوكْتَاوَنَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَطَا عَلَى الْبَنَاتِ . وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَأَنَا أَعْرِفُ ذَلِكَ . »

قَالَتْ لَوِيْزَا : « إِنِّي فِي غَايَةِ الْأَسَفِ . »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « سَتَوْفَ يَعُودُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، وَقَدْ اضْطُرُّ إِلَى أَنْ يَتَسَمَّى بِاسْمِهِ آخَرَ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا . وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، وَسَتَوْفَ يَعُودُ لِيُثَبِّتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِلِصٍّ . »

قَالَ بَاوْنِدِرْنِي ضَاحِكًا : « أَذْكُرِي لَنَا اسْمَهُ الْجَدِيدَ ! أَخْبِرِينَا أَيْنَ هُوَ ! »

صَاحَتْ رَاشِيلُ : « لَيْسَ هَذَا مِنَ الْعَدْلِ فِي شَيْءٍ ! إِنَّ سَتِيفِنَ لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا ؛ لَئِنْ فَانْتِي إِنْ ذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ فَانْتَهُمْ سَتَوْفَ يُخَضِرُونَهُ . أَلَا تَفْهَمُ ذَلِكَ ؟ لَا دَاعِي لِمُطَارَدَتِهِ ، فَسَتَوْفَ يَعُودُ مِنْ بَلْقَاءِ نَفْسِهِ . »

قَالَتْ لَوِيْزَا : « إِنِّي أَشْفَقُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي . »

بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ غَادَرَ كُلُّ مَنْ بَاوْنِدِرْنِي وَتَوَمَّ الْمَنْزِلَ ، وَطَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَزِمَ كُلُّ مَنْ أَلْسَيْدِ غَرَادُغْرَايْنِدَ وَسِيْسِي الصَّمْتَ .

وَالْتَفَتَتْ سِيْسِي لِحَمَوِ رَاشِيلَ وَسَأَلَتْهَا : « هَلْ يَعْرِفُ سَتِيفِنَ لِمَاذَا يُسِيءُ النَّاسُ الظَّنَّ بِهِ ؟ »

أَجَابَتْ رَاشِيلُ : « لَقَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ شَاهَدُوهُ وَهُوَ يُرَاقِبُ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَجِدُ سَبَبًا لِدَهَابِهِ هُنَاكَ ، خُصُوصًا وَأَنَّ مَنْزِلَهُ لَيْسَ قَرِيبًا مِنَ الْبَنَاتِ . »

افْتَرَحَتْ سِيْسِي أَنْ تَذْهَبَ مَسَاءَ الْيَوْمِ الْتَالِي إِلَى مَنْزِلِ رَاشِيلَ لِتَتَأَكَّدَ مِنْ عَوْدَةِ سَتِيفِنَ . وَوَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى ذَلِكَ ، وَانْصَرَفَتْ رَاشِيلُ عَائِدَةً إِلَى بَيْتِهَا .

وَبَعْدَ انْصِرَافِ رَاشِيلَ سَأَلَ غَرَادُغْرَايْنِدَ آيِنْتَهُ : « هَلْ تَعْتَقِدِينَ يَا غَزِيْرَتِي لَوِيْزَا أَنَّ بَلَائِكُوبَ قَدْ سَطَا عَلَى الْبَنَاتِ ؟ »

أَجَابَتْهُ : « لَا يَا وَالِدِي ، إِنِّي وَاثِقَةٌ بِأَنَّهُ رَجُلٌ أَمِينٌ . »

قَالَ : « هَذَا مَا تُظَنُّهُ بَلَكِ الْمَرْأَةُ أَيْضًا . وَلَكِنْ هَلْ يَعْرِفُ أَلْصُّ الْحَقِيقَتِي مَا يَقُولُهُ النَّاسُ الْآنَ ؟ أَيْنَ هُوَ ذَلِكَ أَلْصُّ الْحَقِيقَتِي ؟ مَنْ يَكُونُ ؟ »

لَاخِظَتْ لَوِيْزَا بَلَكِ النَّظْرَةَ الَّتِي ارْتَسَمَتْ فِي عَيْنَيْ سِيْسِي ، وَالَّتِي رَأَتْهَا مِنْ قَبْلِ : إِنَّهَا نَظْرَةُ تَحْمِيلٍ مَعَانِي الْحُبِّ وَالشَّفَقَةِ . وَجَلَسَتْ لَوِيْزَا إِلَى جَوَارِ وَالِدِهَا .

انْقَضَى الْيَوْمُ الْتَالِي ، وَبَيَّوَمَا بَعْدَهُ دُونَ أَنْ يَصِلَ بَلَائِكُوبُ . وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ ذَهَبَتْ رَاشِيلُ إِلَى مَنْزِلِ بَاوْنِدِرْنِي ثَانِيَةً . وَرَغِمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَحِبُّ بَلَائِكُوبَ ثِقَةً كَامِلَةً ، فَانْتَهَا أَفْضَتْ بِاسْمِهِ الْجَدِيدِ وَبَعْتُوَانِيهِ إِلَى أَلْسَيْدِ بَاوْنِدِرْنِي ، وَبَعْدَ سَتِيفِنَ فِي مَدِينَةٍ تَبْعُدُ عَنْ كُوكْتَاوَنَ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ كِيلُومِتْرًا .

ذَهَبَ بَعْضُ الرِّجَالِ لِيَأْتُوا بِسَتِيفِنَ ، وَبَقِيَ ثَوْمُ الصَّغِيرِ بِجَوَارِ أَلْسَيْدِ بَاوْنِدِرْنِي ، وَكَانَ شَدِيدَ الْإِلْتِمَاعِ إِلَى حَدِّ الْمَرَضِ ، وَكَانَ يَقْرَضُ أَطْفَالَهُ بِأَسْنَانِهِ . وَلَكِنْ الرِّجَالُ عَادُوا بِدُونِ سَتِيفِنَ ، وَقَالُوا لَا بُدَّ أَنَّهُ تَلَقَّى رِسَالَةً مِنْ رَاشِيلَ ، فَاسْتَرْعَ بِالْفِرَارِ فِي الْحَالِ . وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ أَيْنَ ذَهَبَ .

انْقَضَى أُسْبُوعٌ آخَرُ دُونَ أَنْ يَظْهَرَ سَتِيفِنَ . وَيَبْدُو أَنَّ ثَوْمَ اسْتَجْمَعَ قِسْطًا مِنْ

الشفاعة فأخذ يقول للناس : « إنَّ بلاكبول هو اللصُّ بطبيعة الحال . وإنَّ لم يكن هو اللصُّ فلماذا لم يُعَدَّ ؟ »

أين بلاكبول ؟ لماذا لم يُعَدَّ ؟

أُخِذَتْ أصداء هذه الأسئلة تتردَّد في أذني ثوم الصغير طوال الليل .

الفصل العشرون

لم يُعَدَّ ستيفن بلاكبول ، وَجَدَتْ الشَّرْطَةُ في البَحْثِ عَنْهُ . وَذَاهَبَتْ سِيسِي عَلَى الْدَهَابِ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمٍ تَقْرِيْبًا لِرِيَاةِ رَاشِيلِ فِي مَنْزِلِهَا ، وَكَانَتْ تَعُودُ دُونَ أَخْبَارٍ عَنْ سَتِيفِن . وَأَسْعَدَ رَاشِيلَ أَنَّ سِيسِي كَانَتْ تَتَّقُ بِهَا وَبَسْتِيفِن ؛ فَقَدْ جَلَسَتْ سِيسِي مَعَهَا الْحُبَّ وَالْعَزَاءَ ، وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ الْمَرْأَتَانِ صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَتَيْنِ .

وَكَانَتْ رَاشِيلُ تُرَافِقُ سِيسِي شَطْرًا مِنْ طَرِيقِ غُودَبَتِهَا بَعْدَ زِيَارَتِهَا .

وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ شَاهَدَتُهُمَا السَّيِّدَةُ سِبَارْمِيتُ تَسِيرَانِ مَعًا فِي الشَّارِعِ ، فَاسْرَعَتْ فِي الْيَوْمِ الْتَالِيِ لِرِيَاةِ رَاشِيلِ وَقَدْ تَنَاوَلَ الْعَدَاءُ ، وَوَجَّهَتْ إِلَيْهَا بَعْضَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي حَاوَلَتْ رَاشِيلُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ — وَكَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ — غَادَرَتْ السَّيِّدَةُ سِبَارْمِيتُ كُوكْتَاوَنَ بِالْقِطَارِ .

وَفِي الْمَسَاءِ تَوَجَّهَتْ سِيسِي إِلَى مَنْزِلِ رَاشِيلِ كَعَادَتِهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ عَنْدهَا أَيَّ أَخْبَارٍ عَنْ سَتِيفِن . وَغَقِبَ الزَّيَارَةُ سَارَتَا مَعًا لِبَعْضِ الْوَقْتِ ، ثُمَّ اتَّفَقَتَا عَلَى أَنْ تَلْتَقِيَا صَبَاحَ الْيَوْمِ الْآخِذِ الْتَالِيِ ، وَكَانَتْ سِيسِي خَرِصَةً عَلَى صِحَّةِ صَدِيقَتِهَا ؛ لِذَا فَكَّرَتْ أَنْ تَصْطَلِحَ بِهَا فِي نَزْهَةٍ بِالْكَرِيفِ غَسَى أَنْ يُفِيدَهَا الْهَوَاءُ النَّقِيُّ . وَفِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ غَادَرَتْ سِيسِي وَرَاشِيلُ الْمَنْزِلَ وَاتَّجَهَتَا صَوْبَ سَتُونِ لَوْدِجِ سِتْرَا عَلَى الْأَقْدَامِ .

كَانَ فِي الشَّارِعِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْعَرَبَاتِ ؛ لِأَنَّ أَخَذَ الْقِطَارَاتِ وَصَلَ إِلَيْهِنَّ إِلَى



بلا كُول ، وَقَدْ رَفَضْتُ أَنْ تَأْتِيَّ مَعِي وَلَكِنِّي ... » ثُمَّ دَفَعَتِ السَّيِّدَةُ بَغْلَرُ إِلَى الْأَمَامِ . وَعِنْدَيْهِ أَصْطَبُوعٌ وَجْهٌ بَاوْنِدِرِي بِاللُّونِ الْأَحْمَرِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اللَّونِ الْأَزْرَقِ ، وَصَاحَ قَائِلًا : « مَا مَعْنَى هَذَا كُلِّهِ يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِت ؟ »

أَجَابَتْهُ : « إِنَّهَا السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ يَا سَيِّدِي . »

صَاحَ بَاوْنِدِرِي : « إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَخْصُنِي وَخَدِي ، فَلِمَاذَا تَدْسِينَ أَنْفَكَ فِي شُؤْنِي الْعَائِلِيَّةِ ؟ »

تَهَاوَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ فِي ضَعْفٍ عَلَى أَحَدِ الْكَرَاسِيِّ ، وَأَخَذَتْ تُفَرِّكُ يَدَيْهَا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي بَدَأَتْ فِيهِ السَّيِّدَةُ بَغْلَرُ تُرْتَعِشُ وَقَالَتْ بِأَكْبَرَةٍ :

الْمَحْطَبَةُ . وَبَيْنَمَا كَانَتْ رَاشِيلُ وَسَيْسِي تَمْرَانِ أَمَامَ مَنْزِلِ بَاوْنِدِرِي شَاهِدَتَا إِحْدَى الْعَرَبَاتِ تَقِفُ بِالْبَابِ ، وَتَقْفِرُ مِنْهَا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ الَّتِي مَا إِنْ لَمَحَتْهُمَا حَتَّى صَاحَتْ : « يَا لَهَا مِنْ فُرْصَةٍ عَظِيمَةٍ ! يَجِبُ أَنْ تَشْهَدَا هَذَا الْمَنْظَرِ . » ثُمَّ صَاحَتْ تُخَاطِبُ شَخْصًا دَاخِلَ الْعَرَبَةِ : « أَخْرِجِي ! أَخْرِجِي ! وَلَا جَذْبَتِكَ وَأَخْرِجْتُكَ بِالْقُوَّةِ . »

تَجَمَّعَ النَّاسُ بِالْشَّارِعِ لِيَشْهَدُوا سَيِّدَةَ مُسَيَّنَةَ تَخْرُجُ مِنَ الْعَرَبَةِ وَقَدْ أُمْسَكَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ بِتَلَابِيحِهَا ، وَهِيَ تَقُولُ لِلنَّاسِ : « لَا تَلْمِسُوهَا ! إِنَّهَا تُخْصُنِي وَخَدِي ! » ثُمَّ صَاحَتْ تُخَاطِبُ السَّيِّدَةَ : « ادْخُلِي الْمَنْزِلَ وَإِلَّا أَدْخَلْتُكَ بِالْقُوَّةِ . »

دَخَلَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ وَمَعَهَا السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ مَنْزِلَ بَاوْنِدِرِي ، كَمَا دَخَلَتْ رَاشِيلُ وَسَيْسِي وَعَدَدٌ غَفِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَتَعَرَّفَتْ رَاشِيلُ إِلَى تِلْكَ السَّيِّدَةِ : كَانَتْ السَّيِّدَةُ بَغْلَرُ . عِنْدَيْهِ أَدْرَكَتْ رَاشِيلُ سَبَبَ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي وَجَّهَتْهَا إِلَيْهَا السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ .

وَقَفَتِ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ مُمْسِكَةً بِتَلَابِيحِ السَّيِّدَةِ بَغْلَرُ ، الَّتِي قَالَتْ بِضَعِ كَلِمَاتٍ يَهُدُوهُ ، وَلَكِنْ السَّيِّدَةُ سِبَارِسِتُ أَجَابَتْهَا : « لَا ، لَنْ أَتْرَكَكَ لِحَالِ سَبِيلِكَ . » ثُمَّ صَاحَتْ بِصَوْتٍ عَالٍ تُنَادِي السَّيِّدَ بَاوْنِدِرِي ، وَمَا إِنْ دَخَلَ بَاوْنِدِرِي الْغُرْفَةَ حَتَّى ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ أُمَارَاتُ الدَّهْشَةِ ، كَمَا ارْتَسَمَتِ الدَّهْشَةُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ مَنْ السَّيِّدُ غَرَاذِغَرَانِدُ وَثُومَ اللَّذَيْنِ كَانَا مَعَهُ .

سَأَلَ بَاوْنِدِرِي : « مَاذَا بِكَ يَا سَيِّدَةُ سِبَارِسِتُ ؟ »

أَجَابَتْهُ بِفَحْرٍ : « لَقَدْ وَجَدْتُ يَا سَيِّدِي الشَّخْصَ الَّذِي تَبَحُّثُ عَنْهُ . إِنَّهَا صَدِيقَةُ

« يا عزيزي جوشيا ! يا ولدي العزيز ! لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُحْطِي ، فَقَدْ أَوْضَحْتُ
الْأَمْرَ لَهُدِهِ السَّيِّدَةِ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ . وَكُنْتُ أَغْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ لَنْ يَرُوفَكَ . وَلَكِنَّهَا
أَكْرَهْتَنِي عَلَى أَنْ آتِي إِلَى هُنَا . »

سَأَلَهَا بَاوْنِدِرِي : « لِمَاذَا سَمَحْتَ لَهَا أَنْ تَأْتِي بِكَ ؟ لِمَاذَا لَمْ تَمْنَعِهَا
أَوْ تُلْطِمِهَا ؟ فَتَسْقِطِي أَسْنَانَهَا ؟ »

أَجَابَتْهُ السَّيِّدَةُ بِعُلْفٍ : « لَقَدْ كَاذَبْتُ تَسْتَدْعِي رِجَالَ الشَّرِطَةِ يَا وَلَدِي الْغَزِيرِ ،
وَهَذَا مَا لَمْ أَكُنْ أُرِيدُهُ يَا جُوشِيَا . لَقَدْ حَافَظْتُ عَلَى وَعْدِي لَكَ دَائِمًا . وَعِشْتُ
خِيَاثِي فِي هُدُوءٍ أَرَأَيْتَ عَنْ بُعْدٍ وَأَعْجَبَ بِكَ . وَلَمْ أَكُنْ أَخْضِرْ إِلَى كَوْنَتَانِ
إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ عَامٍ ، وَلَمْ أَخْبِرْ أَحَدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ بِأَنِّي أُمُكُ . »

أَخَذَ كُلُّ مَنْ فِي الْعُرْفَةِ يُنْصِتُ لِكَلَامِهَا ، وَرَاحَ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي يَذَرُغُ الْعُرْفَةَ
رَجِيئَةً وَذَهَابًا غَاضِبًا ، وَانْخَرَطَتِ السَّيِّدَةُ سِيَارِمَتْ فِي الْبُكَاءِ .

وَالْتَفَتَ السَّيِّدُ غِرَادُغَرَانْدُ لِحُجُو السَّيِّدَةِ بِعُلْفٍ قَائِلًا : « مَا هَذَا اللَّغْوُ الَّذِي
تَقُولِينَهُ يَا سَيِّدَتِي ؟ ! لَقَدْ أَلْقَيْتُ وَالِدَتُكَ بَاوْنِدِرِي بِهِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ عِنْدَمَا كَانَ
طِفْلًا ، وَكَانَتْ قَاسِيَةً عَلَيْهِ كُلَّ الْقَسَوَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ تَوَلَّى تَرْبِيَتَهُ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ . »

قَالَتْ السَّيِّدَةُ بِعُلْفٍ مُتَسَائِلَةً : « أَنَا كُنْتُ قَاسِيَةً ! وَأَلْقَيْتُ بِهِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ !
فَلْيَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ يَا سَيِّدِي . إِنَّ لَكَ خَيَالًا شَرِيرًا . »

لَمْ يَسْبِقْ لِلْسَّيِّدِ غِرَادُغَرَانْدُ أَنْ تَوْهَمَ أَوْ تُخَيِّلَ شَيْئًا فِي حَيَاتِهِ ؛ لَذا أَدْهَشَتْهُ
مَا سَمِعَتْهُ فَهَلْ كَذَبَ بَاوْنِدِرِي عَلَى الْجَمِيعِ ؟ ثُمَّ سَأَلَ السَّيِّدَةَ بِعُلْفٍ : « أَلَمْ يَقُولْ
أَنَّكَ تَرْبِيَةُ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ مِنْذُ كَانَ طِفْلًا صَغِيرًا . »

أَجَابَتْهُ : « لَمْ يَخُذْتُ شَيْءً مِنْ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي . إِنَّمَا لَمْ تَكُنْ الثَّرِيَاءَ ، وَلَكِنْ
عِنْدَمَا تَوَلَّى زَوْجِي ، وَجُوشِيَا فِي الثَّامِنَةِ مِنْ عُمرِهِ ، أَرْهَقْتُ نَفْسِي فِي الْعَمَلِ حَتَّى
أَسْتَطِيعَ أَنْ أُدْخِلَهُ الْمَدْرَسَةَ . وَوَجَدْتُ فِي الْعَمَلِ مُتْعَةً يَا سَيِّدِي ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَحِبُّ
أَبْنِي . وَبَعْدَ أَنْ وَقَفْتُ فِي إِيجَادِ عَمَلٍ لَهُ أَلْتَحَقَّ بِهِ ، وَاجْتَهَدْتُ فِي عَمَلِهِ أَيْضًا . وَهُوَ
الآنَ رَجُلٌ ثَرِيٌّ مِنَ الْوُجْهَاءِ ، وَإِنِّي لَفَخُورَةٌ بِهِ ؛ فَهُوَ لَمْ يَنْسَنِي قَطُّ يَا سَيِّدِي .
إِنَّهُ يَدْفَعُ لِي ثَلَاثِينَ جُنَيْتًا كُلَّ عَامٍ ، وَفِي هَذَا الْكِفَايَةِ ، بَلْ وَأَكْثَرَ مِمَّا أحتاجُ .
وَلَا يَرَاؤُ لِي مُتَخَرِجِي بِالْقُرْبَى وَهِيَ الَّتِي وَعَدْتُهُ أَنْ أُقِيمَ بِهَا دَائِمًا ؛ لِأَنَّ جُوشِيَا كَانَ
يَرْغَبُ فِي الْآلِ أَنْدَخُلَ فِي حَيَاتِهِ ، وَقَدْ حَافَظْتُ عَلَى وَعْدِي لَهُ . وَلَمْ أَبَادِلْهُ الْحَدِيثَ
طَوَالَ عِشْرِينَ عَامًا ، وَمَا كُنْتُ لِأَتِي إِلَى هُنَا لَوْلَا تِلْكَ الْمَرْأَةُ ، وَلِهَذَا فَأَنْتَ مُحْطِي
فِي تَفْكِيرِكَ يَا سَيِّدِي . لَقَدْ كُنْتُ دَائِمًا خَيْرَ أُمِّ لَوْلَدِي ، وَهَذَا مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَهُ
هُوَ بِنَفْسِهِ . »

مَا إِنَّ سَمِعَ الْحَاضِرُونَ الْخُطْبَةَ الْمُطَوَّلَةَ الَّتِي أَلْقَتْهَا السَّيِّدَةُ بِعُلْفٍ حَتَّى هَتَفُوا
لَهَا وَصَفَقُوا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَلْتَزَمَ فِيهِ السَّيِّدُ غِرَادُغَرَانْدُ الصَّمْتَ ، وَأَزْدَادُ
السَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي غَضَبًا ، حَتَّى بَدَأَ وَكَانَتْهُ يَوْشِكُ عَلَى الْإِنْتِجَارِ ، ثُمَّ لَوَّحَ بِذِرَاعَيْهِ
فِي الْهَوَاءِ ، وَصَاحَ :

« لَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ عَنْ شُؤُونِي الْخَاصَّةِ ، وَلَعَلَّهُ مِنْ الْأَفْضَلِ لَكُمْ جَمِيعًا
أَنْ تُعَادِرُوا بَيْتِي ؛ فَإِنَّا لَنْ أَنْطَرُقَ لِأَيِّ شَيْءٍ بِالشَّرْحِ . أَوْ الْإِيضَاحِ . أَمَّا بِالنِّسْبَةِ
لِثَوْبِ غِرَادُغَرَانْدِ الَّذِي سَيَصَابُ بِخَبِيَّةٍ أُمَلِّ لِمَا سَمِعَ فَإِنِّي أَقُولُ لَهُ إِنَّ وَالِدَتِي لَمْ
تُعَاوَنُ أَحَدًا فِي السُّطُوِّ عَلَى بَنِي . طَابَتْ لَيْلَتُكُمْ جَمِيعًا ! »

فَتَحَّ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي الْبَابَ لِيُخْرِجَ مِنْهُ النَّاسَ ، وَمَرَّتْ سَاعَةٌ عَرَفَ بِعُودِهَا أَهْلِي
كَوْنَتَانِ الْحَقِيقَةِ ، وَعَرَفُوا أَنَّ بَاوْنِدِرِي كَاذَبَ فِيمَا قَالَهُ ، وَأَنَّ لَهُ أُمًّا خَتُونًا مُجِبَّةً ،

وَأَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ سِوَى رَجُلٍ يَدِينُ كَذَابٍ غَضُوبٍ ، حَتَّى
السَّيِّدَةُ سَارِسَتِ فَقَدْ بَدَتْ أَكْثَرَ آخِرَامًا وَشَرَفًا مِنْ جُوشِيَا بَاوْنِدِرِي .

لَمْ تُعِدِ السَّيِّدَةُ بِفُلٍّ لُعْرًا يَحِيرُ أَحَدًا ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ أُتِيحَتْ لِبَلَاكُيُولِ قُرْصَةٌ
أَفْضَلُ ، لَكِنْ كَانَ لَدَى لُويزَا وَسِيسِي وَرَاشِيلِ مَخَافٌ . فَإِذَا تَمَكَّنَ سَتِيفِنُ مِنْ
إثباتِ بَرَاءَتِهِ ، ذَلَّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ شَخْصٍ آخَرَ مُذْنِبٍ ؛ فَذَلِيلُ بَرَاءَةِ سَتِيفِنُ يَدِينُ
شَخْصًا آخَرَ . وَكَانَتْ رَاشِيلُ تَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ عَمِلَ عَلَى الْخِيْلُولَةِ دُونَ عَوْدَةِ
سَتِيفِنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَتَلَهُ .

أَمَّا مَخَافُ سِيسِي وَلُويزَا فَكَانَتْ مُرْتَبِطَةً أَرْتِبَاطًا غَامِضًا بِيَوْمِ الصَّغِيرِ . وَلَكِنَّهُمَا
تَحْنِينًا الْإِفْصَاحَ عَنْهَا . أَوْ عَنِ الْأَفْكَارِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ فِي رَأْسَيْهِمَا ، رَغْمَ أَنَّ
كُلًّا مِنْهُمَا كَانَتْ تُذَكِّرُ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِ الْآخَرَى . وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَزْدَادَ ثُومِ
الْبِصَاقِ بِالسَّيِّدِ بَاوْنِدِرِي ، أَمَّا سَتِيفِنُ الَّذِي كَانَ الْجَمِيعُ فِي الْبِتْظَارِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَعُدْ .

وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ رَكِبَتْ سِيسِي وَرَاشِيلُ الْقِطَارَ حَتَّى إِحْدَى الْمَحَطَّاتِ الْوَاقِعَةِ
بِالْأَرِيفِ ، فِي مَكَانٍ يَتَوَسَّطُ الطَّرِيقَ بَيْنَ كُوكْتَاوَنَ وَالْمَنْزِلِ الْوَرِيفِيِّ الَّذِي كَانَ يَمْلِكُهُ
بَاوْنِدِرِي . كَانَ يَوْمًا صَحْوًا مُشْرِقًا مِنْ أَيَّامِ الْخَرِيفِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَا مِنَ الْقِطَارِ
سَارَتَا مَعًا وَسَطَ الْحَقُولِ ، وَفِي دُرُوبِ تَظَلَّلَهَا الْأَشْجَارُ تَتَمَتَّعَانِ بِهَدْوٍ أَرِيفٍ
وَحُضْرَتِهِ ، وَقَدْ حَرَصَتَا عَلَى تَجَنُّبِ تِلْكَ الْمَبَانِي السُّودَاءِ الْخَالِيَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَنَاجِمِ
الْفَحْمِ الْمَهْجُورَةِ . وَعِنْدَ الظَّهِيرَةِ جَلَسَتَا لِتَسْتَرِيحَا .

قَالَتْ سِيسِي : « إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ هَادِئٌ جِدًّا ، فَالْكَتَّاسُ لَا يَسْلُكُونَ هَذِهِ الدُّرُوبَ
الْآنَ . » وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَتَكَلَّمُ لَاحَظَتْ وُجُودَ سِوَرٍ قَدِيمٍ مَكْسُورٍ عَلَى مَسَافَةِ بَضْعَةِ
أَمْتَارٍ ؛ فَتَهَيَّضَتْ مِنْ مَكَانِهَا وَذَهَبَتْ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً ثُمَّ قَالَتْ : « لَا بُدَّ أَنَّ شَخْصًا

خَطَمَهُ حَدِيثًا ! تَعَالَى يَا رَاشِيلُ ! هُنَاكَ قُبْعَةٌ مُلْقَاةٌ عَلَى الْحَشَائِشِ ! »

الْتَقَطَتْ رَاشِيلُ الْقُبْعَةَ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ تَرْتَعِشُ ، وَنَظَرَتْ بِدَاخِلِهَا وَقَرَأَتْ
اسْمَ سَتِيفِنِ بِلَاكُيُولِ قَصْرَحَتْ : « يَا لِلْفَتَى الْمِسْكِينِ ! لَقَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ ! لَا بُدَّ
أَنَّهُ مُلْقَى هُنَا يَا سِيسِي ! »

نَظَرْنَا حَوْلَهُمَا دُونَ أَنْ تَتَحَرَّكَ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ تَجِدَا شَيْئًا يَخْصُ سَتِيفِنَ ، فَقَالَتْ
سِيسِي : « سَأَمْشِي قَلِيلًا . »

وَهَمَّتْ بِأَنْ تَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهَا ، فَإِذَا بِرَاشِيلِ تُطْلِقُ صَرَخَةً عَالِيَةً ، وَتَمْسِكُهَا
مِنْ ذِرَاعَيْهَا وَتَجْذِبُهَا إِلَى الْوَرَاءِ . وَنَظَرْنَا دَاخِلَ حُفْرَةِ سُدَاءِ أَمَامَهُمَا ثَكَادُ نُحْتَفِي
بَيْنَ الْحَشَائِشِ الطَّوِيلَةِ الْكَثِيفَةِ ، وَصَاحَتْ رَاشِيلُ : « يَا إِلَهِي ! إِنَّهُ مُلْقَى فِي
الْقَاعِ ! هُنَاكَ ! وَالْفَجَرَتْ فِي الْبُكَاءِ بِصَوْتٍ عَالٍ عِدَّةَ دَقَائِقَ ، وَوَقَفَتْ سِيسِي
أَمَامَهَا لَا تُدْرِي مَاذَا تَفْعَلُ ، وَأَخِيرًا قَالَتْ : « يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ يَا عَزِيزَتِي رَاشِيلُ
فِي سَتِيفِنَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ حَيًّا . يَجِبُ أَنْ نَجْلُبَ الْعَوْنَ بِسُرْعَةٍ . »

قَالَتْ رَاشِيلُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ! أَسْرِعِي فِي جُلْبِ الْعَوْنِ . »

تَوَجَّهَتْ سِيسِي إِلَى حَافَةِ الْحُفْرَةِ وَصَاحَتْ تُنَادِي سَتِيفِنَ ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي بُدَائِهَا
أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، وَلَكِنْ مَا مِنْ مُجِيبٍ ، فَقَالَتْ : « يَجِبُ أَلَّا نُضَيِّعَ مَرِيدًا
مِنْ الْوَقْتِ يَا رَاشِيلُ . عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ فِي أَتْجَاهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ طَلَبًا لِلْعَوْنِ . وَأُبَلِّغِي
كُلَّ مَنْ تُقَابِلِينَهُ بِمَا حَدَّثَ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجَالُ إِلَى هُنَا بِجِبَالٍ . وَيَجِبُ أَنْ
تَبْعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى كُوكْتَاوَنَ . فَتُحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى طَبِيبٍ . أَسْرِعِي يَا رَاشِيلُ !
فَكَّرِي فِي سَتِيفِنَ ! وَعَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّكِي هَذَا الدَّرَبَ ، أَمَّا أَنَا فَسَأُوَاصِلُ السَّيْرَ إِلَى
الْأَمَامِ . »

في حوالى الخامسة مساءً تم إخراج ستيفن من الحفرة وهو مهتمم الجسد ولكنه كان حيًا . وجاء في تلك اللحظة كل من لويزا و غراذرايند ، وجاء أيضا السيد باونديري ومعه الجرو وطبيب .

أعطى الطبيب ستيفن دواءً قويًا ، فاستطاع أن يتكلم بضع دقائق ، وعرفوا منه أنه كان في طريقه إلى منزل السيد باونديري سيرا على الأقدام قادمًا من مكان عمله ، حتى ثبت للجميع أنه لم يسقط على البنك ، إلا أنه أثناء اجتيازه تلك البقعة الخطرة من الريف لئلا سقط في الحفرة .

إنحنت راشيل فوقه وهو ملقى على الحشائش وقالت له : « إنك تشعر بالآلام شديدة يا فتاي العزيز ! هل الأمر في غاية السوء ؟ »

أجابها : « لقد كانت الآلام فظيعة يا راشيل ، إلا أنها أخف كثيرًا الآن . إنه التخطُّط يا فتاتي ... التخطُّط في كل شيء . أنظري هناك يا راشيل وتطلعي إلى السماء . هل تَرَيْنَ ذلك النجم ؟ »

تطلَّع الجميع إلى السماء ورأوا بها نجمًا من نجوم الليل الساطعة . وواصل ستيفن كلامه فقال : « لقد كنت أتطلَّع إلى هذا النجم خلال وجودي بالحفرة يا راشيل ، واعتقد أن هذا النجم قد صار حني بالحقيقة . فعندما تسلمت رسالتك تذكرت تلك السيدة الشابة وشقيقها . »

وجاءت لويزا وإنحنت إلى جوار ستيفن الذي استمر في كلامه : « لقد اعتقدت أنهما خططا معًا لهذه الجريمة . وكنت مسرعًا في طريقي لأوجه الاتهام إليهما عندما سقطت في هذه الحفرة . ولكن لما تطلَّعت إلى النجم تبينت لي الأمور بجلال ووضوح . »



التفت ونظر في عيني لويزا وقال : « إنني أفهمك الآن يا سيدي . فليجرك الله خير الخراء . هل يمكنك أن تحملي رسالة مني إلى والدك ؟ »

كانت لويزا ترتعد وهي تقول : « أبي هنا . » وأقبل السيد غراذرايند عندما نادته ؛ فقال له ستيفن :

« أنا لا أعتقد يا سيدي أن أمامي وقتًا طويلًا ؛ لذا عليك أن تثبت براءتي . إن اسمي وسمعتي بين يديك الآن . »

قال غراذرايند : « وكيف أثبت ذلك ؟ »

أجاب ستيفن : « سيعرفك ابنك بكل شيء . إنني لا أتهم أحدًا بالسرقعة ، ولن أنقو بكلمة في حق أحد . ولكن الذي حدث هو أن ابنك تكلم معي يومًا ،

وَهُوَ يَعْلَمُ السَّبَبَ الَّذِي كُنْتُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْتَظِرُ أَمَامَ الْبَيْتِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَذْكُرَهُ
لَكَ . »

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْصَرَفَتْ سِيسِي مِنْ وَسْطِ الْجَمْعِ الْمُلْتَفِّ حَوْلَ سَتِيفِن .
وَأَتَجَهَّتْ إِلَى حَيْثُ يَقِفُ السَّيِّدُ بَاوْنِدِرِي وَتُوم ، ثُمَّ هَمَسَتْ بِشَيْءٍ فِي أُذُنِ تُوم .

كَانَ بَعْضُ الرِّجَالِ الَّذِينَ اتَّفَعُوا سَتِيفِن قَدْ أَعَدُّوا لَهُ فِرَاشًا وَأَرْقَدُوهُ عَلَيْهِ ، وَقَامَ
الطَّبِيبُ بَلَفَهَ بِنَعَضِ الْمَعَاطِفِ وَالْأَغْطِيَةِ ، وَحَمَلَهُ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ عَبْرَ ذَلِكَ الدَّرَبِ .
قَالَ سَتِيفِن لِرَاشِيل : « أُمْسِكِي يَدِي يَا عَزِيزَتِي رَاشِيل ؛ فَإِنَّا نَسْتَطِيعُ اللَّيْلَةَ أَنْ
نَمْشِيَ مَعًا دُونَ حَجَلٍ . »

قَالَتْ رَاشِيل : « سَأُمْسِكُ يَدَكَ يَا سَتِيفِن ، وَسَأُظَلُّ إِلَى جَوَارِكَ . »

قَالَ : « بَارَكَكَ اللَّهُ ! هَلْ يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تُعْطُوا وَجْهِي ؟ »

حَمَلَهُ الرِّجَالُ وَسَارُوا بِهِ فِي هُدُوءٍ ، وَكَانَتْ رَاشِيلُ مُمْسِكَةً بِيَدِهِ . وَلَمْ يَتَكَلَّمْ
سَتِيفِن بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْمَوْكِبُ إِلَى مُحْطَةِ الْقِطَارِ كَانَتْ الْحَيَاةُ قَدْ
فَارَقَتْهُ ، وَصَارَتْ يَدُهُ بَارِدَةً .

وَلَمْ يَكُنْ تُومُ فِي هَذَا الْمَوْكِبِ .

الفصل الحادي والعشرون

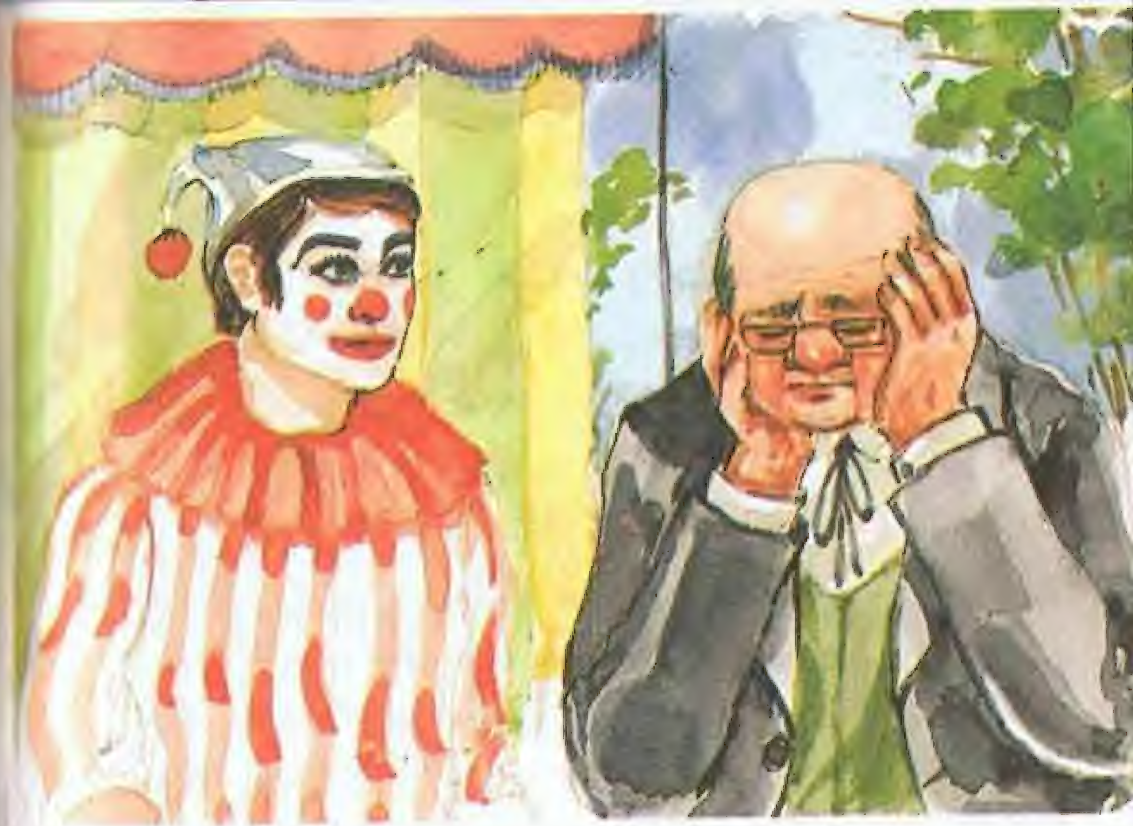
لَمْ يُشَاهَدْ تُومُ غَرَاذْغَرَايْنِدَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي كُوكْتَاوَن . فَفِي مَسَاءِ يَوْمِ الْآخِذِ عَمِلَ
تُومُ بِبَصِيحَةٍ سِيسِي وَسَافَرَ إِلَى مَدِينَةِ لِيْفَرِبُولِ الَّتِي تُبْعُدُ حَوَالِي خَمْسِينَ كِيلُومِتْرًا
عَنْ كُوكْتَاوَن ، وَهُنَاكَ عَثَرَ عَلَى سِيرِكِ سَلَارِي حَيْثُ أَلْتَقَى بِالسَّيِّدِ سَلَارِي ،
وَسَلَّمَهُ رِسَالَةً مِنْ سِيسِي . وَلَمْ يُوَجِّهِ السَّيِّدُ سَلَارِي إِلَيْهِ أَيَّةَ أَسْئَلَةٍ ، وَاکْتَفَى بِأَنْ
قَالَ لَهُ إِنَّهُ اعْتِرَافًا مِنْهُ بِعَطْفِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِدَ ، وَرِعَايَتِهِ لِسِيسِي ؛ فَإِنَّهُ سَنُوفُ
يَمُدُّ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ لِأَيِّهِ تُوم . وَمِنْ ثَمَّ أُعْطِيَ تُومُ زِيَا مِنْ أَزْيَاءِ الْمُهَرَّجِينَ بِالسَّيْرِكِ
لِيُعَاوَنَهُمْ .

وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ وَصَلَ إِلَى السَّيْرِكِ السَّيِّدِ غَرَاذْغَرَايْنِدَ وَلُويْزَا وَسِيسِي ،
وَتَحَدَّثُوا إِلَى السَّيِّدِ سَلَارِي ، وَشَرَحُوا لَهُ خَطَّتَهُمُ الَّتِي أَعَدُّوا لِهَرُوبِ تُومِ إِلَى
أَمْرِيكََا عَلَى ظَهْرِ إِخْدَى السُّفُنِ ، الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ تُغَادِرَ لِيْفَرِبُولَ فِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ . وَوَأَفَّقَ السَّيِّدُ سَلَارِي عَلَى الْخُطَّةِ ، وَأَخْضَرَ تُومُ إِلَى الْخِيْمَةِ ، وَتَرَكَهُ مَعَهُمْ
وَأَنْصَرَفَ .

وَعِنْدَمَا رَأَى السَّيِّدُ غَرَاذْغَرَايْنِدَ أَنَّهُ فِي مَلَابِسِ الْمُهَرَّجِينَ دَفَنَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
وَسَأَلَهُ بِأَكْبَى : « لِمَاذَا ... لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ »

سَأَلَهُ تُومُ بِعَبَاءٍ : « مَاذَا فَعَلْتُ ؟ ! »

قَالَ لَهُ وَالِدُهُ : « لِمَاذَا سَرَقْتَ الْبَيْتَ ؟ لَقَدْ أَغْيَانِي هَذَا الْحَبِيرُ . »



قَالَ ثُوم : « كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّعَ ذَلِكَ . لَقَدْ جَعَلْتَنِي أَعْمَلُ بِأَلْبَنِيكَ ، وَعِنْدَمَا يَعْْمَلُ خَمْسُونَ شَخْصًا بِأَلْبَنِيكَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْرِقَ أَحَدُهُمُ التَّقْوَدَ ، وَتِلْكَ إِحْدَى حَقَائِقِكَ الشَّهِيرَةِ الَّتِي كَرَّرْتُهَا مِثَّةَ مَرَّةٍ عَلَى مَسْمَعِي ، وَكُنْتُ تَجِدُ دَائِمًا رَاحَتَكَ فِي الْحَقَائِقِ . حَسَنًا ، إِذَا فَلْتَجِدُ رَاحَتَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَيْضًا . »

حَتَّى غَرَادَغْرَايْنِدَ رَأَسَهُ قَائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تُغَادِرَ إِنْجِلِيزَا اللَّيْلَةَ ، وَأَعْطَاهُ بِحَظَابَا وَقَالَ لَهُ : « إِلَيْكَ التَّذَكُّرَةُ ، وَبَعْضُ التَّقْوَدِ ، وَأَمَلُ أَنْ تُوفَّقَ فِي عَمَلِ شَيْءٍ نَافِعٍ . لَقَدْ كَانَتْ جَرِيْمَتُكَ شَبِيْعَةً ، وَكَانَتْ نَتَائِجُهَا وَخِيْمَةً . وَلَكِنْ مَدَّ لِي يَدَكَ يَا وَلَدِي الْمِسْكِينِ . وَلَيْسَ بِخَلْقِ اللَّهِ كَمَا سَامَحْتِكَ . »

وَأَنحَرَطَ ثُومٌ فِي الْبَكَاءِ عَلَى حِينٍ مَدَّتْ لَهُ لُوِيْزَا ذِرَاعَيْهَا ، وَلَكِنَّهُ صَاحَ فِيهَا

قَائِلًا : « لَا ! لَيْسَ أَنتِ ! لَنْ أَمْسِكَ ! إِنْ كُلَّ مَا حَدَثَ كَانَ نَتِيْجَةً لِحُطْلُوكِ ، فَأَنْتِ لَمْ تَهْتَمِّي بِي قَطُّ . »

إِنْفَجَرَتْ لُوِيْزَا بِأَكْبَرَةٍ ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدِمَ سَلَارِي ، وَقَالَ : « عَلَيْنَا أَنْ نُسْرِعَ ؛ فَالْمَسَافَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمِيْنَاءِ أَكْثَرُ مِنْ بَسْعَةِ كِيلُوْمِيْتَرَاتٍ ، وَلَنْ نَنْتَظِرَنَا السَّفِيْنَةُ . »

خَرَجُوا جَمِيعًا ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِ الْخِيْمَةِ وَقَدْ آرْتَسَمَتْ آيِسَامَةُ عَلَى وَجْهِهِ النَّحِيْفِ الْأَبْيَضِ ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ بِيْتَرَر . قَالَ :

« لَقَدْ تَبَيَّنَتْ خُطَاكُمْ مِنْ كُوكُنَاوَنَ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ مَا تَقُولُونَ . وَيُؤْسِفُنِي أَنْ أُنْذَخَلَ فِي خُطْبَتِكُمْ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ ثُومِ الصَّغِيرِ أَنْ يَأْتِيَ مَعِي . لَقَدْ كَانَتْ الظُّلُومُ تُرَاوِدُنِي دَائِمًا بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَطَا عَلَى أَلْبَنِيكَ ، وَقَدْ تَأَكَّدْتُ الْآنَ مِنْ صِحَّةِ ظَنُونِي . »

إِرْتَعَدَ جَسَدُ غَرَادَغْرَايْنِدَ وَقَالَ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « أَلَيْسَ لَكَ قَلْبٌ خَنَوٌ يَا بِيْتَرَر ؟ » أَجَابَهُ : « بَلَى ، يَا سَيِّدِي إِنَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْبَشَرِ لَهُمْ قُلُوبٌ خَنَوَةٌ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ ، فَالْقَلْبُ دَاخِلُ الْجَسْمِ هُوَ ... »

قَاطَعَهُ صَانِحَا : « نَعَمْ ، نَعَمْ يَا بِيْتَرَر ، وَلَكِنْ أَلَا تَأْخُذُكَ بِنَا شَفَقَةٌ ؟ أَلَا يُهْمُكَ أَمْرُنَا ؟ أَمْ لَعَلَّكَ تَتَفَكَّرُ فِي مُكَافَأَةٍ مَا ؟ »

أَجَابَهُ بِيْتَرَر : « شَفَقَةٌ ! إِنْ الْعُقَلَاءَ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا فِي الْحَقَائِقِ يَا سَيِّدِي ، وَأَنَا لَا أَكْزُرُهُ ثُومِ الصَّغِيرِ ، وَلَكِنِّي سَوْفَ آخُذُ مَكَانَهُ بِأَلْبَنِيكَ . »

سَأَلَهُ غَرَادَغْرَايْنِدَ : « هَلْ لِي أَنْ أُعْرِضَ عَلَيْكَ شَيْئًا ؟ كَمْ مِنْ أَلْمَالِ ... ؟ »

قاطعة بيتزر قائلا : « يُوسفتي أن أقاطعك يا سيدي ، ولكني لو قبلت منك
نقودا لكنت مذنبًا بدوري . إني أفضل أن آخذ مكان ثوم . »

كان سلاوي يسمع هذه المناقشة فاغر الفم دهشًا ، ثم أبتسم خلسة ليسي
وقال للسيد غراذرايند : « حسنا يا سيدي . إن الأمر بالغ الخطورة ، ولم أكن
أعرف أن أبتك سطا على بئك . إني أتفق مع هذا السيد فيما يقوله وأنا آسف
لهذا ؛ ولكن يجب أن يعود أبتك إلى كوكثاون . »

والتفت إلى بيتزر قائلا : « إني لا أستطيع أن أفعل الكثير يا سيدي ، ولكن
حصاني وعزيتي على أهبة الاستعداد وسأوصلكما إلى المحطة . وسأمر بعربة
أخرى ليركبها السيد غراذرايند والسيدتان ثم تسير خلفنا . »

قال بيتزر : « هذا جميل ، وشكرا لك يا سيد سلاوي . إني ما كنت أعرف
أن أهل السيرك يطيعون القانون . »

قال سلاوي : « إننا نطيع القانون طبعًا يا سيدي ، ولكن هل يضايقك أن
أصطحب كلبي معي ؟ فالحصان يرفض أن يذهب إلى أي مكان بدون الكلب .
ولهذا يجب علي أن آخذه معنا . »

قال بيتزر : « يستطيع الكلب أن يساعد في جراسة هذا اللص الكذاب . »

ووصلوا إلى العربة وركبها ثوم وبيتزر والكلب . وقال سلاوي لبيتزر :
« استأذئك دقيقة واحدة حتى أصطحب السيد غراذرايند والسيدتين إلى خيمتي
لانتظروا وصول عربتهم . »

ولما دخلوا الخيمة أسرع السيد سلاوي بشرح خطئه للسيد غراذرايند
فقال : « يمكنك أن تعتمد علي يا سيدي ؛ فقد دربت هذه الحيوانات بنفسني ؛
فالحصان لن يصل أبدا إلى المحطة ؛ لأنه سيصاب بالهياج . عندما نصل إلى مكان
ما بالطريق ، وسوف أظاهر عندئذ بأنني فقدت السيطرة عليه ، وستكون قد
أقتربتنا من الميناء ، وعندئذ سنقذف بأبتك خارج العربة على حين يمسك الكلب
بسريرال بيتزر وأقف أنا دون أن أفعل شيئا ؛ ومن ثم ستتمكن من أن تضع أبتك
على متن السفينة المسافرة . »

وفق السيد سلاوي في العثور على ملابس مناسبة لثوم الصغير ، وأخذ معه
قطعة من القماش وزجاجة زيت ليستخدمها في تنظيف وجه ثوم وإزالة الأصابع
عنه ، وقاد العربة وسط الظلام الذي كان قد خيم على المكان .

أما غراذرايند ولويزا ويسي فقد شعروا جميعًا بالإمتنان لسلاوي ، وقضوا
ليلتهم في أحد الفنادق . وعاد السيد سلاوي مضطجبا كلبه في حوالى الرابعة
صباح اليوم التالي . وكان ثوم على سطح السفينة في طريقه إلى أمريكا . أما بيتزر
فكان في طريق عودته إلى كوكثاون وحيدا .

أقام السيد غراذرايند حفلا في الفندق لكل العاملين بالسيرك ، وقد أسعد
يسي أن تلقى مرة أخرى بكل أصدقائها الأقدمي ، وأثناء العشاء همس السيد
سلاوي إلى السيد غراذرايند قائلا :

« لقد توفي والد سيسي ، ولا أعرف متى ولا أين توفي ، ولكني واثق بأنه
قد مات . »

سأله غراذرايند : « كيف عرفت ذلك ؟ »

أجابته سلاوي : « كان لأبيها كلب يُدعى مريغز ، وقد عادَ هذا الكلب إلى السيرك منذ أربعة عشر شهرا ، وكان في حالة سيئة جدا بعد أن فقد بصره ، ولا بد أنه سار مسافة طويلة قبل أن يصل إلينا . وما إن وصل إلى السيرك حتى راح يشم الأطفال واجدا بعد الآخر ، وكأنه يبحث عن طفلة معينة يعرفها حتى وصل إلي ، وحاول أن يقف على رجليه الخلفيتين ، ولكنه سقط ومات بعد خمس دقائق . إن ذلك الكلب يا سيدي ما كان ليترك صاحبه جوب لو كان على قيد الحياة . »

قال غراذغرايند : « إنني لا أوافقك الرأي ، فإن سيسي لا تزال تأمل أن يعود والدها يوما ، ولا تراودها أي شكوك في أنه ما زال يحبها . »

قال سلاوي : « دعها تستمر في آمالها وفي حبها يا سيدي . فإن ذلك سيجعل حياتها أكثر سعادة . »

ولكن ماذا حمل المستقبل في طياته لشخصيات هذه القصة ؟ ماذا سترى لو نظرنا إلى المستقبل ؟

لقد ظل باولديري غاضبا من السيدة سارست ، وضافت هي به ذرعا ، وبعد أسبوعين فقط أعادها إلى عائلتها الثرية ، ولكنها قالت له قبل أن تتركه : « يجب عليك يا سيدي أن تعمل بالسيرك ؛ فأنت في الحقيقة مخرج ، والسيرك هو المكان الملائم لك . »

وكلما تقدم العمر باولديري ازداد وجهه أحمرارا ، وازداد غضبا من كل صغيرة وكبيرة . وبعد مرور خمس سنوات على تلك الأحداث كان يسير ذات يوم في الشارع متجها إلى البنك عندما انفجر شيء في داخله ، ومات في الشارع . إنه لم ينشأ في الشارع ، ولكنه — في حقيقة الأمر — مات فيه .

أما غراذغرايند فقد تغير تغيرا ملحوظا ؛ إذ حل الحب والأمل في حياته محل الحقائق والأرقام . وتمتع مع أولاده الثلاثة الصغار بحياة أسعد بكثير من الحياة التي عاشتها شقيقته لويزا ، وأخوهم ثوم الصغير . ونشر غراذغرايند خطابا أعلن فيه على الملأ براءة ستيفن بلاكيول ، وأن المذنب الحقيقي هو أبنته ثوم .

ماذا أخفى المستقبل للويزا ؟

لقد عاشت حياة رقيقة . وتلفت من ثوم خطابا يلتبس فيه منها الصنف وقال لها في خطابيه : « إنني لأضحى بكنوز الدنيا كلها من أجل أن أرى وجهك مرة أخرى . » ولكن القدر شاء ألا ترى وجهه مرة أخرى ، فقد مات بالحمى في أحد المستشفيات .

ولكن هل تزوجت لويزا مرة أخرى ؟ هل أنجبت أطفالا ؟

لا لم ينشأ لها القدر ذلك .

هل كان لها أصدقاء ؟ نعم كان لها أصدقاء ؛ فقد كانت راشيل أعز أصدقائها . واستمرت راشيل في عملها بمصنع النسيج طوال حياتها ، وعاشت حياة سعيدة ، وكانت دائما طيبة خنونا . وكانت الشخص الوحيد في كوكتاون الذي أحب زوجة ستيفن وأشفق عليها .

كان للويزا صديقة أخرى هي سيسي ، التي ظلت دائما إلى جوارها ومعها أبنائها . وكان لسيسي منزل تحيط به الزهور ، وشمس الصور والكتب والقصص ، وقد زينت جذرائه وأرضيته بالصور الخيالية الجميلة . لقد كان بيتها مكانا مملوءا بالحب وبكل أسباب المتعة . حتى السيد غراذغرايند كان يحاول أن يستمتع بهذه الأشياء التي أحببتها لويزا بدورها حبا جما .

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١١٠ شارع حسن، واصل، ميدان المساحة، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى: ١٩٨٩

رقم الإيداع: ١٩٨٩/٢٧٦٠

الترقيم الدولي: ٢-٢٢-١١٦٦-١٧٧٧ ISBN

رقم مودع كتيبوتر 01 C 198110

طبع بمطابع أخبار اليوم

الزمن العَصيب



الروايات المشهورة

